ملامح
طفولة الفكر الكُردستاني

ملامح

طفولة الفكر الكُردستاني

أحمد قرني

مرايا الكتاب

الكتاب: ملامح طفولة الفكر الكُردستاني

الكاتب: د.أحمد قرني

الطبعة: الاولى ٢٠١١

تصميم الغلاف: كارزان سعدي حسين

لوحة الغلاف: دارا محمد علي

المطبعة: مطبعة شهاب ـ أربيل

رقم الإيداع في المديرية العامة للمكتبات العامة (٩٣٦) لسنة ٢٠١١.

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الإهداء

أهدي جهدي المتواضع هذا الى الأرواح الطاهرة:

- شاكر فتاح معجباًفي عبقريته الإدارية
- صبري بوتاني حباً لوطنيته الخالصة
- سعدالله آفدل تيمناً لشخصيته العصامية المكافحة
- أكرم القرداغي لثقافته الواعية في التواضع

هەوالنامەی کتێب

المقدمة

لو كان للتنظير تأثيره الفعال في تخطيط أي مشروع وإرساء قواعده، فإنه يفقد أهميته إذا لم يطبق على أرض الواقع. وكل تطبيق عملي إن لم يكن له إنتاج، فإن الجهد المبذول يذهب أدراج الرياح. وكل إنتاج إن لم يكن له ربح مادي او مكسب معنوي، فإنه لايفيد صاحبه بل يصبح عالة على كاهله. وأي من الربح الوفير او المكسب المشرف إن لم يندمجا مع القيم الحياتية للمجتمع او يسموا الى رفعة الضمير الإنساني، فإنهما سيبقيان في أسر المنعطفات المغامرة والتي كثيراً ما يدحرجا صاحبهما الى الهاوية.

أتعبتني هذه الفكرة عندما حاولت أن أطبقها على بعض ما يجري في بلدي ـ الذي هو في طور البناء ـ من مشاريع متواضعة، ويخصص لها أموال طائلة ... لم أستطع أن أوفق في خطواتي الأربع الآنفة الذكر. وهنا يأتي السؤال المحرج بعض الشيء وهو: هل تسمو هذه الخطوات الى ذلك المستوى لتصبح قواعد يمكن الإعتماد عليها في تقييم مثل هذه الأمور الحساسة الى حد الخطورة؟

بدا لي، من أول وهلة، ان الأمر طبيعي ويمكن البت به متى ما أشاء وكيفما أريد. فكرت جلياً بما فيه الكفاية. لم أر من الضروري أن أقوم بإعداد بحث أو تأليف كتاب حول ذلك، بل تعرجت الى الطريق الأسهل والأمتع لإيصال الفكرة و تجلياتها الى أكبر عدد من القراء. اتفقت مع رئاسة تحرير مجلة (الصوت الآخر) الأسبوعية والتي كانت وماتزال تصدر في أربيل وباللغة العربية، بأن تخصص زاوية أسبوعية لنشر تلك الأفكار تباعاً. إتفقنا أن تعنون الزاوية بـ (أفكار في مهب الريح) ومن شذراتها تأتي المواضيع التي تخطر في بالي حول ماأراها مناسبة مع المحيط الثقافي المتيقظ والمهمش الى حد كبير من جهة، ومن جهة أخرى بذلتُ كل جهدي لتتفق كتاباتي مع الأسس التي تحنو عليها طفولة الفكر الكردستاني المعاصر. تلك الطفولة المغفلة ـ نوعاً ما ـ عن خفايا الوقائع ودهاليز

الأحداث. وما كان يحزنني من الأعماق، هو أن كينونتها كانت تكمن في كونها بريئة من حيث المنشأ، وأسيرة مطواعة في قبضة الحرية. تُنظر اليها ـ في أكثر الأحيان ـ فريسة متوقعة تخرج من محمية مستغل فاسد لتدخل في مصيدة طماع متسلل. وبسبب شدة الترابط بين براءة تلك الأفكار و عدم جدواها في التطبيق، بدا لي من الأجدر أن يتغير العنوان من (أفكار في مهب الريح) الى (ملامح طفولة الفكر الكُردستاني) لأن كلاهما في المبنى والمحتوى سواء. وهكذا على منوال التفكير المنطقي الذي يربط الأسباب بالنتائج، بدأ مشوار النشر في المجلة المذكورة من العدد (١٥٩) الصادر في (٢٢/آب/٢٠٠٧) وأستمر الى العدد(٢٦٤) الصادر في (٢١/تشرين الاول/٢٠٠٩). وبذلك إكتملت عندي مادة غزيرة ومركزة من الأفكار المطروحة للبحث المستفيض والمناقشة المفتوحة، وربما بعضها ترسم خطوطاً عاماً لمشاريع فكرية تمس مستقبلنا الإقتصادي والإجتماعي والتربوي والإعلامي والسياسي...أو تكون مدخلاً لخطة عمل ثقافي أو مشروع علمي...وأشياء أخرى سيدفنها أو يكتشفها الزمن.

لم تكن هذه تجربتي الاولى في هذا المجال. قبلها كنت أنشر زاوية مشابهة لها في الشكل مع إختلاف المحتوى والتوجه طبعاً، في الصفحة الأخيرة من مجلة (كولان العربي) الشهرية في أعدادها الصادرة بين أعوام (١٩٩٨-٢٠٠٢) وثم تم طبع تلك الحلقات مجتمعة بين دفتي كتاب يحمل عنوان الزاوية نفسه(على أمواج الصراحة) مضافاً إليه (قصاصات صحفية حول الفكر الكردي المعاصر)، مطبعة وزارة التربية ـ أربيل ٢٠٠٠. وهذا يعني أن التجربة الاولى كانت تعبر عما يدور في بالي من أفكار وإنطباعات تمس المجتمع الكُردستاني في العقد الأخير من القرن العشرين، أما التجربة الثانية فتأتي من صميم العقد الاول من القرن الحادي والعشرين.

في التجربة الاولى، كان العقل أداة مطواعة يحركه الفكر. أما في الثانية، أصبح العقل غاية في ذاته، يعمل فيه الفكر ومن أجل تطويره كان الهدف الأساس من كتابة مقالات مستنبطة من الواقع الكُردستاني.

ما أود قوله هنا أن التجربتين انبثقتا من نسيج ذكريات بدأت خيوطه الأولى تغزل في أعماق أيام طفولتي التي كانت كتلة من المعاناة الأليمة، إلا أن العائلة الفقيرة التي ترعرعت في كنفها منحتني أعظم ما موجود في الدنيا، وهو كفاف العيش المحلى بالحنان و القناعة المفروشة بالمحبة. فمن الحنان تعلمت كيف أكون حراً ومن المحبة تعلمت أن أضحي من أجل حرية الآخرين. بموازاة هذين الخطين، أتقنتُ لغة الصمت، ومن ثم التفكير بصوت عال، وثم الكتابة بلغة التحدي. والتحدي الإيجابي وحده ـ في نظري ـ هو المخاض الأمين لولادة كل جديد في الحياة.

كانت الأفكار التي تراودني في مرحلة الطفولة متنوعة مثل ألوان الحياة، أكثرها بدائية تنطلق من السذاجة البريئة و تتلاشى في أعماق الكون اللامتناهية، ولا تبقى لدي سوى علامات إستفهام كبيرة تضاهي قامتي طولاً، بحيث لاأستطيع أن أتكأ عليها أثناء إرهاقي الفكري.

في المدرسة تعلمت أبجدية العلم والشيء الكثير من المعلومات، ولكن المطالعة الخارجية ونهمي للقراءة أخذتا بيدي وجعلاني اودع مروج طفولة الفكر وأتخطى عتبة الثقافة الموسوعية وأدخل في دهاليزها بكل شوق و تودد. وأجمل ماأستكشفت فيها هو البحث و التحري حباً للوصول الى الحقيقة. ومع هذا الحب تضافرتُ برحلات شيقة حول مدارات العلم الواسعة، سواء في حياتي الأكاديمية، او عملي المهني في مجال التربية والتعليم، او جهدي المتواضع في دنيا الصحافة. والمعيار الأمثل الذي أثق به في قياس هذه المسافات ـ خلال نصف قرن ـ هو التطور الفكري الذي يزامن مراحل حياتي البايولوجية، وكل أملي

أن يتركها في مرحلة الشيخوخة وتنطلق في مساحات اوسع من دون توقف.. يا لها من حياة حلوة وجميلة.

أتفق مع الذين يرون أن عظمة الطفولة تكمن في حُسن مظهرها. وما عبرت عنه في هذه المقالات القصيرة هي الصورة الظاهراتية عن الفكر الكُردستاني ـ طبعاً ـ من خلال ماينتجه من توجهات آيديولوجية ومشاريع عمرانية ومساحات جميلة للترفيه و الإستجمام، وكذلك بناء السواعد التي تحمي الصفوف المنتظمة والقواطع التي تشتاق الإستقرار أبداً... التسلسل الإستدراجي لهذه الإنجازات هو الكلام نفسه عن الصورة الخارجية لحالة تفور من الداخل، لايمكن أن يعبر عنها إلا بالبحث المعمق و التحليل العلمي المستوعب لأبعادها القصوى. إذن فالصورة الخارجية تأتي أثناء استخدام العقل كوسيلة في وصف النشاطات الذهنية. تركت المعتاد وتبعت ما يهديني أن أعمل في ثنايا العقل، لتكون النشاطات الذهنية استنتاجات متجانسة تشير من خلال أسسها الفنية ومدلولاتها الفكرية الى تحديث مايمكن تجديده في الذوق العام للمجتمع.

لاتنحصر أهمية هذه المواضيع في تنوع الجوانب التي تعبر عنها فقط، بل يكمن المغزى الاساسي من ذلك في أن الصور الملتقطة تشمل على أكثر مجالات الحياة الكُردستانية إثارة، وفي الوقت نفسه أقلها رعاية، لذا تحاول دوماً أن تغوص في أعماق النفس الإنسانية، ومن ثم ربط مافيها من إحساسات جياشة، وعواطف مرهفة، وإنفعالات تفوح منها رائحة الحرية بخيوط رفيعة ربما تنسج بها فلسفة المجتمع التي بدت أسسها تترسخ مع ظهور الإشارات البدائية لبراءة طفولة الفكر الكُردستاني في العقد الاول من القرن الحادي والعشرين. وما أجدى الطفولة التي لها المستقبل بأكمله.

ما يعذبني نفسياً ـ الآن ـ هو ما أشعر به أن التفكير الجمعي في بلدي لايزال في مرحلة الطفولة المتقدمة، ويخجل أن يدخل في مرحلة المراهقة. وفي الوقت نفسه أرى هناك نواة لأفاضل قطعوا أشواطاً في عالم الفكر والبحث العلمي، يمكن أن يقتدى بهم كثيرون مثلي،

وربما لهم معاناتهم ماتفوق آهاتي. ومن تلك الآهات تولدت هذه الكتابات أضعها بين أيديكم، متمنياً أن تنال رضاكم، وسعياً لمبتغاكم أحاول جاهداً أن أقطع أشواطاً في هذا الدرب الطويل كي نبدأ العمل سوية، لتأسيس بنوك الفكر الكُردستاني التي تتحدى عنجهية العجز ولا تسمح لنفسها أن تعانق التضخم المدلل أبداً...

ومن الله التوفيق...

أربيل ـ كويستان ١/ كانون الأول/ ٢٠١٠

هەواڵنامەی کتێب

الفلاح الكُردي والحسناء الامريكية

مرت ثلاثة عقود على حكم احد باشوات الكُرد لمجموعة عشائر مؤتلفة تحت أمرته الدينية والدنيوية، ولم ينج من بطشه وضرائب جُباته إلا رجل تقي صالح واحد طيب المعشر ولايسعى الا وراء الرزق الحلال، وبقدر ماكان ينال من المال الوفير كان غضب الباشا يزداد وطمعه في تقويض ممتلكاته يعلو فوق كل نزواته...

جرّب الباشا حيلاً كثيرة فلم يفلح، إلا في المرة الاخيرة عندما علم أن المسكين منهمك في جني مزارع كرومه، فأتته فكرة اتهامه بصناعة المشروبات الروحية والمتاجرة بها، وطبعاً ثبوت هذه التهمة يكفي لمعاقبته مالياً حسب مايهواه الباشا..

في يوم المحاسبة وامام أعين الملأ، أعلن الباشا قائلاً:

- سنكتفي في هذه المرة بتغريمك (١٠٠) ليرة ذهبية فقط ونسامحك على ما اقترفته من جرم كبير... أما في المرة القادمة فستخسر رأسك ومالك.

- مولاي، استغر الله العظيم، ما هذا الكلام! لم أتقرب من هذا العمل ولم أفكر فيه، واستحرم رائحتها، فكيف لي ان أصنعها!!..

- لدينا شواهد كثيرة وكافية لإدانتك.. فانت تملك كل مستلزمات صنع أُم الخبائث من جهاز التقطير، كروم، نار، ماء، قناني.. فمن يقول انك لاتصنعها و...؟!

- مولاي! جهاز التقطير مخصص للعطور الزكية، والقناني لعصير الفواكه، وهل هناك بيوت تخلو من نار وماء وأوان...؟!

- لايشفعك هذا التبرير الضعيف، هات واحسب ماسامحناك به من عقوبة خفيفة.

استعطف الحاضرون على وضع ذلك الرجل وتشجع احد الفلاحين لمجابهة الباشا واستجمع قواه قائلاً:

- مولاي، الجميع يعلم بأنكم تمارسون الزنا وعقوبتها اكبر من صنع المشروبات.

- ما هذا يارجل، اثبت قولك، فقد تخطيت كل الحدود!!

- مولاي.. لو كان الامر متعلقاً بالمستلزمات، فحضرتكم تملكون جميع مستلزمات الزنا، وما اكثر عدد النسوة العاملات في بلاطكم، فمن يقول انكم لاتمارسونها؟..

اندهش الباشا وتحير من ذكاء وفطنة ذلك الفلاح المسكين، وما بقي لديه الا ان أسدل الستار على تلك المسألة، وعفا الله عما سلف..

مرت سنون كثيرة، واذا في الطرف الآخر من عالمنا المتحضر يحدث شيء مايشبه حالة الفلاح الكُردي، حيث كانت حسناء امريكية منهمكة في زورقها تصطاد السمك في احدى البحيرات، ولكن مع نسيم المساء العليل وضعت سنارتها جانباً وبدأت تقرأ احد الكتب الشيقة، ومن دون ان تعي، أخذها الريح الى مياه ذلك الساحل الذي يمنع فيه صيد السمك.. وانتبهت صدفة الى صفير زورق شرطة حماية البيئة.. وأمرها الخفير بانه من واجبه ان يأخذها الى الدائرة لتقديمها الى المحكمة، ردت الحسناء: الا تراني مسترخية في الزورق مشغوفة بالمطالعة؟ لم يرض الشرطي بحجتها الضعيفة، ودار حوار متشنج بين الاثنين، انتهى الامر بنتيجة مايشبه الحديث الذي دار بين الفلاح الكُردي وسيده.. تنازل الشرطي لكي لايتورط في جريمة التحرش بامرأة تقرأ في زورقها، لان امتلاكها لمستلزمات الصيد غير كافية لإدانتها وتتوازى سوية مع امتلاك الشرطي لمستلزمات عملية فعل الحب مع المرأة.

وما اكثر مثل هذه الحالات في مسارات التأريخ ومروراً فيما يجري خلال الاحداث المنتشرة في هذه الدولة او تلك، لكن أقساها تحرشاً واكثرها تأثيراً هي ماتحيكها بعض الدول ضد تجربة الكُرد في العراق وتعبر عن مخاوفها ضمن التدخل المستمر في شؤون حكومة الاقليم والاعتداء على حدودها، خشية منهم بأن جميع مقومات قيام الدولة الكُردية موجودة فمن يقول بأنهم لايمارسون هذا الحق؟... وهذه حالة تكهنية تنبعث من سوء نية الطرف القوي المتسلط لفرض هيمنته على الطرف الضعيف الذي لاحول له ولاقوة.

فيا ترى هل تملك حكومة الاقليم بداهة الفلاح الكُردي المسكين او شطارة الحسناء الامريكية، لتعطي الجواب الحدي المناسب للذين يتمسكون بالحجج الواهية ويرون في القوة أداة طيعة لإذلال الكُرد.

حكمة المعتوه في أفعاله

كان (علي) أصغر إخوانه الخمسة، لكنه أكبرهم حجماً، طويل القامة عريض المنكبين، وفوق ذلك كان حسن الطلعة، دائم الابتسامة. ومن سوء حظه أن قدراته العقلية المتميزة وبعض تصرفاته السلوكية الغريبة جعلته شخصاً غير إعتيادي، لايحبه معظم أهل القرية وخاصة إخوانه وأقرباؤه، وربما يعود سبب ذلك لكونه قد تجرد من كل عاطفة وأنه قليل الاحساس، بل وجل إهتمامه يتركز في التفكير عن كيفية جمع المال ويحبه أكثر من أي شيء آخر، حتى والدته التي تكن له كل الحب والحنان.

وبالرغم من إهتمامه الشديد بالتجارة وإشتراكه في صفقات مالية مربحة عن طريق إستثمار رأسماله في عمليات تجارية داخل وخارج البلد، وتعامله مع المقاولين في مشاريع عمرانية ... كان يحب الصيد، شغوفاً بنزهاته الجميلة في الجبال المحيطة بالقرية، ويملك مزماراً يتفنن في عزفه يحبها أكثر من بندقيته، لأنه أخف وزناً ويستغله في جمع المال أثناء المناسبات... و مغزى الكلام أنه كان رجلاً غريب الأطوار، لذا كان أهل القرية ينظرون إليه كإنسان من الدرجة الثانية او ما بعدها، كما ينظر أهل المدينة إليهم، او كما ينظر أصحاب السلطة الى الاثنين معاً.

مرت سنون و(علي) المعتوه مستمر في عمله الاستثماري المربح وخاصة بعد أن هدمت قريتهم في عملية الانفال التي شملتهم أيضاً، لان رأسماله كان خارج القرية. أما الآخرون فقد جرفت الجراد والجرافات كل ممتلكاتهم وأصبحوا عمالاً متطفلين في هوامش المشاريع الخدمية داخل المدن والمجمعات القسرية التي بنيت خصيصاً لتجميعهم داخل أقواس أمنية شبه مغلقة ليسهل السيطرة عليهم وإذلالهم قدر المستطاع ... لم يأبه (علي) بما جرى بل توسعت دوائر جولاته بين بيوت الأقرباء في المجمعات و قصور الوجهاء الذين سكنوا في الأحياء الراقية داخل المدن وخاصة من له ديوان ومضياف و... التي تعج بيوتهم دوماً بالحشم و الخدم ومن هو في حاجة لحل مشكلاته في الجو الجديد الكئيب.

في ليلة شتائية، كان مجلس أحد الوجهاء مكتظاً بالضيوف والزائرين ومن بينهم (علي) وفي خضم النقاشات وسرد الحوادث، سأل صاحب الفخامة والمضيف العامر علياً: ما لك هكذا شارد الفكر، لاتشترك في حديثنا وكأنك تعيش في عالم آخر؟ فأجابه علي بكل لطف و إحترام: يا سيدي الفاضل أستغرب من أمر في غاية العجب وأفكر فيه ولكن لم أصل الى نتيجة يرتاح لها بالي. فقال له السيد: وما هذا الشيء الغريب والعجيب يا علي؟ أجابه بكل هدوء وإحترام: يا سيدي، كنا في السابق نسكن في قرى نائية نعمل ليل نهار ونصارع مع الموت من أجل لقمة العيش، وأنتم السادة والوجهاء جاثمين في قصوركم الفخمة بيدكم الأمر والنهي ونحن نقدم لكم ثمار جهودنا وأتعابنا من دون مقابل لتنعموا أنتم بما لذ وطاب... أما الآن فأنني أرى نفسي ومئات آخرين مثلي يسرحون و يمرحون في شوارع هذه المدن الجميلة دون عمل وعندما يحين اوقات وجبات الطعام ظهراً او عشاء يتفضلون مشكورين الى هذا المضيف او غيره، وينعمون بما يقدم لهم... ومن يصعب عليه

العودة الى بيته ـ لأي سبب من الأسباب ـ يتمدد على فراش ناعم ويصحو مرتاح البال بما قدمت له من خدمات ... يا سيدي الفاضل هل هناك أغرب من هذا التناقض العجيب وسبحان من يغير الأحوال و لا يتغير!؟..

صحيح أنه أمر غريب، من كنت تخدمه في الأمس قسراً يخدمك اليوم طوعاً!؟... و لكن الأغرب من كل هذا، لماذا لم يتحول الفلاح المسكين الى عامل ماهر سواء بقي في المدينة أم رجع الى قريته!؟ ولماذا لم يتحول رأسمال السيد الى مشروع إستثماري، وفي أقل إحتمالاته أن ما كان يصرف على ذلك المضيف يبنى به فندق سياحي، يعمل فيه هؤلاء الضيوف (.....). لنترك المعادلة بيد من يهمه الأمر. ونبقى مع السؤال الأهم: كيف دبر المعتوه أمره سلفاً وخلفاً، ولماذا ابتلى العقلاء بدائهم سواء أعَملوا في مزارعهم أم وقفوا أمام أبواب الآخرين يبحثون عن عمل؟!.

ما لنا وما علينا في الوقت الحاضر

ما لانملكه الآن نحصل عليه من الآخرين، وما يفيض على ما نملكه نبحث على من يحتاج إليه، ويقدر ثمن جهدنا بما يقابله من ثمن يضاهي منزلة اليد العليا وما يخيرها على اليد السفلى، وهذا لا يعني بأننا ـ أيضاً - لاندخل ضمن هذا المعيار الحضاري القاسي... والذي حدا به أن يقسم الشعوب إلى طبقتين الأدنى والأعلى او بمعنى أدق الشعوب المتحضرة والشعوب المتخلفة.

إن كان هذا المعيار صحيحاً ـ نتمنى أن لا يكون كذلك – فإن ما نحصله من الآخرين هو أكثر من (٩٠٪) وما نقدمه لهم أقل من (١٠٪).. وهذا يعني بأن رقينا الحضاري في درجة لا تحمد عقباه، ولو استمر الحال على هذا المنوال فإن مستقبلنا لايبشر بالخير...

من حق كل مواطن أن يسأل ويتعمق في تساؤلاته أيضاً:

- خلال القرنين الماضيين، كان لنا من القوة العسكرية النشطة بما فيها الكفاية، والقيادات الوطنية المخلصة الذي لايشك أحد في ولائهم للمبادئ ومقدرتهم في الأداء، وكذلك لنا الموقع الجيوبوليتيكي الجيد، وجماهير تعي معنى الحرية ومستعدة لتضحي بكل ما تملك.. ولكن ما سجلناه من المآثر في تأريخنا الحديث.. ما هي إلا سلسلة طويلة من الانتكاسات!؟

- نحن نملك أراضي خصبة ومياهها وفيرة وأيدي عاملة لابأس بها ومناخاً ملائماً إلى حد ما.. لكن محاصيلنا الزراعية لاتفي حاجة السوق من حيث الكمية ولاتنافس المحاصيل المستوردة من حيث النوعية وتذبذبها في التدفق الموسمي، وعدم تقديرها في الأسعار التي لاترهق دخل المواطن.

- لنا تأريخ طويل ومشرف بالعلم والأدب وما لهما من مناهل ومصادر، حيث أبدع علماؤنا بما لديهم من حسن دراية والرأي الصواب في التأليف والتنقيح وأغنوا المكتبات بالمخطوطات النفيسة، ولكن ما تبقى أنها أقل مما هو في الحسبان.

لانريد أن نزيد من انحدار التسلسل الرقمي الذي يقيم ما لنا ويقوم ما علينا، لأن خلاصة القول تحسم في نتيجة لاتليق بتضحيات شعبنا أبداً، يحق لأي متابع في الشؤون الكُردية أن يسأل ويستفسر ويناقش في مثل هذه الأمور، ولكن لا يجدر به أن ينبش في

الاوراق المستهلكة والنتائج المترتبة او حتى التركيز على النقد البناء حول ما يحصل وما سيكون.. لان الحكمة تكمن في البحث عن الأسباب الفاعلة والعوامل المساعدة التي أثرت وعملت واستعجلت في الوصول إلى هذه النتائج.

ونرى أن السبب الاول وليس الوحيد هو في عدم كفاءة القدرة البشرية الكُردية في إتقان العمل المنوط إليه او المهام المطواع فيه أصلاً، وفي الحالتين لايمكن التقليل من شطارة الفرد الكُردي واندفاعه إلى العمل، ولكن ما يعوزه من الخبرة هو عدم تقبله بالعمل ضمن فريق ومن دون العمل المتكامل جماعياً والمبني على العلاقات المترابطة حسب الفروق الفردية في استيعاب الفكرة النظرية علمياً والقدرة على تطبيقها عملياً.. وهذا هو سر نجاح المجموعات الصغيرة في مجالات الإنتاج والإدارة الخدمية.. فأين نحن من هذه الخطوة التي يبدأ منها المسار الطويل!؟..

نجاح عمل المجموعات الصغيرة هو الخطوة الاولى بل الأساس المتين الذي يبنى عليه العمل المؤسساتي الكبير والواسع، لان إتقان عملية إدارة العلاقات بين الجزئيات، هو الشرط الذي تنعكس فيه قوة وضخامة الجمع المتجامع من الأجزاء الكثيرة، وبتزايد أعدادها حسب البرنامج الذي يحدد خريطة طريقها نحو التنفيذ تتعقد وتقوى شبكة العلاقات وتتكاتف جهودها نحو الإنتاج الذي يفي الغرض المطلوب محلياً ويرفد الآخرين بما يمكن تقديمه حسب الحاجة.

ومن هنا كثيراً ما يختل التوازن في السياق العام لتقدم المجتمع بين ما يحققه من رفاهية لأفراده صحياً وتربوياً وثقافياً وتحصيلاً في دخله السنوي وبين ما يقدمه للحضارة الإنسانية.

ومايعيق طريقنا للاشتراك في هذه المعادلة الملحة، هو عدم نضوج المقومات الأساسية التي تنتج وتمنح، بل ما زال التركيز على الوسائل التي تستورد وتستهلك.. ولكن ما هو المطلوب في هاتين الحالتين: أن نملك ما نعتز به على المستوى الداخلي ونتفاعل إبداعياً فيما نفتخر به على النطاق العالمي..؟!

الإدارة في الوسط!!..

كل شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر، إلا المشكلة فانها تبدأ كبيرة ثم تصغر، هذه مقولة ترددها الاوساط الإدارية كثيراً... تختلف الآراء وتتباين التوجهات حول ما يبرره تكرار هذا القول، وربما يكون السبب الاول هو من أجل الأستدراج المنطقي لصقل شخصية العامل بخبرات فنية اكثر، أو تعزيز معنوياته، او تفعيل قدراته... أو حتى تشجيعه في الوقوف أمام التحديات التي تجابهه اثناء اداء واجباته الأعتيادية.

هذه معادلة مثبتة وعملية مجربة يتغلب فيها العصاميون على أحلك المصاعب وأكبر المعوقات التي تواجههم سواء في حياتهم اليومية أم أثناء تنفيذ مشاريعهم الموسمية أم حتى في خططهم التي تكلفهم سنوات العمر وما بعده من ثواب جار يثني عليه الخيرون، او عقاب مستديم تحتقره خزياً لعنة المستضعفين.

يخضع العمل الإداري، دوماً، لمثل هذه الحسابات العسيرة والتوقعات الملتهبة، ليجاهد عندهما المجدون في اجهار قابلياتهم رغبة في التقدم، ويتباهى الذين هم أكثر جدية بما

يقدمونه ابداعاً في التطور.... وهكذا كانت الإدارة وستبقى العمود الفقري لكل جوانب الحياة، وما الخبرات الا مساند تقويه، وما الإبداعات الا اضاءات تزينه، وما مسيرة الإنسانية الا نهر جارف يجري وراء بيرقه المسترشد الى بحر من الأحلام والآمال التي تحبب الحياة وتصون السلم، في كل خطوة تقدم تعلوها ابتسامة نصر، وفي كل محاولة ابداع حزمة أمل تخترق افق المستقبل، وهو ما أكد عليه مجرب داهية حينما يصف فلاحاً يكد في مزرعته ويحييِّه أحد المارة سائلاً ماذا تعمل؟ يرد عليه الفلاح المسكين بكل سرور وتودد بأنه يجاهد من أجل ان يرى هذه البقعة خضراء جميلة ويفعم بخيراتها.... وماذا لو قارننا هذا الرد المتفائل مع جواب عامل آخر يشوبه السأم عندما يقول: مت تعباً وزهقت روحي مع هذه الأرض، كل هذا من أجل ماذا ومن يقول بانني سأنعم بما أنزف من أجله!!..

لكي نترك الذين تزهق اوراحهم في العمل وكذلك الذين يصنعون من الأمور الصغيرة مشاكل كبيرة وحتى الذين سدت في وجوههم سبل النجاح او طحنتهم مصائب القدر.. ولا نتحدث، ايضاً، عن الذين يستصعب عليهم فهم نظريات التطور وبديهيات النمو وما تزدهر بهما من متعلقات اكتساب الخبرة والعطاء اثناء النضوج.

يقول احد المخضرمين في الحركة التحررية الكُردية: (من الأجدر أن لا يلتفت الإنسان اثناء المسير الى الوراء حتى ان كان هناك صعاليك يطعنون اصحابهم من الخلف، فمن يسير مرفوع القامة، ثاقب النظر، ثابت الخطوات، يخيف من هو في الوراء ويحسن التصرف مع ما يعيقه في الأمام...)

ولنا في التراث الإداري الكُردي نماذج شاخصة يشهد لخبرتهم العاملون معهم والمستفيدون من ثمار جهودهم... كانوا أعلاماً ذوي مقومات تكتيكية دقيقة واصحاب خطط تكنيكية بارعة.. أبدعوا في الأداء المقنن، وحافظوا على التوازن الطردي بين الإمكانيات المتاحة والنتائج المرجوة، ناهيك عن الأنسجام السايكلوجي للعاملين في حبهم الأفلاطوني للعمل... وفوق كل ذلك كانت لهم قابلية دبلوماسية فذة في اختزال القرارات من مرؤوسيهم وزجهم بالحجج المقنعة في زوايا حرجة ليعطوا الموافقات الأصولية لقضايا ملحة وأكثر أهمية من المبرر الذي جعلهم في تلك المناصب والتي خصصت اصلاً لتكون قنوات شرعية ومشرعة تمر منها وفيها كل ما هو ضروري في خدمة المحيط الذي يعمل الجميع لازدهاره وتقدمه نحو الأفضل.

الطود الشامخ أبداً

عندما تكون الادارة في الوسط، فان جميع نشاطات الإنسان تتمركز حول السلم والاستقرار وبهما تتقن النخب المختارة فن الحياة كل حسب مجال عمله ومدى اخلاصه المهني أداءاً وابداعاً..

ولكي نكون قريبين من الجدار القوي الذي يتربع عليه اولئك المخلصون المبدعون، نرى من الواجب ان نستذكر عدداً منهم، حباً بمنزلتهم عند الشعب وحفاظاً على تراثنا الاداري وبرهاناً على ما نطرحه من آراء.

كان شاكر فتاح احد هؤلاء الاداريين الذين شغلوا منصب مدير ناحية او قائممقام او استاذ جامعي او كاتب محترف.. وطاف مدن وقصبات كُردستان حاملاً معه حقيبته الوظيفية وفكره النير ومتواضعاً في خدماته الجليلة التي يشهد لها أهالي (اتروش، زرباطية، خورمال، قادر كرم، جمجمال، آكرى، آميدى، شقلاوة، دهوك، زاخو، والسليمانية..)، ترك في كل منها نبتة الود والالفة المزروعة في فكر وشعور أهاليها الطيبين الذين يذكرونه بالخير دوماً، وكذلك شيئاً من العمران الذي لا يمحيه الدهر.

يذكر شاكر فتاح (١٩١٤- ١٩٨٨) تفاصيل حياته واعماله وافكاره في كتبه المطبوعة ومخطوطاته الكثيرة والتي جمعت مؤخراً في كتاب ضخم من (٥) مجلدات أعده الاستاذ احمد سيد علي البرزنجي وبطلب من مؤسسة آراس للطباعة والنشر في اربيل.

لانرى ضرورة سرد لائحة بعناوين ما دونه شاكر فتاح بيراعه او ما كتب عن حياته من مقالات او ما ألف حول مكانته الادارية والعلمية والأدبية من كتب وبحوث قيمة، وان تنظيم مثل هذه الفهارس التعريفية يتطلب جهداً استثنائياً لا يكتمل في كتاب اذا اعد خصيصاً لهذا الغرض.

كل ما اود تحريره هنا هو ايجاز مستخلص مما استنبطته من ملاحظات وانطباعات أثناء قراءتي المتمعنة لتلك الاعمال وخاصة ما يتعلق بعمله الاداري ومنها:

١ ـ لا يستطيع الاداري ان يبدع في عمله ان لم يكن يملك ثقافة نيرة يدرك من خلالها ما كان يحصل في البلد والعالم وما يستجد فيهما حالياً، إلى جانب اطلاعه على الجوانب الدقيقة التي تتعلق بمهامه الادارية، ويفضل ان يضيف شيئاً من تجربته، وهو ما فعله

شاكر فتاح من خلال ما ألف من كتب وما ترجم من مآثر وما أصدره من منشورات ينعكس فيها واقع عمله الميداني.

٢- تسلسل الخطوات التي يستدرجها الاداري من مناهل نظام مؤسسته وفكره وعمله التطبيقي وتوجيهاته والتزاماته وتقييمه.. وأخيراً البحث عن موقع متواضع في قلوب الذين يعمل معهم، ولا يتم ذلك الا عن طريق خطة مدروسة تنم عن:

أ ـ يتم التعارف وتبادل الآراء مع الآخرين وفي جميع مستوياتهم الادارية والفنية في أماكن الترفيه الجميلة والمنتظمة خارج اوقات الدوام الرسمي، لان الاداري الناجح لا يتبادل المشاعر والعواطف مع الآخرين اثناء صخب العمل اليومي الشاق.

ب- ان يحس بما يخالج نفوس بني قومه من حرمان واضطهاد وخاصة ما تعرض له الشعب الكُردستاني ايام ما كان شاكر فتاح في ريعان شبابه ومقتبل عمره الاداري، هذا الاحساس يعطي الإنسان زخماً معنوياً ومقدرة لا تلين لكي يعوض عما سلب منه وما يمكنه من ان يضيف الى مهاراته خبرات جديدة، وما يحق له ان ينجز من اعمال يفتخر بها على المدى البعيد.

ج- نشر وعي انساني ـ نهضوي عن طريق وسائل إعلام مباشرة تترجم واقع العمل وخلفياته التأريخية وأفق آمال الناس الذين ينتظرون بفارغ الصبر مايفعله او ماسيقوم به ذلك الاداري حسب حجم عمله ومديات صلاحياته.

٣- التنظيم المتقن في تقسيم الاعمال التي تنسجم في كل متكامل يراه المتابع والمحلل.. ويشعر كل من يعمل معه ان له واجبات وحقوقاً وانه جزء من مؤسسة كبيرة تعمل من

أجل اسعاد الآخرين، فلا يتردد عندما يتطلب الامر ان يتطوع في عمل خيري او استثمار ما يملكه في مشروع انمائي.

٤- وأخيراً وليس آخراً، هو ان يكون في مقدور الاداري انجاز اعمال كبيرة من خلال امكانيات قليلة وليس العكس.. وهذه النقطة الحساسة هي بمثابة السر المخفي في نجاحات شاكر فتاح الادارية والابداعية خدمة وتألفياً وترجمة.

أغنى شاكر فتاح المكتبة الكُردية بتأليفاته، وأثرى التراث الاداري الكُردستاني باعماله، تواضع في كل شيء ولم ينتظر من يكرمه بعد مماته، بل شيّد لنفسه تمثالاً من المجد في قلوب أبناء شعبه.

هەولێر ناصحی کتێب

قف... لا تغضب..!؟

الغضب حالة وجدانية غير رقيقة تصحبها اضطرابات فسيولوجية ـ نفسية وتتخذ صورة أزمة عابرة لا تتيح فيها فرصة لصاحبها على اتخاذ القرار الصائب او القدرة على التكيف مع تلك الحالة المفاجئة.

لماذا نغضب وما الدافع من اتخاذ مواقف مفاجئة كرد فعل؟ انه نتاج منطقي لإثارة دوافعنا الفطرية او المكتسبة، حيث لا نحسن التصرف قولاً او فعلاً إزاء حالة طارئة نتعرض لها او عندما نصاب بصدمة مفاجئة غير محسوب حدوثها، او خارج توقعاتنا

الاعتيادية، وما أكثر الحالات الشاذة والسلبية التي نتعرض لها يومياً من خلال العمل او التنقل او حتى في فترات الاستراحة والاستجمام...

قلما يستطيع الإنسان ان يمتص وقعة الغضب ويتعامل معها إيجابياً، انتبه الى هذه الحالة الفيلسوف اليوناني أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م)، حيث يقول في كتابه (الاخلاق ـ الى نيقوماخوس) ما نصه: (ان يغضب أي إنسان، فهذا أمر سهل.. لكن ان تغضب من الشخص المناسب، وفي الوقت المناسب، وللهدف المناسب، وبالأسلوب المناسب.. فليس هذا بالأمر السهل..).

أعتقد ان أرسطو أصاب الحقيقة في تحليله للجانبين السلبى والايجابي للانفعال الأزلي الذي صاحب الإنسان (الغضب).. ولكي نترك الجانب السلبى ونركز على الجانب الايجابي من حيث الأسباب والنتائج على حد سواء.

الأسباب الايجابية التي تثير فينا الغضب، هي التي تأتي من الانفعال المرتبط بالعاطفة، وخاصة إذا كانت لدينا القدرة في فرز الانفعالات عن العواطف، وعدم الخلط بينهما بالرغم من التداخل والتشابك بين مكوناتهما في عدة نواح منها المعقدة جداً، ومنها السلسة والبسيطة نوعاً ما، ولعل الاختلاف الأبرز بينهما يكمن في نقطتين يجب الانتباه اليهما دائماً وهما: ان العاطفة تكون استعداداً ثابتاً نسبياً بينما يكون الانفعال حالة طارئة، اما النقطة الأُخرى والتي لا تقل أهمية وتأثيراً من الاولى فهي للعاطفة موضوع خاص تدور عليه ويكون تحت سيطرة الإنسان فيما تدارك حسن التعامل مع جوانبه المختلفة في حين ان الانفعال مطلق وغير مقيد بموضوع خاص.

ولما كان الغضب نوعاً من الانفعال فقلما يستطيع الإنسان ان يجعله جزءاً من العاطفة التي لها موضوع ومديات أخرى ترتبط بالتفكير والذي هو حالة متطورة من النشاط الذهني للإنسان السوي، وربما هذا هو ما كان يصبو اليه أرسطو في مقصده المباشر لتحديد نوع السلوك المرغوب دوماً فيما لو استوعب صاحبه المنظومة التراتبية للمعادلات المختلفة التي تشترك في تفاعلاتها غرائز وانفعالات وعواطف وأفكار كل حسب مكوناتها وتأثيراتها وموقفها في بناء شخصية الإنسان.

تصحب الغضب تغييرات فسيولوجية حيث يزداد إفراز هرمون الادرنالين وفي هذه الزيادة نتائج ايجابية وفوائد حيوية، فهي تعين الفرد على ان يأخذ موقفاً موفقاً يحسم لصالحه كأن يمتص امتعاضه او يجد مخرجاً ليهرب منه او استعداداً للمجابهة او القتال.. واثبت علمياً ان ازدياد إفراز هرمون الادرنالين يؤدي الى زيادة سرعة النبض مما يساعد على سرعة توزيع الدم في الجسم ويزيد في نشاطه.. وكذلك يتوقف نشاط الجهاز الهضمي وتتجه الطاقة الى مواجهة الموقف الانفعالي.. وينطلق السكر المخزون في الكبد مما ينشط العضلات حيث في حالة الغضب يحتاج الإنسان ـ عادة- الى عضلاته ويود ان تكون في أعلى درجات القوة، وفوق كل ذلك يساعد إفراز هرمون الادرنالين على زيادة سرعة تخثر الدم وهي حالة ضرورية فكثيراً ما يتعرض الإنسان في حالات الغضب الى المواجهة والاصطدامات والتي ربما يصاب فيها بجراح.. وأخيراً نقول يجدر بالإنسان المثقف ان يتعمق في دراسة النظريات الخاصة بالانفعالات، والعواطف، والتفكير، وتطبيقاتها حسب الزمان والمكان والظروف التي تسمح بالاستفادة منها وتعتبر بعضاً منها بنظريات الطواريء لانها تقي الإنسان في الفترة الحرجة من مخاطر كثيرة.

لايدخل مثل هذا التثقيف ضمن العمل الأكاديمي او المهني الصرف، بل إنها معلومات مفيدة تفيد الفرد والأسرة والمجتمع، وكلما ازداد وعي المجتمع ومؤسساته بهذه الجوانب سهل تطبيق القوانين، وتمسك الإنسان بالقيم التي ترفع من كرامته كمواطن صالح يخدم محيطه بأكمل وجه، يقول احد شعراء العرب الاقدمين:

لايحمل الحقد من يحلو به الرتب ولاينال العلا من طبعه الغضب

أتقن الشاعر مبتغاه بشكل لايفرق بينه وما كان يصبو إليه أرسطو في حينه ولايختلف عما يراد من الإنسان أن يتكيف مع محيطه ويكون جزءاً من تطويره نحو الأفضل.

المقومات الناقصة في المأساة الكُردية

(يموت الكُرد ليعيش الآخرون) كان الشعار المشؤوم والسائد- زمناً- ينخر في العلاقات غير المتوازنة بين الكُرد والشعوب الأُخرى.. الا أن الأمر بدأ يتغير منذ عام (١٩٩١) وما بعده، وتحاول جهات عدة ان تبدل ذلك الشعار الى مبدأ مترسخ آخر يتفق عليه الجميع وهو (يعيش الكُرد ويحيا الآخرون) لأنه يضمن مصالحهم كل حسب موقعه الدولي وأهميته الحضارية في التأثير على مجرى الأحداث المصيرية في المنطقة، وهنا يطفح سؤال جدير بالأهتمام الى سطح التفكير الجدي للمعتدلين والساعين الى التعايش السلمي، وهو: (لماذا تكون نقطة البداية عام (١٩٩١) وليست توقيتاً آخر؟)

سؤال وجيه وربما يأخذ جوابه احتمالات عدة، منها سياسية او اقتصادية وأخرى اجتماعية او حتى فكرية بحتة... الا اننا سوف نأخذ اتجاهاً آخر خارج الافتراضات المنساقة في دوائر مفرغة ونركز على الجانب الفلسفي في المعادلة الصعبة للعلاقات المبنية على المصالح المشتركة والاحترام المتبادل بين الكُرد والآخرين. وفي البدء نسأل: هل الكُرد شعب له خصوصياته القومية ومقوماته الوطنية؟

وان لم يكن هناك من ينكر ذلك، وهو ما موجود في ارض الواقع حالياً. سنتحول الى ما يليه من تساؤل آخر اكثر الحاحاً وهو:

(هل كانت حياة الكُرد في القرن العشرين مأساة حقيقية؟)

الجواب الشافي لهذا التساؤل يكمن في الأرقام الموجودة في اغتصاب الحقوق وسلب الحريات وتدمير القرى والتهجير القسري والإبادة الجماعية بأسلحة محرمة دولياً... وكلها افرازات مخزية لويلات كبيرة تشهد لها المحافل العالمية والأقليمية حالياً ويراها الكُرد من دون جدال بأنها مأساة حقيقية!؟

وهنا نأتي الى السؤال الحقيقي والمباشر: كيف نظر الإنسان قديماً الى المأساة وماذا يقول عنها حالياً؟

في القدم، يرجع الفضل في تحليل المأساة الى الفيلسوف اليوناني ارسطوطاليس (٣٨٤- ٣٢٢ ق.م) عرفها كمحاكاة لحدث يتميز بالجدية، وبأنه مكتمل في ذاته ووقائعه تثير مشاعر الشفقة والخوف، وبذلك تحقق التطهير المرجو لهذه المشاعر.

وبقدر ما يتعلق التفكير التحليلي للمأساة بأرسطوطاليس، فانه لا يفيدنا كثيراً في توضيح الجوانب المعتمة من سؤالنا السابق ونعيد تكراره من باب الثبات والتذكر والتركيز:

(هل كانت حياة الكُرد في القرن العشرين مأساة حقيقية؟)

مادام الحدث المفترض قد وقع في القرن العشرين، فعلينا ان نعود الى ما كان يفكر به الإنسان في الزمن نفسه... وفي هذا المنحى الحساس نعتمد على ما توصل اليه الناقد (أ.أ. ريتشاردز) في كتابه (مبادئ النقد) وما أضافه الى افكار ارسطوطاليس ووضع النقاط على الحروف بالشكل الذي يتفق مع ما نصبو اليه من اجابة كافية لسؤالنا الآنف الذكر، حيث يقول: (يجب ان تتوازن عاطفتا الشفقة والخوف) ويضيف على ذلك ايضاً: (اذا حدث وتجاوزت قوة احداهما قوة الأُخرى، فأنه لا تبقى لدينا مأساة.)

اذن الأتزان بين مجموعتين من الدوافع (دوافع الشفقة ودوافع الفزع) هو الشرط الأساس في أن يجعل من الحدث المروع مأساة وبدون توازنهما يبقى الحدث كارثة عابرة خارج اهتمام التفكير العام او حتى في التوثيق المعتمد.

ومن هنا يتضح ان التأريخ الكُردي الحديث وخاصة ما تقع أحداثه في القرن العشرين عبارة عن سلسلة من الأحداث المفجعة التي تثير الشفقة لدى المتعاطفين معها والخوف عند المتورطين في إشعالها، او كليهما في كل من الطرفين... واذا لم تتوفر مقومات التوازن في التنظير والتطبيق، فليس من السهل ان يندم القائمون بها على فعلتهم ومعتذرين لضحاياهم. ويكون الأمر اصعب للمتفرجين عن بعد لكي يقدموا يد العون والمساعدة للمنكوبين.

وأمام هذا الميزان المختل يبقى الشيء المهم في الشأن الكُردي، وهو ان يحاول ايجاد التوازن بين المجموعتين (الفزع والشفقة) وبدونه تذهب التضحيات الجسام في مهب الريح.

كيف ضيع الكُرد المشيتين؟

تتمحور التوجهات الآنية لتأثيرات ظاهرة العولمة في نقطة حساسة يمكن اختصارها في العبارة الآتية: ((ان ثروات العالم ملك لجميع الشعوب وان الدول التي تعجز عن اداء مهماتها الاستثمارية في اوطانها يتوجب على الدول المتمكنة على ذلك ان تسعف الموقف وتنوب عنها في القيام باعمال الاستثمار والتنمية ليستفاد منها الجانبان)).

ومن هنا تعتبر الولايات المتحدة الاميركية القادر الاول باستغلال خبرتها الواسعة وفرض استراتيجيتها الاقتصادية على الاسواق العالمية وخاصة تبيان الموقف الاسترشادي الضامن للاستقرار والسلم العالميين... وما يتداخل تشابكياً في حيثيات هذا الاتجاه هو حوار الحضارات والتفاعل الثقافي والعلاقات الدبلوماسية التي تتبلور على سطح المعادلات السياسية للبلدان المختلفة وخاصة في الشريط الممتد من اواسط آسيا مروراً بالشرق الاوسط فالقارة الافريقية الى أن يصل بعض دول البحر الكاريبى فأمريكا اللاتينية. تحديد هذه المجموعة من الدول ـ التي يستعصب عليها استثمار مواردها الطبيعية والبشرية ـ تشغل حيزاً كبيراً من الاهتمام الدولي ويتم تشخصيها بالدول الفاشلة وخاصة في تقارير بعض المنظمات المستقلة مثل صندوق دعم السلام او في بحوث بعض المجلات واجهزة الاعلام مثل مجلة فورين بوليسي الاميركية، وفي هذا الاتجاه نفسه صنف البنك الدولي (٣٠) دولة فاشلة من مجموع (١٩٢) دولة منتمية للأمم المتحدة.

وفوق ذلك تتدخل بعض الجهات الرسمية للدول المتقدمة في تحديد هذه المسميات فعلى سبيل المثال حددت الادارة البريطانية للتنمية الدولية (٤٦) دولة ضعيفة واشارت وكالة المخابرات المركزية الاميركية الى عدد أقل من ذلك.. ومن هنا تتعرض تلك الدول الى التدخل في شؤونها بل غزوها ثقافياً واقتصادياً وعسكريا ... مما يتسبب في خلق مشكلات كثيرة ومعضلات معقدة تتعب الفكر الإنساني وتعكر المزاج العالمي المتمدن.

ومن سوء حظ الكُرد أن وطنهم مقسم بين دول اربع بعضها لاتتمكن من استثمار مواردها الطبيعية وبعضها الآخر تجهل الاستثمار المتمكن للموارد البشرية وبين هاتين المعادلتين ضيع الكُرد المشيتين.

تساؤلات معلم من كُردستان

أول ما يتخيله الإنسان، هو حدود الفن. وآخر ما يكتشفه هو حدود العلم. وعند التقائهما في نقطة الذروة، تبدأ الخطوة الاولى في الادارة واقصى مراحلها تكمن في التفكير المجدي لتسيير النظام التربوي، ضمن اطار منظم تتنامى فيه ثقافة المجتمع .

بما ان التربية عملية انتاج مستقبلية، لذا فمن الصعب تحديد تعريف معين ، أو تشخيص حالة مستنبطة من تحليل مستفيض لها، لأن المساحة التي تتفاعل عليها الثقافة، أو النقطة التي تتمركز حولها الحضارة، تشتركان معاً في إرساء ركائز البنية التحتية للتربية، والتي تفرز إستنتاجاتها المرحلية ضمن محاور فوقية يتجاذب عليها مصير الإنسان في مواقع ضعفه ومناهل قوته ليتمخض عنهما أيضاً مسار حياته الآنية وتغربل نتاجاته سلباً او تسلباً في محطات التأريخ .

ومن هذا المنطلق فقد ابتلى الكُرد في العقود الثمانية الماضية بداء الاهمال المتعمد والاستغلال المجحف، فلم تفسح لهم مساحة للتأمل أو مجال للتفكير، ففقد ماهيته كإنسان،

وتم تهميشه كقوة فاعلة في مسيرة البناء، بل اذاقوه الذل كلما تهيأ لإجراء عملية التغيير. فلم يبق لديهم من سبيل سوى المقاومة والتي كان اول مطلبها دوماً هو توفير فرص التعليم وتحسينه حسب ما ينسجم ووضعه كشعب تواق للحرية.

هذا هو حال الكُرد، يثقلون الخطى نحو المجهول ويتأخرون في محطات لا تعرف الأمان ، جذورهم في الاعماق وقاماتهم لا تزال تتململ تحت سوط الظلم، الذي طال مشواره في دوامات فارغة تبدأ في كل مرة بدعوة حوار ومن ثم استدراجه لصراع الى ان تختتم بنهاية فيها الف سرٍ ومسار.

الحب بين العنف العربي والإعمار الكُردي

الحب مدلول انساني مفعم بالحياة، يعتبره الكثيرون نقطة الارتكاز في بناء القيم الجمالية، ويعتقد اخرون أنه صمام الأمان في الأسس الفلسفية لمسار ديمومة التطور في الثقافات المتمدنة، وهناك من يصفه بخميرة التفكير الجمعي للمستوطنات البشرية. وفي الجانب الآخر هناك من يرتشفه علقماً ويحتضر في جوهره ليذوب في كنفه الأبدي... ويبقى الحب وحده القاسم المشترك بين الحياة والموت ليحافظ على التوازن بين الحياة حباً من أجل (....) والموت حباً من أجل (....).

ما يزال هذا التوازن هو القياس المقبول والمحبذ لكثير من المعادلات الصعبة، فعلى سبيل المثال: يشهد العراق هذه الأيام عنفاً شرساً قل نظيره حتى في الفترات المظلمة من تأريخ البشرية، هناك الآلاف من القاتلين وأعداد أكبر من الضحايا. واغرب ما موجود في هذا العنف الدامي، أنه من السهل- في أحيان كثيرة- معرفة هوية القاتل واستحالة

التكهن بهوية الضحية.. حقاً أنه أمر يحير العقلاء قبل المغفلين. والاغرب من ذلك هو ان كلا الطرفين يموتان حباً من اجل الوطن!..

ليست للغرابة حدود، فهناك قنوات مسيجة بعلامات الاستفهام، تتشابك حولها استفسارات وتساؤلات كثيرة عن كينونة سطوع هذا النوع من الحب في القسم العربي من العراق حصراً وحرّم منه القسم الكُردي قدراً.!!!

للاجابة على مثل هذه التساؤلات، لابد من الالتجاء الى الفرضيات الجدلية التي تقبل التفكير التحليلي والمنطق الرياضي واللذين قلما يخطئان التهديف، ومن هذا المنطلق نقول:

بما أن النصر العربي والقدر الكُردي تؤمان- دوماً- فمن البديهي أن يبقيا في خط متساو ويرجحان كفتي ميزان التأريخ ومن هنا تشجع الكُرد لاعادة التوازن الى ميزان تأريخهم المشترك المختل، وهرعوا الى الإعمار العشوائي، لتتلاشى تحت ضربات معاولهم آلاف الاشجار الفارعة والمباني التراثية والشوارع الأليفة... وتختفي كنكرات مجهولة الهوية، يتركها الناس ليتخطوا نحو الموت البطيء المفتعل في التلوث البيئي والتشويه الثقافي.

من الصعب جداً جمع شتات الحب العربي مع افرازات الاعمار الكُردي في معادلات تخضع لقوانين العصر، لأننا نعيش في زمن يطحن العلم في عولمة منهجه كل احاسيسنا ومجريات حياتنا اليومية بل وحتى مستقبلنا.

ولم ينجح منه سوى ما مضى من تأريخنا القريب- البعيد، لذا لا يسعنا الا ان نتشبث بأسماله المتدلية لتتوازن مكنونات حياتنا في طرفيه ونستخلص نتائج كل المعادلات بتمجيد النصر العربي في القول المأثور: (ومن الحب ما قتل). وتعظيم القدر الكُردي بالقول المصدق (ومن الإعمار ما دمر).

الحكومة ذات الخطة الذكية

كثيرة تلك الكوادر الادارية، ذات المكانة الرفيعة في سلم وظائف حكومة الاقليم ولم يكتب لها النجاح في مهماتهم، فتحولوا الى سادة معومين ليس لهم حول او قوة سوى حصاد الامتيازات في آخر الشهر، مما حدا بالحكومة الى الاستغناء عن خدماتهم الوهمية واحالتهم على التقاعد.

وفي الطرف الآخر، هناك اداريون اكثر حظاً منهم مازالوا يتمتعون بسلطات واسعة ونفوذ كبير داخل تشكيلات الحكومة، ولكن يتراوحون على خط مهزوز بين التنفيذ الروتيني والاتقان المختل.

وهناك فصيلة ثالثة ذات مهارات فائقة ومبادرات جيدة تتبعثر جهودها في أروقة التقويم واسترضاء الموافقات او تختفي نهائياً داخل ملفات البحوث والدراسات.

في الحالات الثلاث المذكورة أعلاه توجد قوة كامنة ومؤهلات دفينة غير مستثمرة ضمن نظام اداري متكامل يتمناه الجميع، وسواء أكان الأمر يحتاج الى اعادة النظر في التخطيط العام ام التأهيل المهني، فان النتيجة تكون واحدة وهي ان الخط البياني في الاداء لايتجاوز حد الوسط، وهو المستوى الذي لايحسد عليه، ولعل السبب المؤثر الاوحد في استفحال هذه الظاهرة يعود الى نقطة مشتركة تكمن في تحقيق الهدف الاسمى من الوظيفة المرموقة لرجالات الدولة وهو: (جني اكبر الامتيازات بأقل جهد ممكن).

هذا الشعار يتناقض مع الخطة التنظيرية المحكمة للحكومة، والتي تصطدم ـ غالباً- بالاجتهادات النرجسية الاستغلالية للكوادر الادارية المتنفذة، حيث لاتبالي الا بحل مشكلاتها الشخصية وتأمين احتياجاتها الفردية، مما يؤدي الى انحصار قدرة الحكومة بنسبة متدنية من العمل المنتج، وهذه النسبة توازي عدد السادة المتنفذين فقط، وهي نسبة لاتتعدى في اكثر الاحوال (٢٪) من المجموع الكلي للسكان، اما النسبة الأُخرى

التي لاتقل عن (٩٨٪) فهي التي تعاني وتتحمل المشاق واخيراً تمثل المؤشر الحقيقي لتقدم او تأخر الحكومة صعوداً ونزولاً بين تسجيل علامات الفشل والنجاح.

أرقام ونسب و... مفارقات

الرقم هو المعيار الكمي في مجرى المعادلات وثبوت التقويم، فمرة يقصر لحد التلاشي في نقطة الصفر، ومرة يطال اكثر من لسان المتحذلقين في الصحافة الالكترونية، الا انه في الحالتين يبقى ذلك الكيان الذي يحبه الجميع. ولو انه لم يحظ بالاحترام الكافي من قبلنا - ككُرد- ولم نتكرم بمجاملته لحد الان، الا اننا أيضاً نحتاجه وخاصة في هذه الايام، وذلك لتشخيص أزمتنا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ولايمكن ان ندير اعمالنا بدونه، لان التخطيط المبرمج يعتمد أصلاً على الارقام، فهي عندما تؤطر في علم الاحصاء فانها تتكلم عن الحقائق وتهيء الارضية المناسبة لمعالجة الازمات، فعلى سبيل المثال:

- معدل سرعة المركبات في الشوارع الداخلية المزدحمة تقل عن (٢٠) كم في الساعة، مما يؤثر سلباً على البيئة وعامل خطر في تلوثها، ومسبب رئيسي لمشكلات لاتحصى تفاجيء المواطنين في مواقف مختلفة، ولتلافي هذه المخاطر من الضروري تنظيم خطوط المرور بشكل لاتقل سرعة السيارات عن (٧٠٪) داخل المدن.

- حصة الفرد من الماء النقي هي (٧٠-٨٠) لتراً يومياً، وحصة الوحدة السكنية من الكهرباء يجب ان لاتقل عن (٤٠) أمبير وبمعدل (٢٤) ساعة يومياً، بينما نرى نسبة الماء في بعض الحالات تصل الى (٠)، والكهرباء الى أقل من (٣) أمبيرات وبمعدل أقل من (٨) ساعات يومياً.

- التنسيق بين المباني والمساحات المزروعة سمة حضارية وخاصة عندما تتناصف النسبتين، الا اننا نرى في بعض مدننا تتذبذب النسبة بين (١٠٪) و(٩٠٪).

- التعليم حق مشروع للجميع ولاضير لو تكون نسبة الامية بين الكبار (٠) ونسبة الاطفال المسجلين في المدارس (١٠٠٪)، لكن مانراه الان ان الاولى لاتقل عن (٣٠٪) والثانية لاتتجاوز (٨٠٪).

الامثلة لاتنتهي.. لنتركها جانباً، ونبذل قليلاً من الجهد للتمعن في الارقام التي تدخل ضمن مجريات حياتنا اليومية ونقاربها بنسبها غير المتكافئة، فسوف نرى أموراً خطرة بدت تأكل من نسيج المجتمع وتتفاقم خارج المنطق الرياضي وتنتظر من يشخص نقاط ضعفها ويبدي باعادة تنسيقها والتفنن بتنظيمها من جديد.

سر الخط الأحمر الوحيد

الإعلام غير المباشر، هو المرغوب والمطلوب في المجتمعات الديمقراطية، لأنه يؤدي دوره على مضض وفي حياد تام, ومن سماته الاساسية الأُخرى، انه يغازل عواطف المواطن من دون أن يدري ويتجاوز حدود افكاره دون ان يبالي، يسكن بين جفنيه دون ان يحس ويشارك حركاته وسكناته دون ان ينتبه اليه... وهذا واجب حرفي يصعب على الكثيرين أداؤه ومن هنا جاءت تسميته بمهنة المتاعب.

وغدا الاعلام غير المباشر اكثر تأثيراً من الاعلام المباشر سواء في ايصال صوته التوجيهي، أو في تفعيل مهماته التثقيفية، ومروراً في تحقيق أهدافه المهنية، لذلك فإن قنوات ووسائل الاعلام المباشر الحكومية والحزبية المنتشرة في الاقليم تعمل داخل دوائر مهتزة بعيدة عن النقاط الحمراء، وتحاول تلافي الاغراض المباشرة والطروحات التقريرية سعياً منها للتقرب الى الاعلام غير المباشر.

ومن جهة اخرى فإن الاعلام الحر الذي يتبنى أصلاً إعلاماً غير مباشر، فإنه ايضاً منهمك في ان يؤدي دوره دون ان يمس الخطوط الحمر التي تضعها له الحكومة، وكثيراً مايتلاقى الاعلامان المباشر وغير المباشر في منتصف الطريق فيختلط الحابل بالنابل ويفقدان مصداقيتهما دون ان يحصلا على ثقة المواطن، فالتزاوج الذي يتم في نقطة التلاقي هو أصل المشكلة وبداية ظهور الازمة.

ازمة الاعلام الكُردي — ان صح التعبير- لاتكمن في كيفية مغازلة مشاعر الجماهير، او في اسلوب التفنن في اجتياز الخطوط الحمر والوصول الى المساحات الحساسة للسلطة والاخلاق العامة، بل تكمن الازمة في مدى مقدرة الاعلام بأن يكتشف الحدود المسموح بها لتحركات السلطات ضمن الصلاحيات المبينة لها قانونياً، والخط الاحمر الوحيد والمخفوف بالمخاطر والذي لايمكن للاعلام تجاوزه هو عدم تحريض واستفزاز الجماهير ودفعهم الى الزاوية الحرجة ليتبنوا دور المعارضة، فمعارضة الحكومة لاتتم الا ضمن كيانات سياسية او نقابات مهنية او جمعيات ثقافية لها برامجها الواضحة وخططها المدروسة، والتي تحاول اعادة التوازن الى المفاصل المختلة ـ إن وجدت — دون اللجوء الى القوة الغاضبة وفوران الانفعالات والمبادرات العشوائية.

أصالة القيم

الكُرد شعب منسي، ينكمش في فجوات شبه مجهولة من التناقضات المتناحرة في منطقة الشرق الاوسط، وعندما تطفح تحركاته التحررية على سطح الصراعات المستفحلة بين العمالقة الصغار، يشترك الجميع ـ في محاولات جادة ومصيرية ـ لتهميشه وحجب الاضواء عنه. لربما تكون هذه القضية هي الاكثر اثارة في استعراضات عالم المأساة

والكوارث البشرية والتي اصبحت الشغل الشاغل للعمالقة الكبار في تصفية حساباتهم والتي من المؤمل ان تسدد وتطوى فواتيرها مع نهاية العقد الاول من القرن الحادي والعشرين .

في خضم جدلية هذا التناطح، هناك حزمة ضوء ضئيلة يرى الكُرد من خلالها العالم، ومنها ايضاً يستنشق هواء الامل المنشود في خلاصه او لنقُل تحرره من القيود التي تكبله حد الموت. ولا نبالغ في الأمر ايضاً لو قلنا بأن المصدر الوحيد الذي يمول هذه الحزمة من النور هو الحركات التحررية الكُردية التي تأبى ان تموت وتعجز ان تكبر وفي الوقت نفسه تقف في وجه كل التحديات التي تثقل كاهلها حد الفلتات المخزية ، وتزعج العالم كلما تجاوزت تأثيراتها حدود الضمير المتمدن والاسترضاء المتهرئ لجدران الصمت .

ياترى، ماهو سر هذه العقدة المستعصية في الحركة التحررية الكُردية، التي تجعلها تعيش دوماً بين الحياة والموت، ربما لكل من ينتمي او يتعاطف مع فصائلها، له حلوله المقترحة ومفاتيحه المفترضة التي تتزاحم في التطبيق وتفشل في النتائج .

وما الضير لو أبدي أنا ـ ايضاً ـ اقتراحاً متواضعاً خارج هذا الزخم الهائل من الافتراضات، ليكون بمثابة القيمة الثابتة في غربلة وتقويم الاحداث والشخصيات والمبادرات والتي اراها في هذه المعادلة :

الوفاء للأرض = الجرأة في الدفاع عنها

ونادراً ما نرى احداً تتوفر فيه هاتان القيمتان معاً، ولو كانت هناك عينات مبعثرة في داخل الوطن وخارجه، فانها لا تكفي بان تكون خميرة العمل المنظم لتحقيق الخلاص ... انها فكرة تشخيصية استفزازية ولكنها بريئة مثل ابتسامة الكُرد بوجه من يحقد عليهم.

الكرامة اولاً وثم ...

رجحان كفة الصواب للقول المأثور (في البدء كانت الكلمة)، يعني ان الحضارة البشرية قد بدأت عندما تحاور الإنسان مع غيره، حيث تكلم وتحدث وتشاور وناقش ... الى ان اتقن الحوار المجدي، وهكذا اوجد التأريخ وتفنن في تفاصيله، وابدع في تدوين مجريات احداثه، وتوصل الى ترسيخ اسس فلسفته.

فلسفة التأريخ تؤكد على بدايات اخرى لا تقل اهمية عن الجذور التأريخية المتفرعة من الرأي المذكور اعلاه، او حتى من الآراء المخفية والمبطنة في عقول معظم القراء الكرام، فعلى سبيل المثال لا الحصر، يؤكد علماء الآثار بأن كرامة الإنسان قد بدأت قبل (٤٥) الف سنة ، اي عندما احترم موتاه وفكر بدفنهم، ومن خلال طقوس روحية خلد ذكرى كل عزيز فقده.

احترام الموتى يأتي من القيم التي تشد اواصر حياة الناس اليومية، وتحفظ كرامتهم، تلك الكرامة التي تعّرف عليها وتعمّر معها خلال الاجيال المتلاحقة، وجعلها المنهل المسترشد لحالات كثيرة تتعلق بشخصيتهم، والشخصية ـ في هذه الايام ـ مسألة مهمة يخصص لها علم النفس مكانة مرموقة في التحليل والاستنباط.

والغريب المستفحل في استغرابنا ـ هذه الايام ـ هو ان الطقوس التي تقام اجلالاً للكرامة تقتصر على المقابر وجدران دور العبادة فقط ، والتي هي ايضاَ مهددة ـ في بعض الاحيان ـ بالتجاوز على حرمتها ومنزلتها، لذا نرى ان كرامة الإنسان تسحق ـ دوماً ـ تحت الاقدام المتلهثة في المسافة التي تفصل بين الحجرات والحفر.

أقسى الاغترابات المرسومة في علامات استفهاماتنا، هو ان الحديث عن السيادة بدا يطغى على البحث عن الكرامة، علماً بان الذين يتكلمون عن السيادة لايعرفون بأنها لا تأتي الا بعد اجتيازهم للمرحلة التي تسبقها وهي فعالية الكرامة في الحياة حيث على مساندها تبنى السيادة .

ومن البديهي جداً ان من يشطب كلمة الكرامة من قواميسه المعرفية لا يتذوق أبداً طعم السيادة .

المدنية أو النوم على رجل واحدة

أصبح موضوع تمدن المجتمع ـ في هذه الايام ـ يشغل بال معظم الذين يمثلون الجانب التقدمي للفكر الكُردستاني، وعبر سلسلة طويلة من الاسماء البراقة يؤسسون منظمات المجتمع المدني، يكتبون عنه في الصحف ويعقدون من اجله اجتماعات موسعة ومصغرة، مستديرة ... وحتى مربعة معتقدين ان التمدن هو المفتاح السحري لحل جميع المعضلات التي يعاني منها المجتمع الكُردستاني .

مما يلفت النظر الى هذه الموضة الجديدة، ان النخبة المشتركة في إعداد وأداء هذه الادوار المعطرة بينهم السياسي والصحفي والتربوي والاديب والفنان والاستاذ الجامعي ... وسواء أكان تكلفاً او تبجحاً فإن الامر سيان بالنسبة الى مصدر الانبعاث او افتعال المحصلة النهائية، لان البحث اصلاً ـ من أوله الى آخره ـ يدور حول شيء وهمي ليست له اسس او خطوات عمل، بل كل ما في الامر هو ان هذا الاستهلال ما هو الا امنية لطيفة موجودة في تسلسل الآمال الكُردية .

تلك الآمال التي تعبر عن رغبات ومشاعر قديمة تجتر في المناسبات، يسردونها كبطولات وامجاد وقلاع محصنة، ويفتخرون بها في نقاشاتهم وحواراتهم الداخلية .

ضمن هذه الدوامة المملة اصبح الكُرد شعباً مسالماً يسهل تدجينه او بيعه، وخلاصة القول : انه يشبه طيور الزينة في براءته مع فارق وحيد، ان الطيور تستطيع ان تنام وهي واقفة على رجل واحدة، لكن الكُردي وبالرغم من حمله الخفيف لايستطيع ان ينام حتى على رجليه الاثنتين .

نقطة إلتقاء مشتركة

قام الكُرد في العقدين الاول و الثاني من القرن التاسع العشر بإنتفاضات ضد الدولة العثمانية منها على سبيل الذكر و التنوية :إنتفاضة بايزيد و وان في عام (١٨١٥) و استمرت حتى سنة (١٨١٨)حيث أخمدت الانتفاضة بالجهود المشتركة للقوات الايرانية ـ العثمانية. وإنتفاضة الكرد الزازا سنة (١٨٢٠) وإنتفاضة جبل سنجار سنة (١٨٣٠) والتي استمرت أحداثها ثلاث سنوات حتى تم القضاء عليها بقسوة.

وفي العقد الرابع من القرن نفسه، بدأت قوات الدولة العثمانية عبر سلسلة عمليات عسكرية مدروسة بتصفية الامارات الكردية المتواجدة ضمن حدودها: ((بادينان ١٨٤٢، سوران ١٨٤٦، بوطان ١٨٤٧، هكاري ١٨٤٩، بابان ١٨٥١).

وبعد ثلاثة عقود من المخاض المؤلم انتفض الكرد من تحت رماد الذل والمظالم ونظم حركة تحررية عام ١٨٨٠، إلا أنها أخمدت بمكر ووحشية. وخلال القرن العشرين ـ أيضاً ـ بدأت حركات و انتفاضات متعددة : (السليمانية ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠، ديار بكر ١٩٢٥، آكري١٩٣٠، ديرسم ١٩٣٦، بارزان ١٩٤٣، مهاباد ١٩٤٦ ...) وهكذا توالت الثورات وتلت إنتفاضات واحدة تلو الأُخرى وفي أكثر من مكان، إلا ان جميعها كانت تخمد بيد من نار وحديد، وتمخض عنها سجل طويل من الاحداث المأساوية والوقائع الاليمة، أصبح فيما بعد فصلاً كارثياً من تأريخ الكُرد الحديث.

بعد دراسة مستفيضة لتلك الحركات والانتفاضات بدأ لي إستكشاف أمر غريب وهو أن جميعها كانت تختلف من حيث الأسباب و الأهداف والخفايا والنتائج، إلا أنها مجتمعة تشترك في نقطة محورية وهي : (تأبى أن تموت وتعجز أن تكبر).

حصة الكُرد من ثقافة الوهم

يتمنى كل إنسان ان تتوفر له وسائل العيش الاعتيادية ولكن دون المساس بكرامته المتربعة على تراث يعتز به، فالتوازن بين جانبى هذه المعادلة بدأ ينخر- في هذه الايام ـ مخيلة المواطن قبل برامج ادارة الدولة في منطقتنا وهو امر صعب يدخل ضمن الاحلام التي يستحيل تحقيقها بل يدخل ضمن الأوهام التي تثقل كاهل الطرفين أي الفرد والدولة على حد سواء .

الاوهام هي المسافة التي تفصل بين الإنسان والحقيقة وعندها يصعب عليه التفاعل بين الامكانيات المتاحة والحاجات الضرورية .. مما يخلق لديه فكر متصلب وحالة اقتصادية متدنية تجمعهما وشيجة " التخلف " التي تتغذى بثقافة الوهم. وهنا يتبادر الى الذهن سؤال ملح آخر وهو: ماهي ثقافة الوهم ؟ ثقافة الوهم عبارة عن صور نمطية تفصل الإنسان عن الواقع. وعندما يترسخ مسلسل التصورات دون المرور من صمام تبلور الشك الى اليقين، يتحول الوهم من التراكم الكمي الى معتقد نوعي، يتخطى الاسس المعرفية وتتكامل في ذهن معتقديه فلسفة تستند على تفسيرات قديمة لإيجاد حلول لمشكلات حديثة، وهذا ما يعاكس الخط البياني للعولمة ذات التيار المعرفي الجارف التي ترى في التفسيرات الحديثة حلولاً وتحاليلاً للمشكلات القديمة، وخاصة فيما يتعلق بالتفاضل بين الاعراق البشرية من قوميات وطوائف مختلفة وكذلك الفروقات الجنسية بين المرأة والرجل الى ان يصل الامر الى القبول بالافكار المستوردة بدل الاعتماد على الثقافة التي تنمو من خلال التغيرات الحاصلة في اسلوب الحياة. وهنا ندخل في موضوع حساس آخر وهو التعرف على ماهية الافكار المستوردة .

يزداد الاقبال على الافكار المستوردة عندما تضعف مقومات الأمن القومي وتفتقر الدولة الى صمام الأمان الخاص بغربلة ما يدور ويجول في سجل الايرادات والاصدارات

المعرفية وعندئذ يقع المجتمع باكمله فريسة امام غـول العولمـة ويضـطر طواعيـة الى تـبني ثقافة الوهم .

ومن سوء حظ الكُرد انهم كمواطنين مصابون بداء الوهم ووطنهم ايضا مقسم بين دول تعاني من ثقافة الوهم، لذا فان وضعهم المـزري بـين مطرقـة غـدر الدولـة وسـندان الجهـل الذاتي يجعلهم اكثر حرمانا مـن مـواطنيهم وان حقـوقهم لا ترتقـي الى درجـة امتيـازات الآخرين بل تدخل في دهاليز طويلة من مشاكل عرقيـة واقتصـادية واجتماعيـة وثقافيـة، وفي الوقت نفسه يعانون من مشاكل ذاتية معقدة تلتقي في احيان كثيرة مع تشعبات تلك الدهاليز التي اعدت خصيصا لإجبارهم بالتخلي عن حقوقهم كأمة والانخراط في مجتمعات شمولية لاتؤمن بتبادل الثقافات ولاتعترف بالتعايش المتكافىء بين القوميـات بـل وتجهـل مكونات كرامة الإنسان، مـا يـؤدي الى اسـتفحال ظـاهرتي التهمـيش والاهمـال واللـتين تغذيان الانعزالية والتمرد لدى الفرد. وبتراكم هـذه الحـالات وازديـاد فاعليتهـا في المجتمـع تخلق هناك توليفة من المعاناة الاليمة التي تحصر المحرومين في زاوية ضيقة وتدفعهم مجـبرين أم مختارين الى هاوية الخروج على القوانين المرِعية بل التمرد عليها ومحاولة تغيرهـا بـالقوة وهو امر خطير يعرفه قاموس العصر تحت مسـميات مرعبـة يتجنبهـا اعتـى القسـاة ولا يحمد عقباه الا الواهم الذي يقاضي الحرية بالامان او الامان بالحرية وفي كلتـا الحـالتين انـه لا يستحق الاثنين .

الذكاء النير وظله الكئيب

ليس من الضروري او المفيد ـ اليوم ـ ان تتبع في مجتمعنا قياسـات اوتـس او سـتيرنبيرك او هاكيت ... لمعرفة درجة ذكاء الإنسان او لنقول معرفـة مهاراتـه العقليـة، لأنـه هنـاك

طرق عملية بديلة ومقبولة الى حد ما، تعتمد أساساً على الفراسة الشخصية والفطنة الذاتية وسهولة التأثير والتأثر، لكونها لا تستند على الفرضيات والتنظير وبعيدة عن التجريب. وخلاصة القول انها لا تعترف بالعلم اصلاً، وتعوض على ما تعول عليه أرقى المجتمعات المتمدنة.

من اجل توضيح سطحية هذه الفكرة الشعبية المتداولة نذكر بعض النماذج المنتشرة ومنها على سبيل المثال :

- الإنسان الذكي، هو من يخون الآخرين دون ان يعطي نقطة ضعف يحاسب عليها لا أمام القانون فحسب بل حتى أمام الضمير ايضاً.

- الإنسان الذكي ، هو من يسعى ويجد مثل الآخرين لكنه يقظ حساس لكي لا يقع فريسة بيد المتربصين أي أنه يتجنب الانخراط في مسلسلات الظلم الجذابة او الوقوع في مطبات الاستغلال المظلومة.

هناك امثلة اخرى أذكى درجة واوفر رزقاً وأسلم مصيراً وأرقى منزلة وتحاول جاهدة ان تنوب عن انتلجنسيا المجتمع، وعندما تفلح في ذلك ـ ولو لفترة قصيرة ـ تتباهى بكبريائها وخاصة عندما تفتخر بها الصحافة وتنال المدح من الشعراء والتبرك من المحترمين .

صحيح ان توظيف مثل هذه المهمات لتحقيق اهداف غير مقيدة بين اقواس الخير او المصلحة العامة يتطلب درجة عالية من الذكاء لذا يحسد عليه الكثيرون ممن ـ يحلو لهم التنعم بحصاد المكتسبات من دون المرور بسلم التدرج المهني او الترقي العلمي .

ولكن تبقى هناك حقيقة ساطعة وهي ان تأثير هذه النماذج المبتذلة محصور في دوائر ضيقة ومهتزة لا يتعدى ـ في كل الاحوال ـ مخيلة صاحبه، وحتى لو امتازت بخبرة راقية فأن استنتاجات اي من تلك النماذج لا تتخطى طول ظله الكئيب، ذلك الظل الذي لم يسعده نور الشمس يوماً بل يتجسد دوماً امام شرارة ما تقدح من نيران الآخرين.

الكره المحبب بين الرجل والمرأة

يتباهى الرجل في اغلب الاحيان انه يحب المرأة حد الجنون، وخاصة عندما يتيقن في مقتبل عمره بأن علامات الرجل البايولوجية باتت تتكامل عنده، وحينئذ يشعر بأن الذ واطيب مافي الوجود موجود لدى المرأة، ويشتاق الى ان تتكرم بشيء من نعيمها، وينتظرها بلهفة احر من الجمر. ولما تحين له فرصة الحصول على مبتغاه، يتفنن في اتقان المعادلة الازلية : ان يأخذ الرجل كل ما تملكه المرأة من حب وحلاوة وحسن واولاد وضمان السمعة وتدبير امور البيت وماتلحقه من خدمات اخرى وفي المقابل يمنحها القسوة المفرطة والخشونة المؤذية، وتستمر المعاملة في وضع انتقامي مبطن ... على سبيل المثال ، يشعر الرجل بغبطة النشوة فيما لو أحس بأنها تتألم اثناء عملية فعل الحب، ويفرح بقدوم الزائر الجديد عندما تأن هي تحت وطأة مخاض الولادة، ويقضي عليها كالوحش الكاسر لو ارتكبت غلطة اجتماعية، وربما يطردها لو تهاونت في اصول تقديم الخدمات ...

هذا الكره المحبب الذي يبديه الرجل للمرأة ، ربما يعود الى حقده الدفين المتوارث جيلاً بعد جيل ... الى ان يصل الامر الى أبينا آدم، الذي ذاق الأمرين بسبب القناعة التي رضخ لها امام الحاح حواء بأكل التفاحة .. وعلى اثر تلك المخالفة، طردا من الجنة وشردا الى ارض مليئة بالكوارث والمصائب ...

ان هذا الاستنتاج، هو تكهن غير مبرهن وصعب التصديق، الا انه اصبح لفترات كثيرة جزءاً مهماً من عمر الحضارة الإنسانية. وما اكثر الامثلة التي يسردها او يمارسها الناس بين قروي سطحي بائس الى امير طاغية متمدن .

والغريب في هذا التوجه المتأمل هو ان الإنسان الذي يختلف في هذا الرأي عن اصل الإنسان وكيفية تطوره، يبقى خارج هذه الاقواس التي تملأ بين طرفيها مكنونات تأريخ طويل من كنوز الفكر وهيجان العواطف.

إنتصارات الرجل و ذكاء المرأة

لم يشهد التأريخ حالة واحدة إنتصر فيها الرجل على المرأة . هذه حقيقة تحتاج الى كثير من البراهين الموثقة، وخاصة بالنسبة للذين لا يثقون بمثل هذه الأفكار أصلاً.

خارج المناقشات العلمية الهادئة، تكون لهذه العبارات تأثيرات جانبية كبيرة، فهي إستفزازية لمناصري منظمات حقوق المرأة، و في الوقت نفسه إهانة صريحة لأصحاب السواعد القوية الذين لايهابون ساحات الوغى فكيف الركوع أمام مخلوقات لطيفة في بساطتها و ضعيفة في قوامها...

هنا في المجتمع الكُردستاني، يبدو الأمر أكثر غرابة، لأن هضم حقوق المرأة فيه، عملية مستساغة يزاولها المجتمع بأكمله. ويحاول عن طريق مؤسساته المختلفة تهميش دورها و سلب حريتها. مما يساعد على تعقيد المشكلة وعدم تمخض رؤيا واضحة عن مدى أسباب ووقائع وأفق هذه المسألة المعقدة.

لكي نترك خصوصيات المجتمع الكُردستاني وعموميات المجتمعات الإنسانية جانباً. ونختصر الصراعات التي تبرز على سطح المعادلات المتناطحة في النقطة الآتية: إن الرجل ينتصر على المرأة عندما يستعمل قوته الجسدية. بينما تنتصر المرأة على الرجل عندما تلجأ الى قواها العقلية. فشتان الجمع بين نتائج الحالتين.

لكي لاندخل في التعقيدات اللامتناهية والمداخلات المختلفة لهذا الصراع المرير على مر العصور. نأتي بهذا المثال البسيط والمعبر عن حيثيات المسألة بشكل يلفت إنتباه الجنسين على جميع مستوياتهم الإجتماعية و الثقافية.

يقص علينا صاحب كتاب المحاسن والمساويء اقصوصة لطيفة يوجزها في: (إن الموبدان او رئيس الكهنة الايراني كان كلما دخل على (خسرو ابرويز) حياه ثم قال له: (أعطيت الخير، و جنيت طاعة النساء) فغاظ ذلك (شرين) محظية كسرى، فأرادت أن تكيد له.

فأهدت اليه جارية جميلة يقال لها (مشكدانه ـ ومعناها بالفارسية حبة المسك) وأمرتها أن تغري الشيخ بفاتنها، على ألا تستجيب اليه إذا دعاها إلا إذا أسرجته وألجمته وركبته، وتحدد وقتاً لذلك تخبر به سيدتها، كي تفاجئه على هذه الحال مع كسرى، وفعلت الجارية ما أمرتها به سيدتها.

وطلع (خسرو) و (شرين) على الجارية وقد ألجمت الموبدان و أسرجته و ركبته، وهي تقول له: (خه ر خه ر) و معناها (حمار حمار). ورفع الموبدان رأسه فرأى (خسرو)، فقال له: (هو ما كنت أقول لك في إجتناب طاعة النساء). يريد أنه حذر الملك بالقول، ثم فعل ذلك ليضرب له المثل عملاً.

وفي قصة مشابهة ألفها الشاعر الفرنسي (هنري داندیلي) في النصف الاول من القرن الثالث عشر وسماها (أقصوصة أرسطو) يحكي فيها عن المكيدة التي دبرتها المرأة الذكية التي توقع الفيلسوف في الفخ، لكن الاختلاف الوحيد بين القصتين الشرقية و الغربية هي استبدال خسرو بالأسكندر و الموبدان بـ (ارسطو).

هذه النوادر اللطيفة تؤكد انتصار المرأة على الرجل في التفكير والمهارات العقلية. بينما إنتصار الرجال على النساء هو ما تؤكده قساوة المباراة اليومية على الحلبة الكردستانية.

سرحان ... ما أعظمك !
وما أغبى من يقلدك !

كان عيسى سوار من القادة اللامعين في ثورة ايلول (١٩٦١-١٩٧٥)، وأحد الشباب الكُرد الذين صاحبوا البارزاني الى الاتحاد السوفيتي (١٩٤٧-١٩٥٨)، ولعل المحطة الرئيسة في عمره العسكري كانت الفترة التي نوط اليه قيادة منطقة زاخو ذات الموقع الاستراتيجي الحساس، والواقعة بين المثلث الحدودي تركيا ـ سورية ـ العراق، والتي

تمتاز بمزايا جيوبوليتيكية قلما توجد في مناطق اخرى من كُردستان العراق، حيث جبال شاهقة ومضائق مستعصية، وسهول فسيحة، ونهر متدفق جارٍ مع الزمن، وذوق انساني سليم لساكنيها المصابين بالوطنية المفرطة .

والنقطة التي اود ـ هنا ـ ان اقف عندها هي الميزة الاخيرة في الذوق والشهامة، والعبرة المبتغاة من ذكرها هي سرد الطرفة التي التقى عندها الذوق الإنساني الرفيع المتمثل في شخصية سرحان السندي مع المسحة العسكرية الحساسة لفطنة عيسى سوار. ففي بداية تسلم الاخير قيادة المنطقة والضفة الأُخرى من نهر دجلة الى الحدود السورية، بدأت القوات الحكومية من شرطة قوات سيارة وجيش مجحفل مزود بالاسلحة الحديثة وخاصة مدافع ٥/٥ الرهيبة بقياس الحسابات العسكرية في ميادين القتال آنذاك، لذا اتبع عيسى اسلوب حرب العصابات والتنقل السريع بين القرى لتحاشي المجابهة المباشرة مع الجيش اولاً، ولأتمام التعبئة الجماهيرية والامور السوقية الأُخرى ثانياً.

كان الوجهاء والمتحمسون للانخراط في صفوف قوات الثورة (البيشمه ركة) يتسللون خلسة الى المقر المتنقل لعيسى سوار، ويبدون استعدادهم لمساعدة الثورة، وتسجيل اسمائهم، لذا اصبح البحث عن المقر الرئيسي ظاهرة يومية منتشرة تبدأ بالسؤال المانع وتنتهي بالجواب الجامع وتتكاثف جهود الجميع في بناء قوات المواجهة الفعلية لدرء المخاطر .

من بين الذين توافدوا على المقر المتجول سرحان السندي ذو البديهية الحاضرة والنكتة اللطيفة الدائمة وهو يحمل بندقيته (سيتير) القديمة وسأل عن عيسى سوار، ولما دلوه عن مكانه، كان القائد جالساً تحت شجرة بلوط وهو غارق في التفكير.

سلم عليه سرحان وعاتبه على موقفه المتردد بين الدفاع والهجوم، ولماذا لا يذهب ويفتك بقوات العدو المتعسكرة في سهل زاخو ويأسر من يريد منهم ان يبقى على قيد الحياة ويأتي بهم الى هذا المعقل الجبلي.

تعجب عيسى سوار من لياقة وكياسة وقوة هذا الكُردي الفخور، واجابه:

- كيف يمكننا ذلك ونحن في بداية تكوين قوتنا، وهم شرطة قوات سيارة وجيش كبير تسانده المدفعية والطائرات.

اجابه سرحان بكل هدوء:

- والله لو كان جنود هذا الجيش مشدودي الايدي من الخلف لذهبت لوحدي وسقتهم كالخرفان امامي وجلبتهم الى هنا.

فضحك عيسى سوار ولاطفه بلياقة واحترام :

- يا اخي العزيز لو كانوا كذلك لأستطعت انا ايضاً فعل ذلك!!

وهنا ضحك سرحان وقال متفاخراً :

- الآن عرفت بأن هناك شجاعان في هذا العالم احدهم انت والآخر انا ..

وهنا بدأ التعارف اللطيف وتوالت الطرائف عبر حوادث كثيرة لها بداية وليست لها نهاية. ولكن لسنا ـ الآن ـ بخصوص جمعها او ذكر بعضها او حتى الاشارة اليها بل المغزى من هذه الطرفة هو تكرار حوادث مماثلة ووجود شخصيات حقيقية يمثلون ذلك الدور الذي لعبه سرحان، ولكن عن ارادة خبيثة مشحونة بالغباء.

تقويم الخطأ :

إصلاح أم ابداع

هل يمكننا ايجاد الصيغ الجمالية والمعاني الفلسفية لمصطلح (الإبداع) في مقولة مبسطة مثل (الإبداع هو مبادرة ذاتية لمكسب فردي ينفع الآخرين). وبالرغم من سطحية هذا التعريف وعدم استيعابه للمعنى الحقيقي والشامل لهذا العمل الإنساني النبيل، إلا انه في أحوال كثيرة يمكن الاعتماد عليه لشرح وتوضيح بعض الأمور غير المتمدنة التي تفتقر

إلى التنسيق او تخلو من الأناقة او مجردة نهائيا من اللطافة المنظمة. في مثل هذه الأحوال تصبح تلك المقولات السطحية بمثابة قوانين وتحاليل منطقية تفي الغرض المطلوب، وربما تكون الأصلح والأنسب للتعبير عن المؤشرات البيئية غير الملائمة لإنماء وتنشئة الإبداع وتنوعه في المجالات المختلفة مع الظروف غير الطبيعية للتقدم المتمدن. عندئذ تبدأ المنافسة غير المتكافئة بين (الابداع) و(الإصلاح) فيكون الارجحية للثاني ويعتبر الأصلاحيون هم المبدعون الحقيقيون وربما يكون هذا التراجع المؤسف لحقيقة الإبداع امام زركشة الإصلاح أمراً هيناً، إذا قارناه مع ما يفعله التراجع عن الخطأ أمام الإصلاح، حيث يعتبره الكثيرون ان ذلك التراجع نوع من الإصلاح ويصفونه بالمكسب العظيم بل يضعونه في منزلة الإبداع .

وهنا يتراجع الإبداع خطوتين الى الوراء. ولكي لا نبتعد عن جوهر المسافات الحقيقية بين الظواهر الثلاث (الابداع، الإصلاح، التراجع عن الخطأ واعادة ترتيب مفاصله) نرى من الضروري ان نستشهد ببعض الأمثلة :

- يبنى جسر صغير ثم يهدم قبل ان ينتهي عمره الخدمي ويشيد في محله جسراً آخر يفي ذات الغرض ولكن مع تغيير في شكله ومواد بنائه وتخطيطه الهندسي.

٢- شارع يبلط ثم يردم ويجري عليه فحوصات جيولوجية ويتم تشخيص أبعاد جديدة في كميات الخرسانة والإسفلت وأنواع المواد التي تنظم بها الأرصفة والإشارات المرورية.

٣ - تقام أعمدة شبكة أسلاك الهاتف أو الكهرباء، ثم بعد فترة تردم لتحفر الأرصفة لمد الشبكات المذكورة في هذه المرة تحت الأرض وبالرغم من عدم فاعلية عمل التيار الكهربائي أو حرارة الأسلاك التلفونية فإن آثار الحفريات في الشوارع تبقى وتشوه منظر المدينة.

٤- يقام نصب لرمز وطني او ثقافي، ثم بعد فترة يرفع من مكانه وينقل إلى جهة مجهولة، قد يظهر بعد حين في مكان آخر او يختفي نهائيا وبالرغم من الإهدار في الأموال التي صرفت عليه، لايضع أي اعتبار للجهد الإبداعي الذي بذله النحات ايضاً.

٥- تبنى عمارة ثم تهدم وتقام محلها عمارة عصرية من حيث المظهر ولكن خالية من الشروط الحضارية المتعلقة بالبيئة والسير المنتظم والحاجة المهنية أو المرفقات والتوابع الملحقة بها. يتم التركيز في هذه الحالات على ان تكون أفضل وأجمل من مثيلاتها يمنة وشمالاً، فتظهر مثل الزرافة التي تصول بين قطيع الأغنام.

٦- لاتحافظ على المعالم الأثرية او الشخوص الحضارية للمدينة، فمن السهل ان يهدم مسجدا تاريخيا او مدرسة قديمة ثم تبنى محلها مسجداً أو مدرسة عصرية....وكذلك الحال بالنسبة للأشجار المعمرة أو الأماكن المزروعة التي تتبدل بجيل جديد من الأشجار والمزروعات الهجينة وفي بعض المرات الغريبة عن البيئة المحلية...

الأمثلة كثيرة ومختلفة، ولكن جميعها تشترك في نقطة واحدة، وهي عند افتتاح المشاريع تقام الحفلات ويعتبرونها مناسبة تضاهي الاصلاح وقد يجوز ان توصف بالإبداع العظيم وليس من المستغرب لو نعتت بعضها بـ(أسطورة العصر).

لغتنا الجميلة ولغاتهم المفيدة

كتب الكثير عن اللغة وأهميتها في المجالات المعرفية كافة، ويعتبرها البعض علم العلوم الإنسانية، علماً استقل عن الفلسفة وتجاوز حدود المنطق. له مناهجه ومدارسه، تنوعت فروعه، وتجذرت علاقاته في مفاصل العلوم الأُخرى كعلم الاجتماع وعلم النفس... وغيرها. وحتى خارج مدارات العمل الاكاديمي فاللغة حالة فاعلة وظاهرة مدامة لها

مساسها المباشر بالحياة اليومية للناطقين بها على المستوى الفردي والجماعي على حد سواء.

يشهد تأريخ علم اللغة لعباقرة خدموا لغتهم سواء من خلال علوم أخرى او من خلال دراسة لغته القومية مباشرة فأفادوا تلك اللغات ايضاً. ويطول سلم الأسماء اللامعة في هذا المجال من أرسطو الى سيبويه فـ... سوسير... وجومسكي. وبالعكس هناك من اتعبوا انفسهم وافرطوا في ابحاثهم المتشعبة ظناً منهم بأن هذه الخدمات سوف يكتب لها التأريخ باحرف من ذهب.. لكن مع مرور الزمن تكتشف السلبيات وتكبر الهفوات، وتقف صدقتهم الجارية عند مساحات التيقن بمخاطرها على لغات اخرى بل وحتى على حرمات الآخرين ايضاً. ويحق لنا التلميح لبعضها على سبيل الاستشهاد ولا الحصر:

يقول الجاحظ (٧٧٥-٨٦٨) في كتابه المشهور البيان والتبيين- الجزء الرابع وفي الصفحة (٥٥) مادحاً بلاغة لغته الأم (والبديع مقصور على العرب ومن اجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان).

لم يقتصر هذا التوجه الجارح للشعور الإنساني العام في الشرق وحده، بل هناك من في الغرب ايضاً يعزف على هذا الوتر. يقول البحاثة اللغوي الفرنسي بوهور (١٦٢٨-١٧٠٢) ما معناه: (ان نطقنا- نحن الفرنسيين- هو النطق الطبيعي، فلغة الصينيين والاسيويين غناء، وكلام الالمان صخب وضوضاء، وحديث الاسبان موقع، ومنطق الايطاليين زفير، ولغة الانكليز صفير. والفرنسيون وحدهم هم الذين يتكلمون).

الشيء المهم الذي نستنبطه من هذه الامثلة، هو أن تعلق أي شعب بلغته وتعصبه لنقاوتها يأتي من منطلق التعنصر والتعالي. فبقدر ما تنفعهم هذه الدراسات والتوجهات فأنها تضر الآخرين اضعافاً مضاعفة.

الغريب في هذا الأمر ما يحدث عند الكُرد، فمحاولاتهم حتى عندما تأتي من باب التعصب للغتهم، فأن هذا التعصب يؤذيهم اكثر مما يضر الآخرين، وعلى سبيل المثال:

تجمهر بعض المثقفين الكُرد حول ميجرسون الحاكم البريطاني في السليمانية بُعيد الحرب العالمية الاولى، حاولوا تنقية اللهجة الكُردية الجنوبية الجميلة من المفردات الاجنبية وبالأخص العربية ظناً منهم بأنها خدمة جليلة يقدمونها الى لغتهم العزيزة... ولكن بعد سنوات تبين ان هذه اللغة الغنية بدت تبتعد مسافة كبيرة عن اللهجات الكُردية الأُخرى، وفي الوقت نفسه عن لغات الاقوام المجاورة التي تجمعهم الثقافة الاسلامية الحبلى بالمفردات والمصطلحات المشتركة التي تداولها شعوب المنطقة. وبذلك خسر الكُرد مرتين: مرة مع انفسهم لعدم تمكنهم لحد الآن امتلاك لغة موحدة. ومرة مع الاخرين حيث يصعب عليهم تعلم لغات الاقوام المجاورة. وهكذا ابتعد الكُرد خطوتين عن الحوار الحضاري وانحرموا من التفاعل الثقافي الذي تمليه الطبيعة السمحة لحياة الشعوب وتطورها.

هل يصبح مامه ياره سانتاكلوسًا في كُردستان

في احتفالات عيد نوروز المنصرم وبالتحديد في اليوم الثالث من أعياد نوروز /٢٠٠٧ زرت إحدى المدارس في أطراف العاصمة اربيل . انبهرت من حسن ترتيب الفعاليات الفنية التي قدمت من قبل معلمي وطلبة المدرسة، وربما يعود الفضل إلى دراية ونشاط مديرة المدرسة (شنو) البارعة في الفن التشكيلي والذكية في مادة الرياضيات و(الشاطرة) جدا في الإدارة ....ولم تقتصر الفعاليات على الموسيقى والمسرح والفن التشكيلي فقط بل كانت هناك نسبة كبيرة من الأعمال اليدوية التي تعكس الحرف التي ما تزال موجودة في المنطقة وأعمال أخرى تعكس فيها الطابع الحضاري للمدينة الكُردية.

وهنا اود ان اشير إلى لقطات ممتعة وجدية لإحدى المسرحيات التي قدمت في المناسبة، وخاصة تلك التي أبداها شخصية (مامه ياره) العجوز المبتسم، حيث مع حركاته الخفيفة

وعكازته المشجرة كان يحمل حقيبة من الهدايا الجميلة ويوزعها على الاطفال لمناسبة حلول اليوم الاول من شهر نوروز الذي يصادف رأس السنة الكُردية.

وخلال متابعتي للموضوع، عرفت ان المسرحية كانت من إعداد وإخراج الفنان(نوزاد حاجي شوشه) الصديق الحميم للأطفال سواء في الاحتفالات المدرسية أو في البرامج التلفزيزنية الخاصة بهم.

كان سيناريو المسرحية جميلاً وأداء مشاهدها أجمل، ولو ان الفكرة كانت مقتبسة من سانتاكلوس القديس ذي اللحية البيضاء والوجنتين الحمراوين، الذي ينتظره الأطفال في رأس السنة الميلادية عندما يظهر فجأة في أماكن متفرقة من العالم ويوزع الهدايا عليهم.

وما الضير لو يصبح(مامه ياره) سانتاكلوسًا كُردياً يظهر في رأس السنة الكُردية أي في الليلة الاولى من شهر نوروز. ويصبح الرابط المحبب بين مناسبة وطنية وقلوب الملايين من أطفال كُردستان. وحبذا لو يستساغ الاقتراح ايجابياً ويدخل حيز التطبيق طوعياً، يتبادره الخيرون في جميع المدن والقرى، وبه نستطيع نحن الكُرد ان نضيف رمزاً ثقافياً آخر الى مجموعة الرموز القليلة والنادرة التي تتمحور حولها آمالنا وأعمالنا وما أحوجنا اليوم الى القواسم المشتركة التي تجمع الاجزاء المنسلخة من جسم الوطن ؟؟

وفي الاخير يبقى ان نقول بأن (مامه ياره) مفردة كُردية خالصة تعني (العم المحبوب) وإسم علم لضابط مدفعية في جيش الإمارة البابانية. واسمه الكامل يار احمد خضر بك (١٨٠٤-١٨٩٦) اشتهر في منطقة السليمانية كبطل شعبى مقدام، لم يترك مدافعه في ساحة المعركة الحاسمة التي وقعت بين جيش الامارة وجيش الدولة العثمانية قرب مدينة كويسنجق سنة (١٨٤٧). حيث حارب ـ اثناء الاصطدام ـ يار احمد بمفرده الى ان نفذت ذخائره وارهقه التعب فوقع اسيراً بيد العثمانيين، كافأه العدو لصلابته واخلاصه في اداء الواجب العسكري باكمل وجه، وهو ميزة يقدرها كل من يحترم النظام ويتفنن في ضبط

مفاصله. ولمن ينصف في وصف هذه المعادلة المختلة يحق له القول بان البقاء يكون للأصلح.

عاد مامه ياره الى السليمانية واستقبل بحفاوة واستحق المجد من الشعب .. ومنذ ذلك التاريخ وحتى اواخر أيامه عكف على حياة الزهد والطاعة وعمل الخير، وغدا مَعلماً مشهوراً أحبه الجميع وتيمناً لمحبتهم له أضافوا كلمة(مامه- العم) الى اسمه (يار- الحبيب) فلقب بـ(مامه ياره) وبناء على وصيته دفن في رابية خارج المدينة سميت فيما بعد بإسمه (كردى مامه ياره – تل مامه ياره). اختار ذلك المكان المنزوي لكي لا يجمعه الموت مع من خذلوه في الحياة وتركوه وحيدا في ساحة المعركة.

ومن اجل سمو وقدسية المزار في ذلك التل، اتخذه الشاعر توفيق بيرميرد (١٨٦٧-١٩٥٠) مكانا لاتقاد شعلة عيد نوروز في بداية كل سنة، وعليه كان ينظم الاحتفالات ايضا. اعتزازاً لـ(بيره ميرد) وتعظيما لمدينة السليمانية ذات التاريخ الثقافي والوطني المشهود، وتمسكا بتراثنا أكثر، نقول بكل فخر واطمئنان : نحب مامه ياره من الاعماق ونرحب بمقدمه مع إطلالة كل يوم جديد في رأس السنة الكُردية لنزكي أنفسنا بابتساماته الحنونة ويدخل الفرح الى قلوب أطفالنا بهداياه الجميلة .

في البدء كان العمل ... وفي النهاية الثقافة

هناك تساؤلات افتراضية كثيرة حول كيفية وزمن خروج الإنسان من المملكة الحيوانية . ما الجدوى من طرح مثل هذه الافتراضات، لولا البحث عن الجواب الشافي لأسباب تفوق الإنسان على الكائنات الأُخرى في الطبيعة.

بعيداً عن التحليل والتعليل، يتفق الجميع على قاسم مشترك واحد، وهو ان الإنسان يتفاعل مع الطبيعة ويحاول السيطرة عليها واخضاع ما فيها لصالحه وتطور حياته، في وقت ان جميع الكائنات الأُخرى تكيف نفسها حسب ما تمليه الطبيعة عليها من تغيير وتبدل وانسجام.

من هنا يتبين لنا جلياً، ان الطبيعة هي مركز الثقل الذي يتوازن عليه طرفا المعادلة بين تفاعل الإنسان معها وتكيف الكائنات الأُخرى فيها ... والحفاظ على هذا الاتزان هو سر ديمومة الحياة وتطورها.

لكي نتيقن لهذا المسار الشاق الذي قطعه الإنسان في خضم صراعات مريرة ومتاعب جمة وعبر مراحل متباينة من تأريخه الطويل، لابد من الاشارة الى الخطوة الاولى التي خاضها الإنسان في نشاطه مع الطبيعة وهي : البدء بالعمل على تحويل مكونات الطبيعة الى ثروة يمتلكها ويستفيد منها وقت الحاجة.

وبالرغم من بساطة هذا العمل البكر، الا انه تكمن فيه حيثيات عملية معقدة بدت تأثيراتها تظهر فيما بعد، حيث احتاج في بادئ الامر الى تنظيم افكاره في قوانين بسيطة ولكن اساسية في استثمار جهده الجماعي، مما اوجد نوع من العلاقات المشتركة التي تسترشد المهارات وتنسق بين عمليات الانتاج واساليب التملك وظروف الاستهلاك ... والتي تتحول مجتمعة الى نسيج متجانس يمثل ثقافة المجتمع. فالثقافة حالة اجتماعية قبل ان تكون ظاهرة انسانية، بدأت عند تنظيم الفكر المسّير للعمل، والذي يمثل الواجهة المعبرة للبناء الفوقي للمجتمع، والذي هو بدوره انعكاس لبنائه التحتي. فالاقتصاد لا يمثل جميع مفاصل هذا البناء كما هو شائع عند مناصري بعض الفلسفات المادية. بل هناك عناصر ذاتية ومبادرات ابداعية تدخل ضمن تركيبة معقدة تتمحور حول العامل المادي للاستثمارات المختلفة والتي من خلالها تتكون جملة من العلاقات المنظمة والضامنة للمصالح المشتركة للمواطنين.

القاسم المشترك بين تلك العلاقات المقننة، هو ثقافة المجتمع التي تتبنى في الفن والأدب والصياغات الفلسفية والمهارات العملية والامور الانتاجية وما تتمخض من العادات والتقاليد والاعراف .....

ومن هنا فان أية محاولة لتطوير الثقافة يجب ان تبدأ بترسيخ لبنات العمل الجماعي ومن ثم تنظيم التفكير العلمي الذي تتطور به العلاقات العامة ....

ضمن تنسيق متوازن بين مكونات الثقافة وصهرها في بودقة متميزة تمثل الناتج الاخير للتنظيم المقبول بين جميع افراد المجتمع في علاقاتهم المهنية اولاً والوطنية ثانياً والإنسانية ثالثاً .

ياترى ماذا يدور ـ الآن ـ في خلد مثقفي اقليم كُردستان حول تشخيص الخطوط العامة للثقافة؟ وماهي الاستراتيجية التي يسير عليها الكم الهائل للتراث المتجذر في اعماق شخصيتهم الوطنية؟ وما دور الجهد المتواضع الذي يضيفه المبدعون اليه ـ يومياً- في شتى مجالات الحياة؟

وأخيراً لنسأل : هل هناك من يفكر في تنظيم ثقافتنا ضمن كيان متفتح يتفاعل حضارياً مع الآخرين؟

إنفتاح الثوابت و إنغلاق المتحولات

ما أقسى الزمن، حيث سنوات تمضي وما يزال الكُرد يتحسرون على ماضيهم المغبون و حاضرهم الشائك ومستقبلهم المجهول. ليس من المعقول أن يشتكي الإنسان لأي نوع من القساوة، لأن القساوة نفسها حالة غير محببة يرفضها الجميع، ولكن عندما تكون النتيجة حتمية لرد فعل، فإن سلبياتها تتضاعف وتزداد سوءًا عندما تصل شراستها لتشمل

حالتي الفعل ورد الفعل في آن واحد. وهو مانراه حالياً في الوضع الكُردي الـذي يـأن تحت سندان التحديات الكبيرة ومطرقـة الامكانيـات القليلـة ... فنـراه اليـوم يتشـبث بأسمـال الزمن الرابع بعد أن خذله التـأريخ والعصـر ومـا يجـري وراءهمـا، فهـو المقتـول الضـحية إستحقاقاً و القاتل البريء إصراراً، وما أعتى قوة الجذب بين الحالتين.

يرجع سبب تلك الكوارث المرئية منها وحتى الوهمية أيضاً ـ حسب رأي أكثـر المحللين أو المتابعين للشؤون الكردستانية ـ الى جملة مـن الظـروف الداخليـة والخارجيـة علـى حـد سواء.

ولكـن بـدا في الآونـة الاخـيرة رأي مـزدوج يـرجح سـبب الحالـة الكُرديـة الى الموقـع الجيوبوليتيكي لكُردستان، حيث وطن مغلـق بـين دول لاتريـد لهـم الخـير، وتسـد بـوجههم منافذ الاتصال مع العالم الخارجي المتمدن ناسين او متناسين أن هنـاك أكثـر مـن (٢٥) دولة في العالم مغلقة بين دول ولاتشرف حدودها على البحار بتاتاً، مثل: منغوليا، نيبـال ، قرغيزيا، طاجكستان، اوزبكستان، أفغانستان، لاوس، تركمنستان الشرقية .. في قـارة آسيا. أما في قارة أفريقيا فهنـاك دول كـثيرة منغلقـة تحيطهـا مـن جميـع الجهـات مثـل: بوتسوانا، زمبابوي، زامبيا، زائير، اوغندا، جمهورية أفريقيا الوسـطى، تشـاد، النيجـر، مالي، بوركينا، ملاوي. أما في أمريكا الجنوبية هنـاك: بوليفيـا، بـاراغواي . وحتـى في القارة الاوروبية هناك دول كثيرة مثل: تشيك، لوكسومبورك، النمسا، سلوفاكيا، روسـيا البيضاء ... و لكن لم يكن الموقع الجيوبولتيكي لهذه الدول الفيصل الحاسم في وجـودهم أم لا، كما هو مطروح في الساحة الكُردستانية.

حيثيات هذا الرأي الغريب هي التي دفعتني الى كتابة هـذه الاسـطر ومتابعـة الامـر بجد، وربما هذا السبب الآنف الذكر وغيره من الاسـباب لـيس ذا أهميـة بالنسـبة لكيفيـة قيام الكيان الكُردستاني وترسيخ خطواته البنائية إقتصـادياً وإجتماعيـاً وسياسـياً فيمـا إذا أعتمد على الانتاج الذاتي واستطاع أن يؤمن غذاءه وإحتياجاته المادية الملحة... أما

الحالات الفكرية والثقافية فإن تيار العولمة بتكنولوجيته المتطورة قد أزالت الحدود و المواقع بين تفاعل الثقافات وتبادل المعلومات في جميع أرجاء المعمورة.

هذه المعادلة التي تؤكد على: الامن الغذائي وتأمين مصادر الطاقة الممكن ترتيبها في الداخل اولاً، و التفاعل الحضاري المبني على أساس تبادل الخبرات وإكتساب المهارات الذين تتكامل أجزاؤهما ضمن تمتين العلاقات مع الخارج ثانياً، هي معادلة صائبة و متزنة وتستطيع أن تدخل ضمن المنافسات السليمة وتقطع المسافات من دون خوف على نتائجها.

ورجحان كفتي هذه المعادلة الواضحة والبسيطة الى حد ما، هي التي تفيد الكُرد قبل وأثناء التفكير بإيجاد الحلول المناسبة لمعضلتهم التي يحق القول بتسميتها (عقدة العصر).

لايحبذ خبراء المال والاقتصاد في الاقليم ـ لأسباب أجهلها ـ تحليل مكونات هذه المعادلة، بل ركزوا إهتمامهم على السوق الحرة ونشاط القطاع الخاص، فأفرزت العملية حالة معاكسة تماماً على ما ذهبت اليه أعلاه، فبدأ الامن الغذائي مرهوناً على تداعيات الثغور الحدودية. ومصادر الطاقة تحت رحمة الاسعار الخارجية، أما التفاعل الحضاري فقد إستفحل في كفة ميزان مختل، ورجحان الكفة الأُخرى حسرة أجرعها مثل السم، ولكن سماً تتقاسم قطراته بين خميرة الحب وأكسير الكرامة.

في بيتنا إمرأة عمياء

الأمية و الجهل توأمان عرفهما العرب قبل غيرهم، بدأت اولى خطواتهم في الثقافة و على المستويين الفردي والجمعي بالأدب... وفي الأدب أختصوا في الشعر وفي الشعر ركزوا

على النوع الوجداني، وخير من بادر في السبق تفنن في إبداعه على أكمل وجه، برز منهم أصحاب المعلقات، وجمع غفير بين ناطق بإسم العشيرة ومتكلم يتحدى المشيئة، يتمنون الموت من أجل الحب وصفاء الطبيعة، لكن الغريب في الامر أن من تبحر ومن قرأ لهم او عليهم، اصطفى سمو الجميع في رهط الجاهلية، ولو أن التسمية ترتب مفهومها بعد ظهور الاسلام، الا أن الاعتراف الضمني بأن اولى خطواتهم بدأت في البحث عن المجهول وليس الجهل بما هو معمول، فهو عين الصواب ولو أن كلاهما في تسامي عمق المعاني سواء.

وهنا تكمن عظمة اللغة العربية وغنى آدابها، حيث بدأت من المجهول واستمرت في سبر أغوارها مشاركة معها مئات العقول المبدعة من جميع شعوب المنطقة.

ومغزى هذا السرد هو الاشادة بدور العرب في مواكبة المسيرة الإنسانية بتخطيهم درجات متسلسلة تمر من معلوم كان في يوم ما مجهولاً ليدخلوا في مجهول يراد منه أن يصبح معلوماً.

مهما تكون خطورة الخطوة الاولى فإن أهميتها تكمن في صواب الرؤية و قوة ثباتها في تحمل ماسيتراكم عليها من بناء وما ترسو في مفاصلها من إباء.

فالخطوة الاولى دوماً حبلى بالأُمية، والامية مرض لا تترفع فيه مدركات الإنسان الى مستوى اليقين، الا عندما يتشفى منه ويدخل مع خطوته الثانية عالم المجد، ذلك العالم الذي في مكنوناته قيم الخير والحق و الجمال. لنترك العرب في الخطوة الثانية رابصين، و نلتفت الى أنفسنا لنتعرف على موقعنا في المسيرة الإنسانية، ذلك الموقع المرتبط أصلاً مع الخيوط الانسيابية في النسيج المعرفي للحضارة العربية الاسلامية والذي لنا دور في تكوينه، ولنا أيضاً حصة غير مهملة في نتائجه.

نحن الكُرد مازلنا في الخطوة الأولى نتغازل مع الصديقة العمياء المباغتة (الامية) ، لكننا لم نفلح لحد الان حتى في تسميتها بمفردة تلائم جدلية المعنى الحقيقي بمكانتها و تأثيرها في الخطوة الاولى.

آن الاوان لنقرر ترك العمياء الرابضة في بيتنا، كفانا عناقاً مع قاصرة مقصرة تجهل كنهها وتحاول تجريد الجميع من أصولهم ومعارفهم، صحيح أن الخطوة الاولى ـ دائماً ـ حبلى بالامية وهي توأم وديع للجهل، لكننا لم نتعرف على إسمها بعد، لكي نسقط علاقتنا معها ونودعها كما يفعل الآخرون .

تشكلت لجان لغوية وفنية في منتصف القرن العشرين لإكمال معاملة الانفصال مع الصديقة الامية، وأول أعمالها كان تسميتها بـ(نخويندوارى) أي (لاتعرف القراءة) أو (عدم إتقان القراءة).

تركت الصديقة الجاهلة البيت إلا أن التسمية لم ترق الى مستوى المصطلح العربي (الأمية) في معانيها المفتوحة على أفق التطور الإنساني والكوني لاستيعاب ما يستجد من استكشافات و ابتكارات على جميع الاصعدة ... وعلى سبيل المثال عندما نتوسع في معاني مصطلح الامية نرى أنه يصنف جوانب الجهل حسب تفاعل الإنسان مع التطورات الحديثة التي تضبط وتنظم الحياة اليومية له، ونختصرها كما هو آت:

ـ الأمية الحضارية : وهي جهل الإنسان ممارسة مباديء الديمقراطية وحقوق الإنسان .

ـ الأمية الثقافية : وهي جهل الإنسان بلغة أخرى ماعدا لغته الأم.

ـ الأمية التكنولوجية : وهي جهل الإنسان إستعمال وسائل التقنية الحديثة .

ـ الأمية الأبجدية : وهي عدم معرفته القراءة والكتابة.

هذه الجوانب الرئيسية التي تفصل بين موقع الإنسان المتربط في الخطوة الاولى والمثقل بآهات الجهل و بين الإنسان الذي اجتاز هذا الموقع وبدأ يتخطى سلم التطور الحضاري.

وهنا نتكلم عن التعثر اللغوي الكُردي العاجز عن تصنيف أشكال الامية، لأنه يقتصر على الامية الابجدية فقط (الذي لايقرأ) فما الجدوى من الجوانب الأُخرى التي هي مفاصل أساسية في نشاط الإنسان. لو لم نتمكن من تسمية وتعريف المفهوم الحقيقي

للامية فما بالك بأن يكون في إستطاعتنا تخطي الخطوات اللاحقة في المسيرة الطويلة للحضارة الإنسانية.

من كان بيشمركة المقاومة ومن سيكون بيشمركة البناء؟

من الخصوصيات التي تميزت بها قوة البيشمركة الكُردية دون غيرها من الفصائل المسلحة للحركات التحررية في بلدان العالم الثالث، هي عدم تصنيفهم الجهة المقابلة التي تقاتلها بالعدو، بل تقيمها حسب تعندها في التجاوز على حقوق الكُرد، والفترة التي تعي فيها مخاطر الحرب وإقتتال أبناء الوطن الواحد وتعود الى صوابها لتبدأ المفاوضات فصُلح فإتفاق فمراوغات فمناوشات وهكذا تدور الدوائر المفرغة بإستمرار الى أن توقفت بعد مشاركة الكُرد فعلياً في إدارة الدولة العراقية الجديدة عام(٢٠٠٣).

هذا الموقف المقاوم الغريب للبيشمركة يستحق الوقوف عنده ودراسته على مستويات عدة. وفي خارج إطار المنازعات كانت المقاومة الكُردية تنظر الى العالم القريب والبعيد بعين الصداقة والاحترام، فيتم تصنيف من لهم علاقة بالثورات الكُردية في العراق (١٩١٩ ـ ١٩٩١) بصديق متعاون ومن يقف ضدها بمخطيء وظالم. وربما هذا هو السبب في أن الجماهير الكُردستانية كانت تحترم البيشمركة أجل التقدير، وينظر اليهم الآخرون بإعجاب وتودد... حتى أن أعتى من قاتلهم بعنف وهو الرئيس العراقي السابق صدام حسين يصفهم في إحدى رسائله الموجهة الى رفاقه أثناء ماكان في السجن بعد ثورة (١٤ تموز ١٩٥٨)، حيث يشجعهم فيها على الثبات والتحلي بالصبر و يتمنى لهم أن يصبحوا بيشمركة العرب.

أما بالنسبة للجماهير الكردستانية فإنها كانت تتقاسم لقمة العيش مع بيشمركتها و توفر لهم كل ما يحتاجونه، بل وتغامر بأرواحها من أجل إنجاح مهماتهم العسكرية او

التنظيمية، فما كان من البيشمركة إلا أن يردوا الجميل بأحسن مما يتصوره العقل. هناك شواهد كثيرة على تلك المميزات النادرة التي اشتهروا بها، على سبيل المثال لا الحصر: (كان أحد البيشمركة، مثل كثير غيره، يؤدي واجبه خلال شهر وفي الشهر الذي يليه يعود الى البيت ليؤمن قوت عائلته، تتكرر الحالة كالمعتاد .. وفي إحدى المرات أثناء ما كان في طريقه للالتحاق بمقره، حاصرته قوة من الجيش .. لكنه لم يستسلم، بدأ القتال ضارياً، تكبدت القوة خسارة فادحة وبعد أن نفدت ذخائره وقع في الأسر، ولشدة حقد آمر القوة عليه وغضبه من هول الخسائر، هاجمه عاضاً أذنه اليسرى وقطعها، لم يأبه البيشمركة على ذلك الفعلة الجبانة بل أعطاه الثانية فما كان من الضابط إلا أن انهار ووقع مغمياً عليه، تدخلت المجموعة المتبقية من القوة فقتلت الأسير ونقلوا آمرهم الى المستشفى).

وهناك أمثلة كثيرة لا تحصى ولا تعد، لكننا لسنا ـ هنا ـ بصدد ذكر الشواهد و البراهين عن مكانة وأخلاق وتضحيات البيشمركة، لأن موضوعنا منصب على تحليل روح المقاومة عندهم التي تشكلت أصلاً من رد فعل الكُرد ضد المشاريع التي كانت تسلب منهم الهوية القومية والارادة الإنسانية المتزنة، وتُغير طوبوغرافية الوطن، تبخل عليهم بأبسط حقوقهم الثقافية. فكان صوت التحدي والرفض مدوياً في ربوع الوطن متمثلاً في الطلقة الواعية للبيشمركة.

بعد أن تشكلت حكومة أقليم كُردستان، تحولت مهمة البيشمركة من قوة شعبية دفاعية الى مؤسسة عسكرية قتالية وضمن ضوابط متفق عليها دولياً، وهذا هو الفيصل الحاسم بين مرحلتين من تأريخ الحركة التحررية الكردستانية : مرحلة المقاومة و مرحلة البناء. فإذا كانت في المرحلة الاولى يتوجب حضور البيشمركة روحاً وجسداً، فإن المرحلة الثانية تتطلب فيها ضرورة تواجد روح (البيشمركايتي) في تشريع القوانين و فلسفة إدارة الحكومة ودقة الاحصاء وعلمية التخطيط وفن الاداء.

وبهذه الطريقة وحدها، تستمر المسيرة التحررية الكردستانية وتأخذ طابعها الحضاري المتكامل خطوة فخطوة، ومن خلال القوانين الحية والفلسفة اليقظة والادارة المتقنة في أداءها تتسلل روح (البيشمركايتي) الى عقول الموظفين وسواعد العاملين في القطاعين الخاص والعام... و تبدأ المرحلة الحقيقية التي تطغى فيها روح المبادرة على الابتزاز، والايثار محل الفساد، والمحبة بدلاً من اللؤم، والاحترام مكان التسلط... فيشارك الجميع كل حسب قدراته وارادته في بناء الوطن... وهكذا يحصد كل واحد على ما جد وما ثابر، ومن جذع هذه الشجرة تتفرع جميع مهمات الحكومة وأعمال المواطنين الصالحين وما أكثرهم لو عرف الحق صاحبه.

الحقيقة الضائعة في كنف المعادلات الصعبة

يقول المسرحيون : ليس هناك دور كبير ودور صغير في الاداء المسرحي، بل هناك ممثل كبير وممثل صغير، فالاول يبدع أينما كان والثاني يفشل كيفما عمل. أما العسكريون فإن لسان حال خبرتهم المهنية يقول : ليست هناك معارك كبيرة ومعارك صغيرة ، بل هناك معارك مناسبة ومعارك غير مناسبة. ويقول العشاق ليست هناك نساء جميلات و نساء غير جميلات، بل هناك من يستطعن أن يتربعن على عرش قلب رجل يحببنه و أخريات ليست لهن القدرة على ذلك.

في المعادلة الاولى، تظهر أهمية أداء الإنسان في الدور المنوط اليه والذي ينسجم مع قدراته الذاتية، وفيه يصبح جزءاً فعالاً في كيان أكبر، ويعمل حسب تنسيق متناغم مع الاجزاء الأُخرى التي تشاركه في الاداء و تنشطه في العمل ... والفكرة ـ أصلاً ـ هي خميرة تجربة عبقري المسرح الروسي قسطنطين ستانسلافسكي في الفن والحياة على حد

سواء. وما الحياة إلا مسرح كبير تؤدي فيه المجموعات والافراد تلك الادوار المهمة كل حسب قدراته وما تناسبه خبرة الاداء.

في المعادلة الثانية، تحسم المعارك المناسبة ـ دائماً ـ بإنتصار الجهة التي تتقن التخطيط العسكري، وتقنن التعليمات، وتتفنن في الاداء، وتقيم النتائج حسب مصلحة الجانب الذي يحافظ على أمن المواطنين ويعمل جاهداً في درء الخطر على المدنيين ويبادر في إرساء القانون الذي تحفظ فيه كرامة الإنسان .. وهنا تكمن أهمية المعارك التي تكون فيها الطلقة الواعية هي سيدة الموقف والومضة التي تبشر بإنتهاء الشر، وهي أصلاً خلاصة تجربة الدول الديمقراطية التي تتبنى فيها القوة العسكرية سلامة الحدود الخارجية وتتكفل الشرطة المتدربة تأمين حياة المواطنين سواء بعملها الجاد في مكافحة الاجرام أو بثقافتها العالية في الاسترشاد المنور حول تطبيق القوانين.

بمقتضى الحال، يمكن أن يكون في القول الفصل لمثل هذه التصنيفات شيء من الصواب في نظر البعض، ربما يشك آخرون في صحته ويعتبرونه قولاً أختارته رغبات الإنسان الآنية، او يذهب البعض الآخر الى أبعد من ذلك حينما يعتقدون أنه رؤية سطحية أفرزتها غرائز الفرد المكبوتة.

على كل حال من سحيل ومبرم ... فهذه آراء متناقضة ومسهبة في تعقيداتها، لكنه من الواجب أن نعترف بأن كل واحد منها فيه شيء من الحكمة، وهو الجانب المهم من المسألة التي نحن بصددها، فلو جمعنا هذه النسب في عبارة واحدة لحصلنا على نسيج متناسق يتمنى الجميع أن يحصل على شيء منه.

ومن جانب آخر، يمكن أن نرى تلك العملية بسيطة في معادلاتها وسهلة الاستيعاب لمن يهضمها، لأن النتيجة المستنبطة منها صريحة وواضحة للعيان، حيث يجعل الجميع يرون أنفسهم في صف متواز يعملون في البناء ويشتركون في صنع القرارات التي تهمهم. وفي إنسجامهم يستخلص المتمعن نتيجة منطقية فحواها: إن الجميع بإمكانهم أن يفكروا

بصوت عال وليس هناك من يعطي لنفسه الحق بأن يتجاوز على الاخرين، او يسمح للاخرين أن يمنعوه من معرفة الحقيقة كما يفعل السائح المغمور بحب إستطلاعاته عندما لايسمح لأية شجرة بأن تمنعه من رؤية الغابة.

تهميش المهمشين

قد يستغرب المواطن الكُردي ـ حاليا- من التأثيرات المزرية للتهميش الذي كان يعيشه الكُرد الى ما قبل انتفاضة آذار ١٩٩١، بل من حقه ان يستوعبها على وجه الدقة، لأنه كغيره من الناس الواعين يعرفون التهميش بانه طرح جانبي أو فكرة مساندة تفيد التحليلات الاساسية المراد توضيحها اثناء كتابة البحوث او إعداد الدراسات العلمية، اما ان يناط هذا الدور الى الإنسان فهذا غير ممكن ولا يليق به ابداً. الا ان الكُرد في حينه كانوا مبتلين بداء التهميش المتعمد الى الحد الذي يطيرون فيه فرحا اذا ما تطرقت احدى الاذاعات الاجنبية او صحيفة محلية الى قضيتهم القومية دون ان يبالوا الى كلامها سواء أكان في صالحهم او لاينصفهم بالحق قطعا، كانوا يستمتعون بالخبر الذي يذكرهم او يتذكرهم، حيث كانت اشارة بسيطة من هذا النوع كافية بان تعطيهم حرارة الحركة التي تثبت بقاءهم في الحياة. من المعلوم ان من عاكسه الحظ ووقع في مستنقع التهميش يشتاق ـ دوما- ان يتنفس الصعداء ولو لثوان قليلة ليخرج من ذلك التصنيف الذي يدرجه دون مستوى الإنسان، وهو ما لاتتقبله مبادئ التفكير السليم في كل الشرائع والأعراف.

ولو ان تهميش دور الإنسان قد يفيد الايضاح والتنويه في سرد الاحداث التاريخية وتحليل المعادلات السياسية، الا انه اصبح مفردة غير محترمة في ذاكرة المجتمع الكُردستاني ومصطلحا غير مقبول في قاموسه الثقافي، بل تحول الى عقدة نفسية يعاني منها المواطن

الكُردستاني ومرض مزمن ينخر قواه العقلية والجسمية باستمرار. وربما هذا هو السبب الذي يدفعهم الى الانزواء ومن ثم الى التمرد والانتفاضات.

تمكن الكُرد ـ منذ زمن ـ من تشخيص داء التهميش ومعرفة اسبابه، ولكن لم يعينهم القدر ليشفوا منه تماما، لأن كماشات تسلط شعوب المنطقة ما تزال تشد عليهم الخناق بقسوة، فأستفحلت تأثيراته التي تسربت الى جميع مفاصل الحياة اليومية وتخدرت بها الشرائح الاجتماعية المختلفة. استصعب الامر وتضاعف ثقل الكارثة، لأن صورة العلاج تحولت من المقاومة التحررية لخلاص المجتمع من التدخلات الخارجية إلى تفشي هذا الداء داخليا، وبدا العلاج كمحاولة لإنقاذ الافراد من براثن مرض اشبه بالوباء حيث اعراضه مكشوفة في كل زاوية أو مجال عمل.

فالرجل يحاول تهميش المرأة، والمدينة تحاول تهميش القرية، والمعلم في المدرسة يهمش دور بعض التلاميذ، ويعاني الموظفون من ضغوطات مديرهم الذي يتقن فن التهميش ... وهكذا تبدو روح التسلط في العلاقات الرسمية وغير الرسمية داخل المجتمع تأخذ حالة غريبة ومنفلتة يسهل على المتابع رصدها كيفما يريد وتجسيدها في الصورة الموضحة أدناه: عندما ينظر المرؤوس الى الاعلى يرى الذي فوقه كبيرا، بحيث يصعب عليه التفكير في ماهيته. وعندما ينظر الى ما دونه، يرى الآخرين احجاما صغيرة فلا يكلف نفسه عناء التفكير في ماهيتهم الدقيقة البائسة التي ـ حسب اعتقاده ـ لا تضر ولا تنفع.

استغفر الله، ما هذه التداعيات التي تشبه الغثيان، اتمنى ان اكون مخطئاً وان المجتمع يقطع الخطى نحو مساره الصحيح. ولكن الشيء الذي اعرفه وأثق به تمام التصديق هو: ان الإنسان عندما يودع مرحلة التهميش، فخطوته الاولى تبدأ نحو مجتمع مدني ويدرك فيه انه عضو في نظام مؤسساتي ويعرف تمام المعرفة ان دوره سواء اكان صغيراً ام كبيراً فهو جزء مهم من مؤسسة انتاجية او خدمية. به يكتمل هيكلها وبدونه يتعطل عملها ان لم يعوض بشخص اخر يمتلك ذات مواصفاته وهكذا فالإنسان المعافى من مرض التهميش

يرى نفسه حراً في إرادته وواعياً في صنع قراراته الشخصية ومبادراً فيما تكفيه روح التطوع التي لاتتعارض مع واجباته المحددة حسب القانون، بل تتفاعل ايجابيا مع حقوق الاخرين. فهل حقا ودعنا التهميش من دون رجعة، ام مازلنا في طياته غارقين؟.

الخطوط الامامية
والخطوط الخلفية

الخطوط لها معان عدة واتجاهات مختلفة وانواع كثيرة ومجاهيل غامضة، واصعب حالاتها المعقدة هي التي تتعلق بالعلم، ففي التقاءاتها تتكون الزوايا وفي التواءاتها تتكاثر الرموز، وعندما تتجزأ تبدأ مسألة توليد النقاط وكيفية اتحادها.. حقاً انها أمور صعبة ومعقدة وغير معنية بمدارك القاريء غير المتخصص أصلاً، الا انها ضرورية في الدراسات الجادة على المستوى الاكاديمي، ولبنة اساسية في بناء الإنسان على المستوى الحضاري.

قد يتعجب المرء من ليونة أمر في غاية الغرابة وهي: بعدما تترسخ أسس الحضارة في المجتمع يكون التعامل مع الخطوط شيئاً في غاية البساطة، وخاصة في تقييم النتائج وجني الفوائد، حتى انه يتحول احياناً الى حالة لطيفة تجلب الاستقرار النفسي وراحة البال في حدودهما القصوى، وكأن صعوبة صنع البدايات وسهولة معرفة النهايات شرح مبسط للمثل القائل (بالمذاق تعرف جودة الحلوى).

لكي نترك مذاق الحلوى وعافيتها قليلاً، ونبتعد عن العلم وتفاصيله خطوات.. ونتقرب مما يحصل الإنسان من نتائجهما المتعلقة بالخطوط والمفيدة له في الحياة اليومية: فالخطوط الجوية هي مفخرة الرفاه الاجتماعي، وخطوط السكك الحديدية ملاذ للسفر السياحي، والخطوط البيضاء في الملاعب حدود لعنفوان اللياقة وقوة التحدي، وما

الخطوط الرفيعة على حواجب الحسناوات وماتتلملم على وجناتهن من اشعاعات قرمزية الا عنوان للجمال الابدي.. وهكذا تستمر المزايا الجيدة والسعيدة للخطوط الى ان توصل الى خطوط الطول والعرض التي يرسمها التلميذ المبتدىء على خارطة الكرة الارضية في المدرسة.

بدأت الخطوط في العراق ـ وخاصة في العقود الثلاثة الاخيرة- تأخذ منحى آخر، حيث اختصرت كل معانيها وتفاصيلها واستنتاجاتها في مصطلحين عسكريين اثنين هما: الخطوط الامامية والخطوط الخلفية في جبهات القتال: فالذين في الخطوط الامامية يتحملون المتاعب وفي الوقت نفسه يكونون ضحية اول هجوم يشنه العدو، اما من يكون في الخطوط الخلفية، هم الاساس والعقل المدبر للعمليات التي تحسم نهاية المعركة وازدادت أهمية هذه الخطوط عندما أصبح كل الشعب جنوداً وشعارهم الاول هو (كل شيء من أجل المعركة).

تجذرت هذه المبادىء العسكرية في ضمير الامة وحيثيات العمل المدني لابنائها سواء في التخطيط او الادارة او الاداء اليومي للعاملين، ففي اية مؤسسة نرى ان تحضير الاوليات وتخطيط الاسس وتقاسم النتائج تبدأ في الخطوط الخلفية لها، بينما العمل المباشر في التطبيق وتمشية الامور الآنية تتمركز داخل المؤسسة ويصبح القائمون بها كجنود مجهولين مثابرين في الخطوط الامامية يعملون حسب توجيه مبرمج يستمد قوته من طبخات يتم اعدادها خارج المؤسسة المذكورة، ويكون البديل الشرعي للنظام الحقيقي الذي تُبنى وتقنن عليه المؤسسة أصلاً.

هكذا توغلت أسس الحرب الى الحياة المدنية واصبحت قيم القتال مبادىء يسير عليها المجتمع، وتتبنى المؤسسات الخدمية والانتاجية في تخطيطها ومراحل عملها على ثوابت تعتمد اساساً على الخطوط الامامية والخطوط الخلفية والتي كانت تقام في ساحات الوغى

بشراسة، تحولت تدريجياً الى معارك باردة وصارمة تجري في مفاصل الحياة المدنية وبكل احترام وتودد.

في هذا الخليط المختلف الابعاد، لايرتاح بال جميع منتسيي المعسكرين بدون استثناء، لان الاصوات التي كانت تهز الكيان الإنساني في ساحات المعارك، تتفجر الان داخل اعماقه تؤذي ضميره وتجرح مشاعره وتقتل عواطفه بل وحتى تشل غرائزه في بعض الاحيان.

ومايهمنا في هذا السرد الاستنباطي هو الامساك برأس الخيط الذي يربط بين هذا النظام العسكري الموغل في الحياة المدنية والمنبع الحقيقي للفساد الاداري المتفشي داخل البلد حالياً، حيث يئن الجميع من ويلاته ويعاني الكل من مساوئه، فلا لأحد ذنب فيما يجري وكأن السبب الرئيس خافٍ على الملأ، لكن الحقيقة الماثلة للعيان ـ حسب اعتقادنا- تبدأ من النقطة التي تكاثفت واتحدت واصبحت خطاً ومن الخطوط بدأت الكارثة.

ونستنتج من كل ذلك فكرة بسيطة مغزاها: (ان الخطوط الامامية والخطوط الخلفية هي التي جلبت علينا المصائب والتخلي عنهما هو المفتاح الذي يرشدنا الى بداية الطريق و توصلنا الى المجتمع المدني الذي يصبو اليه كل مواطن يتمنى ان يكون عنصراً خيراً في بنائه).

التعيس الذي لا يجامله الحظ

هناك من يغمره التشاؤم ويحسب نفسه عديم الحظ، ويبالغ في شكواه من دون جدوى، حيث يقول الكُرد في حق أتعس المشؤومين بأنه "لما يأتيه الرزق ينفر منه الجاه، ولما يحالفه الجاه يتركه الرزق، ولما يطرق الاثنان معاً بابه فلسوء حظه هو خارج البيت".

قبل ثلاثة عقود أو أكثر بقليل كانت مدينة أربيل تتباهى بصالات السينما الموجودة فيها لكنها ـ في الوقت نفسه ـ تبكي حسرة لعدم وجود أفلام كُردية تعرض فيها. وبعد عشرين سنة أو أقل بكثير بدأ الفنانون الكُرد بإخراج أفلام من صميم معاناة شعبهم، وبلغتهم الأم. وبإمكانيات ذاتية ورساميل كُردية ١٠٠٪ . ابتسم لهم الحظ وخطت معظمها طريق المجد، حيث بدأت تشترك في مهرجانات عالمية وتحصد الجوائز التقديرية ومن ثم تعرض في صالات كبريات مدن العالم . .

من سوء الحظ فإن الباب أمام تلك الأفلام مغلق في كُردستان وخاصة بأربيل العاصمة لعدم وجود صالات عرض أغلقت ـ في الاونة الأخيرة ـ أبوابها لأسباب يعتقد على الأرجح ان تكون اقتصادية بحتة، مما تضطر تلك الأفلام ان تتسلل إلى الشاشة الصغيرة وذلك لتلافي المشكلة وتلبية مطالب الجمهور.

يبقى التساؤل المنطقي غير المحظوظ في هذا الصدد: "عندما كانت صالات عرض سينمائية موجودة في أربيل لم تكن هناك أفلام كُردية ولما وجدت أفلام كُردية غابت الصالات، فيا ترى ماذا لو استعادت ـ يوماً ـ الصالات السينمائية في أربيل عافيتها واستقبلت أفلاماً كُردية، فأين يكون أهل البلد؟ هل في استقبال الموضة الجديدة، أم مشغولين خارج الدار؟ كما هو حال ذلك التعيس الذي ضحك عليه الجاه والرزق معاً".

الهوية الرقمية وإيجابياتها

تهتم وسائل الإعلام في اقليم كُردستان العراق بنقل الأخبار التي تتعلق بتجاوزات دول الجوار على حدود الوطن. وسواء أكانت التغطية تؤخذ مباشرة من الناطق الرسمي للحكومة، أم يتم إعدادها عن طريق المراسلين والموفدين الصحفيين الى مكان العملية

العسكرية، فإن القنوات الإعلامية في كلتا الحالتين تدخل في تفاصيل دقيقة عن نوع التجاوزات وحجم الخسائر البشرية والمادية الناجمة عنها.

وعندما تكبر التجاوزات الى الحد الذي يهدد أمن الاقليم كقصف القرى وحرق المزارع، فإن الإعلام وخاصة القسم المرئي منه يفرط في تضخيم الخبر واعداد الريبورتاجات والتقارير عنه، وهذا هو عين الصواب في اداء الواجب والإبداع فيه فنياً وعلمياً ... ومهنياً في الجانب الآخر من هذه المعادلة المعقدة والحساسة، هناك أمر لا يحسد عليه، وهو غياب دور الجهات الرسمية ذات العلاقة المباشرة بالموضوع، حيث لاتسجل هذه التجاوزات في بيانات متسلسلة ومفصلة، لكي يكون لكل تجاوز هويته الرقمية وكل رقم تفاصيله العددية، وتكتمل في مرفقاته قوائم تتكلم عن حقائق إنسانية وإحداثيات عسكرية ولتصطف أخيرا في رفوف المصادر المعتمدة للدبلوماسية الكُردية.

إنقسام فإنشطار فإختلاف فإتحاد

الحب ليس عيباً، بل العيب ألاّ يتبنى الإنسان رسالة المحبة. والتوغل في خفايا الامور ليس نقصاً، بل النقص ان يكون الإنسان سطحياً بحيث يتضوّر جوعاً عندما لاتكفيه فتات القشور ليسد بها رمق الحياة.

وفي ضوء هذين المبدئين البسيطين نستطيع ان نحدد الجانب الحضاري من حياة شعبنا الكُردي ونحلل مفردات تأريخه المعقدة عبر عصور متسلسلة من التخلف ومراحل مترابطة من المظالم، فنرى خدماته الإنسانية متجذرة في الاعماق، وعندما يعيش كفرد فأنه يعشق الحياة حد الجنون، وعندما يكافح كشعب ينخره (الانقسام) و(الانشطار) و(الاختلاف) حد الموت.

مابين الحياة والموت مسافة قصيرة جداً، يشعر بها الإنسان المتواضع في ثقافته جلياً، فتدهشه علامات استفهام البدايات، وتبهره مفاجآت النهايات، ومابين النقطتين مسار قاس، في محطاته تتناوب الشعوب المغلوبة على امرها أدواراً من دون تسلق، ومواقع من دون تألق، بل ذهاب في ذهاب وهذا هو المجرى العميق للتأريخ البشري الطويل.

ونحن الكُرد مثل كل الشعوب المغلوبة، لسنا بعيدين عن هذه المعادلة، بل مازلنا نختزل الجنون في ومضة المغامرات، ونتباهى عندما نتحدى سنن الحياة، وكم يروقنا ان نحيا في حافات المراحل التي تشرف على النهاية، ونأبى ان نعيش في حمى الخطوات التي تشرق عليها شمس البداية.

لماذا يخجل المواطن من تأريخ شعبه، ويخاف الشعب على مستقبل مواطنيه..؟ ربما يعود السبب الحقيقي لمثل هذه التساؤلات الى جملة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، والتي يمكن من خلالها ان نفهم حقيقة اخرى وهي: لو اتحدت مفردتا (الخجل) و(الخوف) في مصطلحات دقيقة وفي الوقت نفسه مؤثرة في حياتنا كمواطنين وفي مسيرة تأريخنا كشعب، ولو امكننا، ايضاً، ان نؤطر تلك المصطلحات في عناوين بارزة تكمن وراء افكار مستنبطة من المصطلحات نفسها والتي ذكرناها في مستهل كلامنا هي: (الانقسام، الانشطار، الاختلاف)، ولو انها غريبة في معانيها التكوينية الا انها عظيمة في شأنها التأثيري، غير انه من الممكن ان تتمخضَّ عنها نتائج جديدة، بحيث يراها البعض انها مفاتيح لازدهارهم الحضاري، ويرى فيها الآخرون انفسهم خاسرين في كل معادلاتها المعقدة والتي يبنى على اساسها مستقبل منطقتنا، ومن ضمن هؤلاء نحن الكُرد فنرى أن:

- الانقسام، مرض قاتل تسبب في تجزئة الوطن الى الحد الذي افقده أمل استرجاع عافيته على المدى المنظور، ومما يصعب على الكثيرين ممن ناضلوا في سبيله ان يصدقوا انه سيتحد في يوم ما.

- الانشطار، حظ عاثر تهشّم في بروز تكتلاته في لغتنا الجميلة الى الحد الذي يصعب عليها التكامل.

- الاختلاف، صراع مرير ضاع في دهاليزه دور الطلائع الواعية الى الحد الذي اختلفوا في منظومتهم الفكرية، مما فقدوا السيطرة على زمام أمورهم، فلم يستطيعوا ان يستقروا عند حدود الذاكرة التي ترشدهم الى شاطىء الامان.

هكذا اعتقد الكثيرون والى وقت قريب، بأن هذه المصطلحات الثلاثة المشؤومة أعلاه هي الاسس المثبتة والتي يمكن ان تعزز الاتحاد بين كيانات مختلفة دون ان تمس خصوصيات أي واحد منها بسوء او تقلل من قيمته.. لان القاسم المشترك الذي يستمد الجزء قدرته من الكل وينهل الكل طاقته من الاجزاء هو: القوة الهائلة التي تتولد من خلال منظومة العلاقات المتداخلة بين الاجزاء وتمثل هذه القوة أيضاً الشكل العام والمضمون الكامل للوحدة المقدسة التي نسميها (الوطن).

من هنا يظهر ان الذين رأوا في المصطلحات الثلاثة (الانقسام، الانشطار، الاختلاف) أسساً للاتحاد كانوا على صواب تام، فمن اتحاد مجموعة افراد حرة تتكون الاسرة، ومن مجموعة الاسر المستقلة تتكون القرية، ومن مجموعة القرى المتعاونة تتكون المدينة، ومن مجموعة المدن المتكاملة تتكون الدولة.

والشيء الذي يهمنا في حركة هذه الشبكات المعقدة من العلاقات المتداخلة هو الانبعاث الذي تقدح منه الشحنات الابداعية التي توفر العيش الرغيد للمواطنين وتدفع بالمجتمع الى الامام.. ولأجل ألاّ نتخلف عن ركب ذلك التقدم، علينا اولاً شد الاحزمة.. ولنا مع الخطوات الأُخرى أحاديث ذات صلة.

يغير الشعر لونه وكذلك الدولة

ليس كل كلام موزون شعراً، ولايلزم في الشعر ان يكون مقيداً بالاوزان العروضية دوماً، ولكن مايستوجب في الشعر او في غيره من فنون او آداب او أفكار او أي نشاط معرفي جاد يتحتم فيه اولاً ان يكون متزناً قبل كل شيء، ومن ثم تأتي الاسس المعتمدة والعوامل المساعدة في تكوينه الى ان تثبت هويته وينضج تأريخه كورنولوجياً، لان الاتزان هو محور كل جهد اتحادي بين رموز او صور او افراد سواء أكانت على شكل مجموعات متداخلة ام متجسدة في كيانات مستقلة.

لما كان كلامنا في هذا المنحى منصباً على الشعر، والشعر ليس مأرب الجميع، او حتى رقماً بسيطاً يشغل حيزاً في قوائم فاتوراتهم اليومية، لذا يفرض الواجب علينا ان نقدر آراءهم ونحترم توجهاتهم مهما بلغت درجة الاختلاف بين مايصبون اليه ومانعتقده نحن صواباً في دقة وجهة نظرنا للمسائل التي تهم المجتمع من الصميم، وتصنع سحر الشعر وجماليته الكونية من اولويات الفكر المبدع في بناء الحضارة الإنسانية.

وهنا يلح علينا عنفوان الضمير ان ندخل معترك الحياة من اوسع ابوابه ونفهم ثقافة العصر بشعابها ومصادرها وفروعها، لكي يسهل علينا تحليل الحقائق قبل الحكم عليها وعلى مصداقيتها.. ومن بساطة هذا التوجه البدائي ندخل في حوارات جادة مع من نختلف معهم ليس في الرأي فقط، بل في تحليل المسلَمات ايضاَ، ومن اطراف جدليات تلك الحوارات نتفهم امراً آخر في غاية الاهمية وهو: ان اختيار الرغبات الفردية وتحديد الاحتياجات الشخصية ـ في هذه الايام- بات من الامور الحساسة والملحة في حياة الإنسان، مما يتطلب عند الاقدام على مثل هذه الخطوات، مراجعة بديهيات ومعتقدات كثيرة ومناقشتها ودراستها وتقويمها لكي تكون النتائج المرجوة دقيقة وفي الوقت نفسه ايجابية على المدين الآني والمستقبلي على حد سواء.

في خضم تجليات مبادراتنا المتبادلة لترسيخ أسس ثقافة وطنية، ندرك أمراً آخر يدخل في لب موضوعنا عن الشعر وألوانه وهو: ان التقويم الحديث يختلف عما كان ينظر اليه في السابق، فبدلاً من التقديرات والايحاءات والتخمينات والتكهنات، باتت العينات والاستفتاءات والارقام ووحدات الاوزان والاحجام هي الفيصل الحاسم لتحديد ماهية الاشياء وان اختلفت الرؤى في هذا الاختبار او ذاك، الا ان المقياس المرغوب في أي منها يتوقف ـ دوماً - على دقة الشيء المقاس وتأثيره في العمل ومدى فائدته لصاحبه او المجتمع.

من هذا المنطلق نعود مرة اخرى الى مسألة الشعر مع مافيه من تنظيرات في مدارسه المختلفة ومع مايتمخض في دراسات نقاده المقارنة، حيث كان في يوم ما سيد الانواع الأدبية وصديقاً حميماً للانسان سواء أكان مثقفاً مبدعاً ام شبه متعلم ام حتى أُمياً، الا انه كلما تطور الشعر وزاد تفننه في مجاملة خيال القراء ودغدغة احاسيسهم واصطفى نفسه كعنصر عاطفي خالص زادت الهوة بينه وبين محبيه وقلل عددهم الى حد التلاشي في بعض الاماكن التي يكون العلم او الجهل فيها سيد الموقف وبغياب العلم المجرد او الجهل المركب يعود الشعر الى الواجهة بقوة.

حقاً انه أمر محير ومدعاة الى تساؤل مشروع، وربما يكمن جوابه في طيات أفكار جرفتها عواصف العولمة منذ زمن، ولكنها بقيت متعلقة في اذهان كثير من الناس الذين يريدون التشبث به مهما بلغ الثمن، ومن هنا تبدأ الصراعات الطائفية والمذهبية والاثنية خارج الاطار الدستوري للبلدان المستقلة.

أين موقع الشعر في قاموس المجتمعات التي تدعي المدنية وتريد ان تكون جزءاً من الحضارة الإنسانية وفي الوقت نفسه تعجز عن ان تربي مواطنيها على الخبرة التكنولوجية والثقافة العصرية المتمثلة بالمبادىء والاسس الديمقراطية، وخاصة عندما تتعثر في تطبيق برامجها السياسية، فيفقد المواطن اتزانه في تشخيص نوعية الواجبات وتحديد مديات

الحقوق، ويخسر الشيء الكثير من وعيه في الانتماء الجمعي، لذا يختل ميزان وطنيته مع روح القوانين التي كان من المفروض ان تلتزم بها الدولة على المستوى المحلي طوعاً وتتباهى بها على المستوى العالمي توجباً.

حول مسألة نمو التفكير البشري في الاقليم

تحدث في الاقليم حالياً ثورة كمية هائلة في مجال العمران والفعاليات الفنية والأدبية، وكل منها في حد ذاتها انجاز كبير يعتز به الكُردستانيون على المستويين الداخلي والخارجي.

من المعلوم ايضاً ان الانجازات الكبيرة تخلق تساؤلات اكبر من حجم الانجاز نفسه، وتفرز مضاعفات اكثر تأثيراً من مزاياه التي لاتخلو من المساوئ ايضاً، وبين التساؤل والتأثير علاقة جدلية تبنى على التفكير الذي يقود الانجاز اياً كان نوعه ويرشده متى تم احرازه.

ولو قارنا انجازات حكومة اقليم كُردستان من الناحية الكمية الخالصة، مع ماكان ينجز قبل تشكيلها عام ١٩٩٢، وقاد بنا الفضول الى بداية القرن العشرين اي خلال حكم العثمانيين والبريطانيين والملكيين والجمهوريين، لتبين لنا جلياً ان معدل النمو خلال فترة حكومة الاقليم قد تسارع بشكل مدهش، ويصعب مقارنة هذين العقدين من الزمن مع العقود الثمانية السابقة.

لاتهمنا هذه الاحصاءات الفرضية، بقدر مانهتم بالخط المتوازي الذي ينمو فيه التفكير البشري مع النمو العمراني في البلد، فالمقارنات المتزامنة أفضل وانجح من المفارقات المتبادلة التي يفصلها الزمان بين الاشياء حتى وان كانت من صنف واحد.

اذاً فالتوازن بين كمية الانجازات العمرانية التي تعتمد على موازنة ضخمة مولة لها، وبين كمية المعرفة البشرية المحركة لتطورها هو المعادلة الحقيقية التي نراها تلائم وضعنا الجديد سواء على المستوى الاقتصادي او الاجتماعي او السياسي وحتى على المستوى الثقافي ايضاً.

من أجل ان ينصف المرء في تقدير النتائج المترتبة في طرفي تلك المعادلة الصعبة، من الضروري ان يعتمد على احصاءات دقيقة، ولكن مع عدم وجود تلك الثروة المعلوماتية ـ حسب اعتقادي- في الوقت الحاضر والتي تفي هذا الغرض، نضطر ان نعود الى احصاءات فرضية مستنبطة من الافرازات المتنوعة التي تقذفها مكونات طرفي تلك المعادلة في وجه المواطن الكُردستاني الذي يهمه نجاح نتائجها وفي الوقت نفسه يقلقه ضمان مستقبل تطورها المتوازن في الاقليم.

مساورة القلق علامة بارزة في صدق التوجهات الجادة التي تسعى الى بناء الوطن وسعادة الشعب، لذا من الضروري ان نبحث عن مصدر ذلك القلق ونحلل العوامل المساعدة لاستفحاله في العقل الكُردستاني.

قد يسهل علينا ان نحصل على احصاءات تقترب من الدقة حول المشاريع العمرانية والخدمية، لكن يصعب علينا التكهن بأي نوع من التقديرات المخمنة حول نمو التفكير البشري في الاقليم، لذا نعتمد على بعض النماذج العالمية التي توصل اليها علماء محترفون نتيجة ابحاثهم الاختبارية والتي تعطي نوعاً من المصداقية على الحالات المماثلة في المعادلة التي نصبو الى معرفة نتائجها.

في كتابه (كيف نفكر) يصنف المربي والفيلسوف البريطاني (جون ديوي) التفكير الى اربعة اصناف ابتداء من الاعمال العقلية المبسطة وانتهاء الى النشاطات العقلية المعقدة وعلى الشكل الآتي:

- التصورات العابرة او كل مايمر في الذهن من دون ان يدوم او يؤدي الى نشاط عقلي آخر.

٢- القصص التصورية والخيالية والحوادث التي لها استقرار وتتابع في الذهن ولكنها ليست حقيقة مقبولة.

٣- والنوع الثالث من التفكير هو الاعتقاد بالشيء الذي لايحتاج الى برهان او اثبات او يحتاج الى قليل من ذلك، وتكون هذه الاعتقادات عادة مقبولة بدون اي شك او ريب باعتبار انها مثبتة، وفي هذا النوع من التفكير خطر نشوء الاوهام والخرافات والتعصب والتحيز.

٤- التفكير التحليلي وهو أقوى انواع التفكير اذ يتطلب تحليل العقائد والمشكلات والحقائق قبل الحكم عليها وعلى صحتها.

هذا مايقوله جون ديوي واقتبس منه د.حسين آل ياسين في مدوناته، ويعتمد المربون وفلاسفة التربية عليه ايضاً.. ولكننا نراه في هذا السفر القصير نبراساً لتحديد نوع التفكير الجمعي الموجود في الاقليم، ولو اهتدينا الى درجة الصنف المتبع فيه، لأدركَنا الحظ في معرفة نمو التفكير البشري ايضاً والذي هو الطرف المجهول في المعادلة الصعبة لتجربة اقليم كُردستان العراق حيث يحاول الكثيرون الاطلاع على تفاصيلها والمشاركة في اغنائها.

موازنة الأسرة

يقال ان المال فيه من الإغراء ما يجعل الإنسان يهمل ما عز عليه وما أحب، لكن التجربة هي التي تعلمه ان كل الاغراءات ليست في المستوى اللائق، وقد يكون أحلاها علقما تذوب فيه الحياة، وأمرها يقطر عسلا في يوم ما.

يقول احد الذين لم يفن كنوزه من القناعة بعد، ناصحاً المبذرين والبخلاء في خطاب واحد موجهاً اليهما بصفعة واحدة أقعدهم في وضع مؤدب وأذنين صاغيتين : (يا معشر البخلاء والمبذرين اسمعوا وعوا، فانا اضع المال تحت قدمي لترتفع قامتي وإياكم ان تضعوه فوق رؤوسكم، فإنه ينزل بكم الى الحضيض).

وما بين الاستسلام للمال ام التحكم فيه يكمن امر غريب يهم جميع الناس دون استثناء وهو تنظيم الموازنة المالية سواء على مستوى الأسرة ام المؤسسة ام الدولة. فالحصول على المال امر سهل لكن حكمة الإنفاق وخبرة التدبير هما جوهر التفكير السليم والاقتصاد المتزن. ومن الأفضل ان يكون التعامل مع الإنفاق والتدبير مرناً وشفافاً الى الحد الذي يفهم فيه الأطفال فقرات موازنة الأسرة، والعاملون يفقهون بنود التخطيط ومواد الصرف في موازنة المؤسسة، وكذلك يعي المواطنون كم هو معدل دخل الفرد وما هي تفاصيل ايرادات ومصروفات الدولة.

لاتتوقف شؤون الموازنة على الايرادات والمصروفات فقط، بل هناك ركن ثالث لايقل أهمية عنهما وهو التوفير، لأن الادخار هو القوة الدافعة التي تدفع رصيد الأسرة الى مستوى الاطمئنان على مستقبل اولادها، وترشد المؤسسة على ضمان وديمومة مشاريعها، وتفتح آفاقا رحبة أمام نظام تسعى اليه الدولة في سبيل رخاء وسعادة أبنائها.

رغم بساطة هذه الأفكار السهلة، إلا أنها في غاية الأهمية عندما تكون حسب تخطيط مبرمج تبنى عليه حياة الأُسر والمؤسسات والدولة. وكلما تطور النظام المحاسبي في المستويات الثلاثة أعلاه واستوعبها المواطن زاد وعيه في المجالات الاجتماعية والسياسية والثقافية وبدأ عليه واضحة شروط المواطنة الصالحة التي تتباهى بالانتماء للوطن والمحافظة على ممتلكاته والعمل على تقدمه، لذا نركز هنا على النقطة الاولى التي هي

موازنة الأسرة والمبنية على حسن تدبير المصاريف التي يجب ان تكون نسبتها أقل من المردود المالي والذي تستحوذ عليه الأسرة سواء رب العائلة او الزوجين معا.

يمكن ان يعتمد الزوجان في تنظيم ومتابعة موازنة الأسرة على البرامج المسجلة في الكومبيوتر. يدونان الايرادات كلها من راتب شهري او عائد استثماري او مكافأة لعمل أضافي ... وفي الجانب الآخر يسجلان ما يصرف على المشرب والمأكل والملبس وفاتورات الخدمات وأجور التعليم ومجالات الراحة والاستجمام ... وهنا تأتي أهمية إتباع المسلك السليم في التدبير المنزلي والذي يعتبره الكثيرون (ثقافة الأسرة) لأن العوامل المكونة لها والأسس التي تعتمد عليها هي في درجة عالية من الدقة في الذوق والاطلاع على ما يستجد في العلم وهما الممولان الأساسيان في تربية الأطفال والحفاظ على صحة العائلة.

مشاركة الأبناء مع الوالدين في مناقشة تخصيصات موازنة الأسرة خطوة مهمة في التوعية الاقتصادية وترسيخ الثقة المتبادلة بين الوالدين والاولاد، ويكون الجميع على معرفة تامة بالسقف المالي الذي يحدد تلبية رغباتهم واحتياجاتهم الشخصية. في هذا الانسجام العائلي تتسع دوائر خبرة الأطفال في اتخاذ القرارات الصائبة وكذلك اختيار السلوك الصحيح في ادارة المنزل مستقبلا. ومن هذا المنفذ الطبيعي تدخل مبادئ الديمقراطية في بناء شخصية الإنسان وتصبح له مسلكاً اعتيادياً ومن دون تكلف. وأخيرا فان تدبير موازنة الأسرة وتيسيرها بشكل صحيح هو الخطوة المنهجية الاولى للدخول الى موازنة الدولة.

ما الذي يجمع بين الثقافة العلمية والثقافة الأدبية؟

التوعية الاقتصادية ركن أساسي في ثقافة الفرد، لكن البحث عن الفرد المثقف ليس بالأمر السهل وخاصة في المجتمعات المتخلفة اقتصادياً. وتهميش الاقتصاد نفسه أمر

صعب ايضاً ولكن العيش في هامش الاقتصاد أصعب، وتزداد المصيبة ألماً، عندما ينطق المثقفون بإسم البائسين ان الدنيا تنعم خيراً لانهم اجتازوا درجة خطورة الفقر وابتسم لهم الحظ فأمنوا مستلزمات العيش الرغيد، وبدا باب المستقبل امامهم مفتوحاً على مصراعيه واصبحت المسافة بينهم وبين الطبقات المسحوقة بعيدة الى الحد الذي لا تربطهم وشيجة سوى صوت الثقافة، وهذه الثقافة خالية من الثروة المعلوماتية الهائلة للاقتصاد، لذا تجهل او تتجاهل تدابير الادارة وارشاد الصرف، وتبقى اسيرة اهمال متعمد من لدن ذوي الثقافة العلمية، وحالة منسية عند اصحاب الثقافة الأدبية واصدقائهم المتنورين بقبس العواطف الجياشة... وفي الحالتين هناك نقص غير محتسب في النسيج الثقافي العام للمجتمع، لم تع له منظمات المجتمع المدني او المؤسسات الرسمية المعنية بالتخطيط، وغابت عنهم تلك المساحة الخصبة التي تترسخ فيها اسس التفكير الراقي وتتنامى عليها عوامل الثقافة العضوية وهما حالة متداخلة واحدة تعرف بـ(الانتعاش الاقتصادي).

هنا يستوجب الاعتراف ولو ضمنياً بأن الاقتصاد المتكامل سيبقى مركز الثقل الذي تتوازن عليه الثقافتان العلمية والأدبية، وان التوعية الاقتصادية تبدأ علماً في التفكير الذاتي للانسان وتنتهي كممارسة مستحبة في سلوكه اليومي.

ينهل هذا الجانب الثقافي الجامع مبادئه وأسسه من التربية الأُسرية، وهي بدورها نشاط اجتماعي معرفي تشترك في فعالياته المدرسة والبيت معاً وتعملان في خط متواز سعياً منهما لتدشين فلسفة اجتماعية ـ تربوية يتحقق في تطبيق اهدافها بناء شخصية المواطن المتزنة ويتم إعدادها على اسس علمية تكتسب الخبرة وتتفنن في الاداء، ومن هذا المنطلق تعتبر المؤسسات التعليمية التربية الاسرية، ومن ثم التأهيل المهني، فالرعاية العلمية فروعاً مهمة في برامجها وخاصة في المراحل المتقدمة من الدراسة الثانوية.

وتكملة لمشوارنا السابق الذي كان مع موازنة الاسرة وبعض تشعباتها، نرى من الضروري ان نتكلم عن طرف آخر من المعادلة الاقتصادية، يتعلق بعضه مع الوعي

القانوني- الاقتصادي للمواطن، والبعض الآخر يصب في منحى موازنة المؤسسات أياً كان نوعها استثمارية أم انتاجية أم خدمية، صغيرة مثل ورشة تصليح الساعات اليدوية أم كبيرة تجمع في مهماتها ادارة مدينة. في الحالتين تعتبر الميزانية المخصصة لها هي الشريان الحيوي في تغذية اركان نظامهما، لان ترتيب الميزانية من حيث الايرادات والمصروفات هو الاسلوب المعمول في ديمومة عملها وهناك جانب آخر لايقل أهمية عنهما وهو تخصيص صندوق احتياطي عام يستفاد منه في الحالات الطارئة او استثماره كقروض دعم مسيرة في مجال توسيع عمل المؤسسة، او لرفع نوعية ادائها الى مستوى ارقى. وفي الحالتين ايضاً من الضروري الاهتمام بالمادة الاعلانية والدعاية الارشادية للمؤسسة والتي تنسجم مع الخط العام لمتابعة ومراقبة قنوات الاعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة... والمسألة برمتها تبقى تحت تحليل ومتابعة الاقلام النيرة التي ترفد قنوات الإعلام بكل ما هو صالح في المجرى العام.

ومن هذا المجرى التثقيفي المكشوف توصي مصادر التوعية الاقتصادية بأنه من الضروري ان تتوزع ميزانية أية مؤسسة على نسب متساوية بين ثلاثة أنواع من مفاصل الصرف وهي:

- سلامة وصيانة المؤسسة وضمان أمن منتسبيها.
- ادارة المؤسسة وتأمين رواتب العاملين فيها.
- البيئة الصحية التي تتوفر فيها وسائل الراحة والترفيه.

ومن اجل ذلك يستوجب ان يحاول مجلس ادارة المؤسسة استيعاب آخر الحقائق العلمية التي تخص مجال عملها للمحافظة على سلامة منتسبيها مع ابقاء باب الابداع والابتكار مفتوحاً امام كل ما يستجد في مخيلتهم.

وتعمل المؤسسة جاهدة ان تحافظ على مستوى نوعية انتاجها وتطوير ادائها حسب متطلبات الحالة الملاصقة لبيئتها الثقافية.

وتقوم المؤسسة ايضاً بتوفير اماكن الاستجمام والتثقيف والترفيه للعاملين فيها والمتعاملين معها.

أي جانب من هذه الجوانب الثلاثة لاتقل أهميته وتأثيره عن غيره، لذلك تتساوى حصصها من الميزانية، وأي خلل في هذا التوازن يؤدي الى عواقب وخيمة تتحمل المؤسسة القسط الاكبر منها والقسم الآخر يتحمله المواطن الذي لايعي أهمية دوره في ادارة مفاصل الحياة العامة وتغيب عنه أهمية مشاركته غير المباشرة في صنع القرارات للمجتمع.

الفيدرالية في سؤال وجواب

ثقافة العصر فيها من التعقيدات بحيث ينفر منها اولئك الذين يعجزون عن استيعاب مفرداتها ولو في حدها الادنى، أو من ليس لهم الرغبة بمواكبة التطور الهائل الذي تفرزه هذه الثقافة ... وفي الحالتين يكون الهدف هو التهرب من متاعب الحياة العصرية وثقافتها، والاختفاء في زاوية يرى فيها قليلا من الهدوء وشيئا من الرومانسية التي تريحه ولو على حساب الحرمان من بعض الوسائل الضرورية لهذه الرحلة المزعجة. حقا انها رحلة مملة وتافهة في بعض الاحيان، لكنها جديرة بالاحترام في احيان اخرى وخاصة عندما يتكيف المرء مع ايجابياتها ويتمنى من كل قلبه ان يرى سعادته في بعضها. لانحبذ ان ندخل في التفاصيل الدقيقة لتحليل مفهوم ثقافة العصر او شرح ماهيتها كمصطلح اجتماعي ـ حضاري- نقدي... بل نرى ان ما يهمنا في هذه العجالة الفكرية هو تحديد التسلسل الزمني الذي بدأت فيه ثقافة الإنسان من الكهف وتلهفه بامور الصيد الى عصر الذرة وخبرته في خفايا الالكترون، وما بين النقطتين مسافة طويلة يقدر عمرها بما

يساوي عمر آلاف متتالية من الاجيال البشرية. كل نقطة من هذا التاريخ الطويل بمثابة محطة حضارية يعتز بها الإنسان وله مطلق الحرية في ان يعيش في كنف احداها، ويختار ما يروق له من بساطة في التكيف او تعقيد في الاداء. ولكن الشيء الذي يجب ان يتحمله هو الضريبة المعرفية التي يدفعها ليتأهل للدور الذي يقدمه في النقطة التي تنسجم مع مستجدات ذلك العصر، وهنا يكمن السر الذي يحير الإنسان ويعجز في بعض المرات عن فك طلاسمه لأنه يجهل تماماً مكانة العصر الذي اختاره تاريخياً واللحظة التي يعيش فيها حضارياً. ومن اكبر المشكلات التي اعترضت طريق الكُرد في هذا السفر الطويل هو كيفية تعايشهم مع الأقوام الأُخرى واختيار الأسلوب الأنسب في الحوار الحضاري معهم الى ان يصل الأمر الى التفاعل الثقافي مع مجموعات كثيرة من الامم. وما انتجتها هذه المعادلة عبر التاريخ القديم والوسيط والحديث بل المعاصر أيضا هي ثلاثة محاور رئيسة:

أولها، التهميش المتعمد للكُرد من قبل القوى العظمى التي سيطرت على المنطقة في فترات متعاقبة. وثانيها هو روح التعالي والعجرفة التي مارسها الدول التي يعيش الكُرد فيها. وثالثها هو موقع الكُرد الذين من افق الغبن والمظالم يرون أنفسهم يئنون تحت مطرقة الضربات العسكرية وسندان الاضطهاد القومي. أستمرت افرازات هذه المعادلة مراراً وجهاراً ومع من هم في الشرق ومن في الغرب، مع من هم في الجنوب ومن في الشمال الى ان اكتشف الكُرد ضالتهم في النظام الفيدرالي الذي يحافظ على خصوصية الكيانات ويحسن اوضاعها وينمي قدراتها بل ويطور مسعاها في الحياة الحرة. وفي الوقت نفسه يحصل كل كيان من الاتحاد المتضامن مع الاخرين القوة الكافية للمحافظة على سلامته وتأمين علاقاته الاقتصادية مع الآخرين، وكأن الكيان هو في حد ذاته دولة داخل دولة، له صلاحيات واسعة في كل ما يتعلق بالسلم وما يجري تحت خيمته. أما في زمن الحرب وما يخص التأمين على المصالح، واحتمالات المواجهة، والقدرات الدفاعية، فكل الصلاحيات الواسعة ضمن هذه المجالات ينفرد بها الكيان الاتحادي وحده. من نقطتي

السلم والحرب تندرج كافة الانظمة والقوانين لتتسرب كالدم الذي يغذي شرايين الحياة في جسد الدولة الاتحادية والحكومات المحلية المتكونة منها، وتتكامل الدورات الواحدة تلو الأُخرى لتنتعش الاقتصاديات ويتكون منها الاقتصاد الاقوى. وتتشارك السياسات لتتمخض عنها السياسة الأحكم. وتتفاعل الثقافات لتتشكل منها ثقافة اكثر انفتاحاً. وهكذا تترقى جميع مفاصل الحكم ضمن صلاحيات سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية منفصلة ومتجانسة ضمن دولة اتحادية قوية.

النظام الفيدرالي يفيد القوميات التي مازالت في طور تكوينها الحضاري وكذلك يفيد اقوى الدول المتطورة اقتصادياً وتجارياً وسياسياً، لذلك يرى معظم خبراء السياسة الدولية ويشاركهم الرأي محللو الاقتصاد الدولي بان النظام الفيدرالي هو برنامج اقتصادي سياسي ثقافي شامل، يبعد الدول صغيرها وكبيرها عن دائرة الفشل. نحن الكُرد الآن امام تجربة الفيدرالية التي نرى في تطبيقها ضماناً لحقوقنا القومية والسياسية والثقافية، ومخرجاً مناسباً في حرية اختيار مستقبلنا. وهنا يتبادر الى الذهن سؤال مركب من شقين وهو:

كيف يعي المواطن الكُردستاني أهمية النظام الفيدرالي وماذا يعمل في ادائه اليومي ليكون سلوكه حالة اعتيادية متناغمة مع جوهر الفيدرالية وتطبيقاتها؟ واما الشق الثاني من السؤال فهو ماهي أفضل طريقة او برنامج سياسي تسلكها الحكومة المحلية في تخطيطها المتوازن لتكون اجراءاتها التنفيذية من النواحي الادارية والخدمية والانتاجية منسجمة مع مفردات هذا النظام؟ اعتقد ان كلاً منا لديه جزء من الجواب ان لم يكن كله، ولكن لو كانت لدينا القدرة الكافية في توحيد اجاباتنا ضمن جواب سليم ومتكامل لكان الناتج المستحصل هو النظام الفيدرالي بعينه.

الادوار المتباينة والنتائج المتشابهة

كانت العائلة الكُردية حريصة اشد الحرص على كيفية تكوين شخصية بناتها. ونادراً ما كان هناك من يتجرأ على الاعراف السائدة. ومن تلك الاعراف كانت الأم تتابع تصرفات ابنتها خطوة خطوة وعن طريقها تتعاون العائلة ـ بل وفي بعض المرات الاقارب او حتى القبيلة - في تثمين المواقف الطيبة للفتاة او يقدمون المساعدة المطلوبة في تقويم ما قد يمس بسمعتها عند الحاجة.

وكان دور الفتاة في احسن الاحوال هو تعلم ادارة البيت والاهتمام بجمالها قدر المستطاع. وكل ذلك من أجل ان تكون مرشحة مقبولة ومفضلة لدى الذين يطلبون يدها من العائلة... وهنا كانت تتلاقى مزايا الفتى الافضل مع حسنات الفتاة الاكمل وعلى بركة الله تتفق المطالب وتتم الافراح.

أما الشاب المحظوظ الذي كان يتخطى عتبة البيت الجديد، يدخل هو ايضاً وطواعية في اختبارات عسيرة ليحصل على الكسب الحلال والسمعة الطيبة والذود من أجل مصلحة الاخرين، وكل ذلك لينال رضى الطيبين من الأهل والأقارب. هذا ما كان يظهر للعيان، اما الهدف الخفي من كل ذلك فكان لأجل ان يرشح لمرتبة اجتماعية مرموقة ويصبح شخصية يشار اليها بالبنان، وبعد أخذ وعطاء كثير ومداولات تجري من قبل النخبة المفضلة في محيطه حيث كانت بعضها تتم في الخفاء واخرى علانية ومن خلال تعاقداتهم الوهمية يبادر الوجهاء بتكليف الفتى بعض المهمات الصعبة وبقدر تفوقه في تلك الاعمال التي يبدي فيها محاسن قدراته الجسمية والعقلية يؤخذ عليه انطباع جيد، ويصبح وجهاً بارزاً في العائلة او القبيلة باكملها وفي هذا المنوال كانت تدور الدوائر.

كانت السلطة المنفذة في المنطقة المتمثلة بشيخ القبيلة او الادارة الحكومية في حالات كثيرة تلح على أمثال هؤلاء الرجال لتسلم مهمات اجتماعية او القبول بتحمل مسؤولية

ادارية، وبعد مناقشات ومداولات كثيرة كان الرجل الشاب يرضخ لمطلبهم ويتسلم المهمة بحذر شديد ويحسب لكل ما يستجد في اداء عمله ألف حساب كي لا يخسر ثقة الذين اعتمدوا عليه او يخذل الذين رشحوه لذلك المنصب.

أما الآن وبعد ان شهد الوطن درجات من العز ونالت الأمة مرتبات من التقدم سواء على مستوى التطور العلمي والتكنولوجي الهائل أم حسب ما توصل اليه الفكر النير والموضات الانيقة ... فقد تغير الوضع كلياً وأمست بعض العادات والاعراف التي كانت سائدة ويلتزم بها الصغير والكبير، باتت في طي النسيان وليست ذات اهمية الا عند الباحثين في حقول البحث العلمي كالتأريخ وعلم الاجتماع او عند من يحنون الى تراثهم الثقافي في الأيام الخوالي.

ومن خلال المثالين السابقين وما طرأ عليهما من تغيير كبير، نحس بجوانب كثيرة اخرى فبعد ان كانت الفتاة اللطيفة في موقعها والشاب الطيب في موقفه يعتبران النموذج الامثل في المجتمع، تبين ان مثل تلك الحالات قد تبدلت رأساً على عقب ونلمس افرازاتها بل ونرى تأثيراتها السلبية او فوائدها الجمة كلاً حسب موقعها والتصاقها بمجريات الحياة اليومية، فبدلاً من الموقع الاجتماعي التفاعلي لتلك الفتاة المحصنة والتي كانت تتحرك في مساحة صغيرة تحددها قيم شفافة، اصبحت فتاة اليوم تدخل ساحات العمل وقاعات المداخلات الثقافية من اوسع ابوابها ومن خلال نشاطها الاقتصادي- الاجتماعي تبحث عن فارس احلامها وقد تبادر الى اقناعه او صيده عن غفلة.

أما من الجهة الأُخرى فالشاب العصري الذي يتفوق قليلاً على زملائه وينال بعضاً من اعجابهم، فإنه يسعى من دون كلل ويطرق الابواب المسموحة لكي يسجل اسمه في القائمة التي ترشحه لمنصب مرموق او يحاول جاهداً ان يدخل الغرف التي تتحاشى الترحيب بالمستقبلين لكي يكرموه بدرجة قلما يحلم بها أقرانه.

هناك فرق كبير بين الامثلة التي ضربت للحالة الاولى وبين تلك التي تحدث في الحالة الثانية حيث تغير القديم في حكمته والحاضر في شهرته، وما بين الحالتين سلالم المجد يصعد عليها النبيل نحو العلا، وينزل منها الدنيء الى الحضيض.

الجوهر المغبون في العلاقات المستفحلة

البحث عن المجد حرية غير محببة في نظام الدول المتقدمة، وغير مقبولة في انظمة اكثر تقدماً، بل تعتبر حرية غير مسموح بها في البلدان التي قطعت اشواطاً ممتازة من الديمقراطية وخاصة تلك التي تتبنى الفيدرالية في تكوينها الفكري والاداري.

رب سائل يسأل عن سبب هذا التبدل المفاجيء والتغيير الجذري في حالة ابداعية تهم المجتمع بأكمله، حيث كان المجد الى الأمس القريب فضيلة، ومرتبة اجتماعية مرموقة، ومكسباً سياسياً او اقتصادياً في حالات كثيرة، ويتمنى الجميع لو حالفهم الحظ وحصلوا عليه، لذا كان الاذكياء في سباق دائم يبذلون المستحيل ليكون المجد من نصيبهم وحتى ان كان مسك ختام اعمالهم في الحياة.

لااعتقد ان الجواب يكون سهلاً، اذا لم نعد شريط الاحداث المهمة خلال القرن العشرين الى سطح الذاكرة الجمعية للشعب. لأن الاعتقاد الفردي او أي جهد معرفي احادي لا يكفيان لتوضيح مثل هذه الأمور المهمة.

من باب الافتراض نقول ان النظام الديمقراطي في الدول الفيدرالية يركز بالدرجة الاساس على نوع وكيفية العلاقات التي تربط بين الافراد او المجموعات المتباينة، أما جوهر اولئك الافراد او تلك المجموعات فيترك حراً، ويحترم ما في كل واحد منها حسب ما يملك من مقومات الخير وسمات التطور.

اذاً مسألة التغيير تتعلق بجوهر الشيء نفسه، حيث كانت اهمية الجوهر في السابق تضاهي كل الصفات والمظاهر الأُخرى للشيء ذاته.

وكان التقييم المفضل لقياس أي شيء يعتمد اساساً على جوهره.

فالجوهر النقي او المعدن الاصيل كان النموذج المثالي الذي يستحق أن يقود ويقتنى به ويأتي دوماً في المرتبة الاولى ويكون اساساً لأجزائه الأُخرى. أما علاقات الفرد بالآخرين فكانت مسألة ثانوية لايهتم بها الا اذا كان تأثير ارتباطاتها يصب في مصلحة الجوهر.

لكي لانغوص في المقدمات عميقاً ونضيع في متاهاتها، حري بنا أن نبحث عن اكثر من جواب. وبادئ ذي بدء نقول: ربما يعود الفضل لهذا التوجه الراقي في التفكير ـ وتفضيل أهمية علاقات الشيء على جوهره ـ الى اكتشاف الإنسان للذرة وأجزائها الصغيرة الفاعلة.. فكان لهذا الاكتشاف وتطوره تأثير كبير على التحولات الكبيرة التي حدثت خلال النصف الاول من القرن العشرين وما بعده، وغير مجرى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية من حالة سكون الحركة الى حالة تفاعل الحركة عبر دوائر متشابكة من العلاقات بين كل مكونات المجتمع دون استثناء، ولما بدا التعامل المتكافئ حسب القدرات الذاتية لجميع الافراد أمراً اخلاقياً وقانونياً تبدلت نظرة الإنسان من الاعتماد على طاقته الجسدية في قهر العالم الى استثمار قوة ملكاته العقلية العليا في التحليل والتركيب والتقويم... وكانت للطاقة التي افرزتها صغيرات المادة الالكترونية اضعاف ما كان يتباهى الإنسان بها سابقاً.

بدت قوة الجذب بين الالكترونات محور التطورات الهائلة التي شهدتها مجالات الاقتصاد وادارة الدول، حاول الإنسان السيطرة على نظامها الفيزيائي وتسخيره في البحث العلمي وكذلك لتوليد الطاقة واقامة المشاريع الانتاجية والخدمية والسياحية العملاقة.

انعكس هذا النظام التفاعلي- العلائقي على الوشائج العامة التي تشد الحياة اليومية في المجتمع، وغيرت معها تنظيم حريات الفرد وواجباته، فحدث تبديل كبير في نوع العلاقات التي تربط المواطنين ضمن قوانين تضمن حقوق الجميع.

ازدادت مفردات قائمة التغييرات وعلى سبيل المثال نذكر بعض الامثلة المركبة التي يبنى عليها كيان المجتمع منها:

- في المجتمع المتعدد الثقافات يمكن تطوير كل ثقافة على حدة، وتطويعها لعملية تفاعلية مع الثقافات الأُخرى المتعايشة معها، لكي تتكون منها ثقافة عامة متكاملة تشمل موزائيكية جميلة، وتصبح السمة البارزة للبلد.

- تطوير المدينة على اساس تشكيلة متكاملة من مدن صغيرة تحتفظ كل منها بطابعها التراثي والحضاري ومن ضمن علاقاتها المتبادلة تتكون منها مدينة كبيرة عصرية تحتوي على كل شيء من دون ان تمس قدسية وجمال محتويات أي مكون فيها قديمها وحديثها، كبيرها وصغيرها...

وهناك امثلة كثيرة اخرى سوف يتيقن لها القاريء العزيز لو تمعن في هذا المنحى الجديد الفعال بسهولة. ويبقى الشيء المشترك بين جميعها هو انها تصب في آفاق مستقبل واحد يسمى بلغة العصر (الفيدرالية).

الحلم... حق لايغتصب

الدنيا تسع الجميع وعمر الإنسان لايكفي ان يقضيه في المشكلات فقط.. هذه مقولة مزدوجة المعاني تجمع مساحات المكان وابعاد الزمن في طاحونة الحياة معاً، فمن جهة تصلح ان تكون شعاراً لمن يبحث عن الابداع ويرى السعادة في خفايا العمل الجاد، ومن جهة اخرى تفيد من يريد الحصول على رغد العيش في كنف الاتكالية واللامبالاة.

سندع كل الذين يلهثون وراء راحة البال من دون ان يرهق الجسد، ينعمون باحلامهم الوردية، لانهم كالشجرة اليابسة التي لاتفيد احداً سوى العصافير البريئة التي تقف عليها مؤقتاً ودون ان تدري بأنها ستكون في اكثر الحالات لقمة سائغة للذين يبحثون عن الصيد السهل في العراء.

لنترك الاحلام الوردية ايضاً، ونتكلم عن الاحلام السعيدة والحبلى بالامل وتبشر خيراً للناس اجمع وتفتح آفاقاً رحبة امام المثابرين.. فدوماً يتساوى الحالمون امامها ويختلفون في السعي اليها، ومن هذا المنطلق يقال بأن من حق أي انسان ان يحلم ولكن اسعد الاحلام تلك التي تذوب في براعة العمل ويكون الاتقان هدفه الاسمى نحو التطور. تحقيق الاحلام ممكن، ولكن ليس في كل مرة بالأمر الهين، وتبقى ضرباً من الخيال الخلاق، ونادراً ما يحصل المرء على مايتمناه.. وحتى لو كانت الاحلام سراباً فالذين يشتركون في ماراثونه ليسوا تلك القلة التي تضيع في بوابات العالم الفسيحة، ولانكشف سراً لو قلنا ان اكثر قاطعي تذاكر شبابيك الحضارة الإنسانية هم ممن يحلمون وفي احلامهم يركضون وراء مايصبون اليه.

فالاحلام تعبير حي وحر عن مايختلج في النفس الإنسانية من افكار وانطباعات، وبها يطهر المرء اعماقه من آثام وشطحات.. وفي المنحى ايضاً تسعى الدول طواعية او اضطراراً الى بناء منظومتها التربوية ضمن الاهداف التي تحلم بها، ومن أجل ذلك تخطط وتكد وتعمل لتكون مقاعدها الدراسية ومختبراتها التجريبية وقاعاتها الفنية وساحاتها الرياضية مشواراً مشوقاً تنتعش فيه مشاعر الطفولة وتكون لديهم أحاسيس مرهفة تستجيب لكل جمال مفاجيء او قبيح مستفز.

فالحواس هي الرابطة الفعالة بين غرائز الإنسان المنفصلة وبين مكونات شخصيته الانفعالية والجسدية والعقلية، لذا يستوجب التركيز في المراحل الدراسية الاولى على تنمية الحواس جميعها (السمع، البصر، اللمس، الشم، الذوق).. حيث عن طريق كل حاسة يتعلم

الطفل اشياءً كثيرة مثل القراءة والكتابة والتمثيل والرسم والموسيقى وكذلك الممارسة الصحيحة في تناول الغذاء والمحافظة على النظافة ومزاولة العمل عن طريق خطوات مرتبة.. وهنا تدخل وسائل الايضاح البسيطة وتركيب الالعاب السهلة في تدريب كل حاسة على حدة ومن ثم تتدرج وسائل الايضاح المركبة والتكنولوجية في تمرين اكثر من حاسة في آن واحد وليكن في استطاعة الطفل ان يستعمل ـ فيما بعد ـ مجموعة من حواسه سوية.

وتحقيق هذا الهدف في تعليم الطفل ان يستخدم اكثر من حاسة او جميعها سوية في التعبير عن حالة مركبة او استيعاب معادلة صعبة.

على هذا الاساس ومن ضمن المنظومة التربوية الحديثة، تركز الجهود على بناء جيل واع يدرك اهمية تعليمه المبكر من النواحي الحسية والعاطفية والفكرية، لانه الاساس الذي يؤهله للدخول في معاهد التعليم المهني او التدرج في الدراسة الاكاديمية لنيل اختصاص قريب من ميوله.. وهنا تكون العينات الصالحة والجيدة هي النسبة الغالبة والمفضلة في المجتمع، اما الشواذ والمنحرفون، فهم نسبة قليلة يمكن التعامل معهم حسب القوانين المرعية التي تعنى باصلاحهم وفي الوقت نفسه إبعاد المواطنين عن مشكلاتهم.. وهذا هو البرنامج الاشمل والطريق الاسلم للوصول الى الهدف الاقرب الذي يصدق فيه ذلك القول بأن الدنيا تسع الجميع والعمر أيامه معدودة من المؤسف تحميله بما لايليق بمنزلة الإنسان وحرمته.

حكمة كُردية في التعلم

في التراث الكُردي أمثال وحكم كثيرة حول مسائل التربية والتعليم، وفيه ايضاً قصص تتعلق احداثها بالجانب المعرفي لطلاب العلم... ولكن النسبة التي تتفق مع روح العصر او يمكن الاستناد عليها قليلة جداً. وتنخفض نسبة الاعتماد اكثر لو أخذنا محتوى أية واحدة

من تلك الحكم لتكون حلقة الوصل بين الإنسان المتجذر اصوله في هذا البلد وبين النظريات التعليمية الحديثة التي تولي اهتماماً كبيراً في بناء شخصية الإنسان المتزنة والمستوعبة للعلوم ليتخصص في أحدها حسب رغبته ثم يستفيد منه في حياته اليومية.

من تلك الحكم التي اوقفتني ملياً وثبتها ضمن الامثال الشعبية في كتابي الموسوم بـ(كاني) أي النبع (مطبعة اسعد- بغداد ١٩٨٤ص١٧) حكمة تمس جوهر حرية الفرد منذ نعومة اظافره وحتى لقائه الاخير في هذه الدنيا، ولتوضيح محتوى المثل وتدعيم الرأي المطروح، أرى من الضروري ترجمة النص الذي يقول: (اذا كانت كلمات الطفل كبيرة، ذات معان عميقة وأتت ثقيلة كالصخور، لا تقاومها بل دعها تثبت في الأرض بقوة.)

يركز هدف هذا المثل على اعطاء الحرية الكاملة للطفل ليعبر عما يختلج في نفسه ويقول ما يحلو له ويتعلم تدريجياً ما هو اوسع في معانيه وانفع في مراميه ... وهذه الطريقة المحببة في المجتمعات المتحضرة تكمن ايضاً ضمن المبادئ التي يعتبرها الكثيرون صحيحة تترسخ عليها عملية تربية وتهيئة لا لطفل واحد بل لجيل كامل، وخاصة عندما يتم التنسيق المبرمج بين هذه العينات التي تشغل مساحة معرفية واسعة يتشكل عليها النظام الاقتصادي والبنية الاجتماعية في حدهما المستساغ ثقافياً والمؤهل ادارتهما ضمن سياسة مقبولة في البلد.

في هذا المنحى ايضاً، يحكى ان أبا علاء المعري (٩٧٣- ١٠٥٧) كان في احدى جلساته الشيقة يلوم الأقدمين ويكثر في سرد نواقصهم المعرفية، وصادف في تلك المرة ان رجلاً كان قد أتى بولده الى الديوان حباً منه ان يتعظ الصغير بمحاسن مجالس العلماء، الا ان الطفل لم يكتف بما تلقح من معارف، بل مزق ستار الصمت بين الحاضرين وعلامة العصر الذين كان يخاطبهم بتودد، وانتقده الطفل قائلاً: (سيدي الفاضل ما هذا العتاب... لو كان الاقدمون عاجزين عن الابداع ويتباهى المعاصرون بقدراتهم الفذة، فهل لكم ان تضيفوا حروفاً جديدة على الابجدية التي اوجدها الأقدمون.)

لام الحاضرون الرجل الذي أتى بالطفل الى المجلس وفسد الحديث على العلامة الضرير... الا أن أبا علاء هنأ الرجل على عبقرية ابنه وجرأته في الكلام. وتضيف بعض الروايات ان المعري أشار في تقييمه ايضاً ان حياة الطفل لن تدوم لأن قدراته الجسمية لا تتحمل قوة ملكاته العقلية. (والله اعلم).

في هذه الواقعة القديمة اثارة الهواجس وشوق الاصغاء، الا أن الحكمة الكُردية اكثر ثباتاً واعمق تأثيراً وأبلغ قصداً لأنها ولدت نتيجة تجربة ونما على ضوء خبرة وهكذا كبرت مع الزمن، الى أن توسعت مدياتها الاستنتاجية حسب ما يليق بالعصر الذي يتم فيه استكشاف خفايا جديدة لهذه الحكمة وما يستنبط من مزاياها في التطبيق.

لسنا- هنا- بصدد المفاضلة بين قول مأثور يقتدى به وقصة تحتذى من عبرها، بل القصد من المقارنة هو ان يعي الخبير التربوي اثناء ما يخطط لهدف يمس (تعلم الإنسان) وكذلك الامهات والاباء ومن هم في حرص شديد لمتابعة سلوك اطفالهم ان يضعوا نصب اعينهم ان هناك حقيقة مفادها: (أن في تراثنا ما فيه الكفاية من تجارب وخبرات ومعارف لتكون جوهر الهدف المرجو من البرامج التربوية الحديثة والتي تعتمد على آخر ما توصل اليه الفكر الإنساني.... وهنا نأتي الى النقطة المشتركة بين جميع الاتجاهات التي تلتقي في مركز ثقل بنيان الحضارة العالمية وهي:

إن الخبرات والمعارف الإنسانية المتراكمة عبر الزمن هي ملك الجميع، الكل يستفيد منها حسب حاجته، يجري عليها ما يشاء من عمليات، يستثمرها على ما يروق له من اهداف يفيده ولايضر الآخرين... ولكن الشيء الوحيد الذي يدق فيه جرس المخاطر هو ان يكلف الإنسان غيره ليفكر بدلاً عنه.

ومن اعماق الفكر تشرق الشمس

يقال ان الصلح سيد الاحكام، هذا فيما اذا وقعت الواقعة بين طرفين، وأدت الى حدوث مشكلات وخسائر بشرية ومادية بينهما، وهنا يكون الصلح نبراساً وبه يفيض وعي الإنسان عبقاً واريجاً ليزيل الكره والاحقاد، ويقتل روح الانتقام ويصبح التسامح زينة الرجال... وتعتبر هذه الحالة فضيلة يحسد عليها الاكرمون قبل الشاكرين.

وبعيداً عن مفاسد النزاعات ومراسيم التصالح والكفالات، هناك ما هو احلى واجدر بالاحترام: عندما يكون للانسان فكر نير يتيقن به الى ويلات الكارثة قبل وقوعها، ويكون له من الاحساس ما يشم به رائحة الخطر قبل حدوثه، فيدبر الأمر على خير ما يرام ويجعل من مفردات الاثم والجريمة ادوات طيعة يعيد ترتيبها من جديد، ليشكل منها كياناً يخلو من الشر، بل وفي مرات كثيرة نموذجاً من السلم والخير والمحبة.

اعتقد أن مثل هذا التفكير الذي يجيد التدبير الحسن، ويقطع الطريق امام التنديد المذل هو ارقى ما توصل إليه الفكر الإنساني من حكمة وتعقل واتقان الجد في تضمين المستقبل... وهو ما كان موجوداً عند أهالي قرية (شني) الى ما قبل اخلائها وهجرة سكانها اثر احداث (١٩٦٢) والتي جعلت من المنطقة بأكملها ساحة القتال لثورة أيلول التحررية (١٩٦١- ١٩٧٥).

كانت (شني) قرية تقبع في اعماق واد من جبل بيرس الشهير في منطقة بادينان. وبالرغم من بساطة سكان هذه القرية في معيشتهم الا أنهم كانوا عقلاء في تسيير أمورهم الحياتية ومن شيمتهم الأحكم هي اكتفاؤهم الذاتي اقتصادياً، حيث كانت القرية تعتمد على الزراعة الديمية التي تمتاز بسهولة امتهانها ووفرة محاصيلها التي تدر على سكانها بالخير الكثير. وكذلك خبرتها في صنع كل ما تحتاج اليها من ادوات العمل التي تستخدم في البيت والمزرعة... ولعل هذا هو السبب في أن اصبحت منعزلة نوعاً ما عن القرى الأُخرى المجاورة لها في وديان جبل بيرس او المقابلة لها في الجهة الأُخرى من نهر الزاب

الكبير، مما زاد الفوارق بينها والآخرين حتى وصلت الى مفارقة اللهجة التي يتكلمون بها... الا ان الشيء الاكثر غرابة في تلك الفوارق هو طريقتهم الخاصة في حل النزاعات والصراعات فيما بينهم، حيث كانوا متفقين سلفاً وأصبحت عادة مترسخة عندهم لا يفكر الطرفان المتنازعان بغيرها وهي: عندما يصل النزاع الى درجة الاصطدام ينادي أحد القرويين بأعلى صوته بأن جرس الخطر قد دق بين (يذكر اسم المجموعتين او الشخصين) فيجتمع اهل القرية جميعاً في الحال ويتقابل المتخاصمون، ويعطي كبير القرية الايعاز بالحركة، وهنا يركض الطرفان الى المرتفع الذي يشرف على القرية ويبدأ السباق الماراثوني، واول عداء يصل هناك يشهر سلاحه ويعلن فوز فريقه ويشهد له المتفرجون في الاسفل وتنتهي المشكلة، وتقيم القرية حفلة تليق بالنتيجة المباركة.

وهذا النوع من الحكم ابداع قضائي وجوهرة قانونية قلما فطن لها غيرهم، وان الشبه بين هذه الطريقة قريب لما وضع حصه بن داهر الهندي لعبة الشطرنج لبلهيب ملك الهند مساواة لاردشير بن بابك في وضعه النرد... ومن جملة اهداف الملكين لكي يتحاكم الامراء عن طريقها فيما بينهم ويتجنبوا ويلات الحروب.. الا ان ما يثبت ذلك بات من باب الخيال.

احتكام الشنيين في اسلوبهم الرائع مفخرة في الفكر الكُردي القديم علينا الاعتزاز بها وجعلها مادة خصبة للباحثين في تحليلاتهم للمجتمع الكُردستاني وكذلك للادباء في ابداعاتهم عندما يحاولون الغوص في اعماق النفس الكُردية ويحق لنا ايضاً ان نفتخر بانه: كما في جبال وطننا ألف قرية وقرية ففي اعماق تأريخه ألف فكرة وفكرة.

١٩٨

ويبقى التراث نبراس الحياة

آكري اسم قديم ومتداول لمدينة كُردية في منطقة بادينان، ومصطلح مألوف في جغرافية العراق ومعلم حضاري محبب عند سكانها الأصليين، فيظهرون بكل فخر إنتماءهم لها ويبالغون في مدحها الى الحد الذي يعتبرونها مهد البشرية.

بالرغم من لطافة مفردة (آكري) وموسيقاها اللغوي الرنان على لسان أهلها، الا انها كلمة يصعب على غير الكُرد تلفظها بسهولة، مما حدا بكثير من الرحالة والفاتحين على مر العصور تسميتها حسب انطباعاتهم على تضاريسها ومعاملة سكانها لهم بمسميات كثيرة... فمع بداية الفتح الاسلامي كانت تسمى بـ(المروج) كونها جنائن متدرجة على سفح جبل شاهق.

ومن ثم سميت (الحيالى) لاشتهار أهلها بالمكر والمراوغة حسب ادعائهم ... وثم عقر الحميدية بسبب صعوبة الثغور الطبيعية فيها... وثم (عقرة) كما هو مدون في سجلات ما بعد تشكيل الوحدات الادارية الرسمية في العراق ولحد الآن والغريب في الأمر ان معظم سكان المدينة ليسوا على علم بهذه التسميات التي كانت تهم الغرباء عنها فقط وليست لهم علاقة بها.

وخارج دائرة المصطلحات والتعاريف فـ(آكري) مدينة جميلة وجبلية المعالم، ذات تأريخ موغل في القدم، وتراث ثر غني المقاصد فيه الكثير من الملاحم والقصص والشعر والألحان الأصيلة والخبرة الحياتية في الصناعة والزراعة والتجارة والمعارف التي تحتضن الفن والأدب والعلوم الكثيرة.

عند نقطة التراث نقف ونحاول ان نمعن في مسألة اللغة ومستوياتها التي تختزن آلاف المفردات والعبارات واصبحت كنايات ودلالات خاصة في لهجة هذه المدينة المحلية، وقلما يفهمها من ليس لهم دراية كاملة بدقائق الحياة اليومية لسكانها....

على سبيل المثال نذكر عبارة (بلاتيقة): فالقصد منها شيء ظاهره طرافة وجوهره مليء بألف مكيدة وحيلة. فالشخص الفكاهي والمراوغ وصاحب الاساليب الملتوية في التعامل يقولون عنه (بلاتيقة... فلان) او (أنه صاحب بلاتيقات لايطاق)....

ولما تمعنت في التكوين اللغوي لهذه الكلمة واصلها المتجذر عبر اجيال متلاحقة وبقيت في ذاكرة المدينة، رأيتها قريبة ومترادفة للكلمة الاجنبية (بوليتيك- Politic) والمأخوذة من الكلمة اليونانية (Politikos) وهي تعني السياسة في اللغة العربية... وهنا يأتي السؤال الغريب: ما هي العلاقة بين الكلمتين الكُردية المحلية جداً مع الاجنبية عالمياً من حيث الشكل والمعنى على حد سواء؟

هل لنا ان نتكهن بأن أهل هذه المدينة يقصدون بهذه العبارة (بلاتيق) السياسة نفسها كمصطلح متداول حالياً؟ - إذا صح التعبير- وهل ان السياسة تعني بالنسبة لهم المراوغة والحيل والمكائد المستهزئة؟ واذا كان هذا هو القصد فإنها غير مرغوبة في التعامل ومشينة في التداول.

يظهر في الاونة الاخيرة ان اهل هذه المدينة ايضاً بدأوا يتراجعون عن رأيهم في استعمال هذه العبارة، بعد ان تيقنوا بانها تطابق كلمة السياسة التي أمست الآن سيدة الكلمات سواء في الخطابات المنمقة أم في الممارسة اليومية للذين يعرفون من أين تؤكل الكتف. لذا باتت كلمتا البلاتيقية الشعبية القديمة والسياسة المرموقة تتجاذبان اطراف بعضهما، وتلتقيان في الخفاء والعلن.

ففي الخفايا تحتويان على الشيء الكثير من المراوغة ودرجات خفيفة من النفاق واللؤم.

أما في العلن فإنهما تختلفان فظواهر البلاتيقية كلها سخرية ولامبالاة واستخفاف بالآخرين. أما ظواهر السياسة فكلها لياقة وبلاغة وجد وكياسة...

والظاهر لايعكس حقيقة الشيء دوماً. فربما شيئان يختلفان في المظهر لكنهما يلتقيان في اكثر من نقطة من حيث الجوهر والعكس هو الصحيح.

لذا نرى في جوهر الكلمتين اعلاه نقاط التقاء كثيرة اكثرها لا تليق بشرائح واسعة من المجتمع ممن يعتمدون على قدراتهم الذاتية، ولهم في توجهاتهم مباديء خالصة لا تقبل الشك في مصداقيتها ومن هذه الشرائح:

١ـ الفنان او الأديب الذي يحاول ان يبني من افكاره عالماً جديداً، يكون بديلاً عن عالم الواقع المليء بالمشكلات والمصائب. فيرى في ابداعاته ان التوازن يعود الى ميزان الحياة المختل ... ولو ان هذا العالم خيالي محض الا أنه في نظره هو النموذج الذي سيتقين له الآخرون ويطمحون للوصول اليه.

٢ـ الإنسان التقي الذي يخشى الله وتتوقف حساباته وتكهناته على مبدأ الثواب والعقاب الذي سيقاضيه بعد مماته، لذا يتطابق كل ما هو على لسانه مع ما يغمر في قلبه، فيبدو صادقاً مع نفسه ومخلصاً في عمله وأميناً على القيم التي يؤمن بها.

٣ـ الإنسان الاكاديمي الذي يسعى الى ان يتوصل عن طريق تجاربه وابحاثه الى حقائق الأمور وتكون نتائجه العلمية هي المقياس الناجح والمرغوب لديه سواء اتفقت مع الظروف المحيطة أم خالفتها تماماً.

هذه الشرائح الثلاث ليست لهم علاقة لا مع بلاتيقية آكري ولا مع فن السياسة، لأنهما لا تتفقان مع مبدأ عملهم، لذا يبقون معهما على طرفي النقيض.

بين مصر وكُردستان نغمات تتعانق

كان محمود بيرم التونسي(١٨٩٣-١٩٦١) أديباً مشهوراً في مصر، وربما في بلدان عربية أخرى. ويعرفه الكُرد في العراق وسوريا أيضا وخاصة جيل منتصف القرن الماضي وما بعده بقليل ولكن ليس عن طريق مؤلفاته الأدبية وخبرته في الصحافة الفكاهية او

بواسطة ازجاله الساخرة، بل عن طريق قصائده التي غنتها كوكب الشرق ام كلثوم(فاطمة السيد ابراهيم البلتاجي ١٩٠٤-١٩٧٥)، ومنها قصيدته الرائعة (عن العشاق سألوني، وانا بالعشق لا افهم) وكذلك (غني لي شوي شوي، غني لي وخذ عيني) كذلك (الاوله في الغرام والحب شبكوني، والثانية بالامتثال والصبر امروني، والثالثة من غير ميعاد راحوا وفاتوني) كذلك قصائد كثيرة أخرى مثل(الاهات، ايه اسمي الحب، اهل الهوى، حبيبى يسعد اوقاته، الحلم ، الهوى غلاب، هذه ليلتي، امل حياتي، ظلموني الناس، شمس الأصيل...الخ). من باب التذكير، زدت اذكر أسماء القصائد المغناة، وربما تنفع الذكرى مع من اختته مصائب الدهر واقعتده هموم الحياة خلال العقود الأخيرة من زمن قاس ذاق فيه الكُرد وغيرهم من شعوب المنطقة الامرين، وفترات لا تطاق. ولكن حلاوة القصائد التي يكتبها شاعر مطارد واشجان صوت تأتي من حنجرة مبدعة مثل ام كلثوم هي زاد الغريب يصاحبه اينما حل وكيفما شاء، وخاصة الأغنية الدينية(القلب يعشق كل جميل) وهي قصيدة صوفية عن العشق الالهي، وكذلك قصائد وطنية مثل (صوت السلام).

لمن فاتهم من الجيل الجديد قطار ابداعات محمود بيرم، وأرادوا التعرف على النقد اللاذع والازجال الملتهبة والقصائد الرقيقة التي ابدعها وبها تحدى جبروت عصره، سيرون في نتاجاته سيرة مكافح افنى حياته من اجل تعرية صورة المجتمع وتشخيص سلبياته وطرح بعض المعالجات المناسبة لها، ليكون الجميع على بينة عما كان يحدث في البلدان العربية ففي كتابيه (السيد ومراته في باريس) و (السيد ومراته في القاهرة)، يتحدث في الاول عن التقدم الاجتماعي والثقافي في فرنسا، ويقارنه في الثاني بالتخلف في مصر، وهذا العمل الفريد من نوعه جمعه واصدره صديقه (عبد العزيز الصدر) وعلى نفقته الخاصة، وتم استخدام هذا العمل في دراسة اللهجة العامية المصرية في قسم اللغات الشرقية بجامعة برلين أيضا.

بدأت شهرة بيرم الأدبية في مطلع شبابه عندما نشر قصيدته المشهورة (بائع الفجل) وانتقد فيها المجلس البلدي في الاسكندرية الذي كان جميع موظفيه من الأجانب ويتعاملون على أنهم أصحاب البلاد. ويفرضون الضرائب ويتحكمون في البلاد والمواطنين بازدراء واحتقار، وانه طالب بيرم بضرائب ومبالغ وبحجز بيته، وهنا يعبر في قصيدته عن سخريته من موقف المجلس البلدي حيث يقول في مطلعها:-

قد اوقع القلب في الاشجان والكمد
هوى حبيب يسمى المجلس البلدي
وامشي واكتم انفاسي مخافة ان
يعدها عامل للمجلس البلدي

ويختتم قصيدته:

يا بائع الفجل بالمليم واحدة
كم للعيال وكم للمجلس البلدي

لم يكن محمود موفقا في حياته الصحفية، فقد اصدر في عام (١٩١٩) مجلة (المسلة) ولكنها اغلقت. وثم أصدر مجلة (المخازوق) فلم يكن حظها افضل من اختها المسلة، الا انه افلح في اخر عمره، عندما عمل كاتبا في (اخبار اليوم) وبعدها في جريدة (المصري) وثم في جريدة الجمهورية وبعد مأساة المنافي وأتعاب العمل المضني توجت مسك ختام حياته بمحبة شعبه فمنحه الرئيس جمال عبد الناصر جائزة الدولة التقديرية في عام (١٩٦٠)أي قبل وفاته بسنة وذلك لمجهوداته في عالم الأدب. تأتي معرفة نخبة قليلة من الكُرد لفن وعبقرية محمود بيرم التونسي من لغة الاحساس المرهف لهذا الشاعر والتي تسللت عبر صوت ام كلثوم الى الذوق الكُردي، الا ان هذه النغمات الرقيقة لا تكفي بان تكون لغة تفاهم تام بين انسان يعيش على ضفاف النيل واخر يعيش بين سفوح جبال زاكروس وارارات. وهناك امر اخر يثير الانتباه والجدل وهو اذا كان بيرم التونسي في مصر رمز

التحدي وعنوان مأساة الطبقات الكادحة ومن خلال كتاباته (هو وأمثاله المبدعين) فهمت مصر الحقيقة واستوعب الشعب كلماته من خلال صوت ام كلثوم بسهولة ويسر، فما اقرب الشبه بينه وبين الشاعر والكاتب الكُردي جكرخوين (١٩٠٣-١٩٨٤) الذي من خلال الكلمة الصادقة في دواوينه الشعرية العشرة ضحى بحياته من اجل الوطن ومن ثم عبر النغمة الحماسية بصوت الفنان (شفان برور) كانت قصائده تهز الكُرد وكُردستان من الأعماق.

ضفاف الكرامة

أجمل مافي الحياة ان يتحسس الإنسان بلذة راحة البال، وأسعد مافي راحة البال عندما تكون الحرية هي المنال، وأحلى حرية تلك التي يستطيع ان يمارسها في مساحة تعود جميع حقوق ملكيتها له وحده، فيعز عليه الواجب الذي في حسن أدائه تصان الكرامة.

في هذه اللحظات يزداد عند الإنسان احترام الآخرين، ويكن لهم التقدير فيتفنن في لياقة الكلام ويتقن فن الحوار... وهنا ينشط الضمير ويفتح بابه لكل الخيرين، ولكن يبقى الحب هو الضيف الوديع الاوحد، اذا ماتفضل وجذب قلبين الى طاولة حوار ثم تعايش فتماسك... وأخيراً الذوبان في متاهات الذاكرة.

والذاكرة ذات المخزون الهائل من المعلومات والتجارب ترسم ـ دائماً- خريطة طريق الحياة للذين تتوازن عندهم فلسفة الحرية وممارستها في نظام تطبيقي مقبول.

ولكن من الممكن ان تصبح الذاكرة نفسها عند الذين تتزاحم مخيلتهم بفوضى الافكار والاعمال سلة مهملات تترك فيها القبلات والوعود والورود، او ربما الرموش الاصطناعية ... أو كلمات رنانة من ثقافة العصر، ومن سُمك تراكمها تنبت عليها آمال

واحلام تمل هي ايضاً من طول الانتظار فتتسلل خلسة الى شرنقة المذلة من دون اذن او جواز سفر.

هذه الوصفة وغيرها من أتاكيتات التمدن موجودة هذه الايام في كتلوكات الديمقراطية وأصبح التعاطي معها عادة تلازم عدداً غير قليل من الافراد او الجماعات او حتى بعض الدول من ذوات السيادة المنكمشة.

من اجل تبيان المسألة وتوضيحها بشكل أفضل، نقف عند حدود الدول، ونتمعن في كيفية تعامل بعضها مع ضفاف الكرامة.

فالدولة التي تخطط لنهضة شاملة في البلد كاليابان ـ مثلاً ـ تبدأ من تجديد نظام مؤسساتها التربوية والتعليمية، اما الدولة التي تسعى الى العدالة الاجتماعية، فأنها تركز على تقنين ورفع كفاءة مؤسساتها الامنية وقوتها البوليسية كألمانيا الاتحادية وبريطانيا، اما الدولة التي لاتريد الاثنين فانها تهتم بالشؤون الحربية، وكل جهودها تنصب في كيفية بناء وتطوير ترسانتها العسكرية تحسباً لخوض المعارك المستقبلية التي تنتظرها بفارغ الصبر.

الفرق بين الحالتين هو التباين بين فلسفتين مختلفتين، في الحالة الاولى يتم التركيز على فلسفة السلم، وفي الثانية على فلسفة الحرب، ولكل منهما عدد كبير من المُنظرين وجمهور غفير من المتطوعين وامكانيات هائلة تعتمد على بنية اقتصادية قوية، وفوق ذلك لكل منهما اسلوب خاص في الحياة.

في الحالة الاولى، تبقى حرية الفرد هي النجمة الاكثر لمعاناً في أفقها المنتظر، وتنال الاهتمام الاوفر في جميع جوانب الحياة اليومية، اما في الحالة الثانية فأن حرية الفرد، ينخفض مؤشر خطها البياني الى المستويات الدنيا بحيث يصل الى حد التلاشي فيرتاح المجتمع من صداع متطلبات الفرد ونزواته المملة.

هنا يحدد الطرفان، في قاموسهما الاجتماعي مفاهيم جديدة وجديرة بالاهتمام وتحتاج الى اكثر من دراسة، وخاصة في نسبها المعيارية حول الجميل وأجمله، والسعيد وأسعده، اما الحرية فتبقى حلاوتها على طرفي نقيض بين علقم يقتلها أو شهد يخلدها.

من خلال هذه الدراسات ـ ان وجدت- يأتي الجواب الوافي لسؤال حائر طالما انتظره العراقيون وهو:

ماهي المسافة التي تقف عندها دولة العراق من الفلسفتين؟! حقاً انه سؤال محير ولكن في الوقت نفسه وجيه ومنطقي، حيث يرى العراقيون دولتهم خلال عمرها غير الطويل الذي لايتجاوز قرناً من الزمان تسير دوماً على الحافات الخطرة، فتارة تجند كل قواها المادية والبشرية من أجل معارك المصير ضد من هو اضعف منها، ومرة تتململ كالحمل الوديع تجامل بود من هو أقوى منها.

ياترى هل هناك اختيار ثالث تطاوع فيه الصلابة المفرطة مع المرونة المذلة ليستقيم الوضع وترسو سفن الحرية في ضفاف الكرامة؟

من أسرار التحولات الصامتة

لماذا يكره الناس النهضة وتحولاتها عندما تأتيهم عن طريق التغيير المفاجيء، ويمقتون مكاسبها حتى وأن كانت عمليات بناء، أو توفير فرص عمل، أو خدمات بلا حدود؟ قد يرون أنفسهم في ترف وسراء ولكن من الاعماق يحسون بأنهم عن الحقيقة محرومون، يحنون الى الماضي وحلاوته، ويشكون من الدهر ونعمه.

وبعكس ذلك عندما يبتلي المجتمع بكارثة طبيعية او حملة ابادة، ويفقدون معها معظم ما يملكون، تراهم يتكاتفون ويتعاونون ويتآزرون في سبيل ايجاد مخرج يخلصهم من ذلك

الشر الذي افقدهم الجاه والمال، وما تبقى لديهم من الاشياء القليلة تصبح محور عملهم الشاق وكلهم أمل بان تنقشع المصيبة ويعودوا الى سابق ماضيهم.

وهنا يكمن السؤال الملح: لماذا الخوف من التغيير؟ وأي تغيير سواء أكان تقلبات اجتماعية سلبية أم تطورات حضارية ايجابية!؟

لابد هناك سبب معين، او ربما أسباب غير محددة، الا أن البحث عن الجواب الشافي المدعوم بالبراهين يتطلب الدخول في تفاصيل كثيرة، وهو عمل شاق قد تنتج عنه كمية غير قليلة من الشروحات التي يمل منها الباحث قبل المتلقي، ويضيع فيها الشك الممكن قبل الهدف الأساس.

هناك احتمال آخر يصب في منحى اللاجدوى من التطرق الى مثل هذه المواضيع وهو ان التعويد والتكيف والتأقلم مع عادات وأعراف متجذرة منذ قرون باتت من ضمن مقدسات المجتمع، لذا فأنها تتحدى اقوى قوة في العالم، وقلما يتجرأ احد ويعطي لنفسه الحق بأن يتجاوز عليها. والسبب الثالث هو ان السكون والركود هما حالتان متلازمتان مع ما هو سهل وبسيط، لذا فأن الإنسان القنوع الذي لا يبدي استعداداً للتجديد ولا يشعر بلذة الاستكشافات ولا يهمه حلاوة الحداثة أصلاً، نراه ينحاز دوماً الى حياة البساطة والمحافظة على ما هو معمول به، ولا يشغل باله بما هو متعب ولا يثقل كاهله بمتطلبات هو في غنى عنها، بل يميل الى ما هو واضح على تفكيره وخفيف في أدائه. أما الاعمال الكبيرة والمنجزات الضخمة فيتركها تسرد ضمن احداث الاساطير والقصص التي يشتاق الى سماعها في هدوء ليالي الشتاء الطويلة.

لا تتوفر هذه الاجواء وضمن هذه الشروط في حياة المدن الصاخبة، بل تتلاءم مع العيش الرغيد في القرى الهادئة، وربما تنسجم كلياً مع حياة البداوة التي تتطلب خفة في التنقل وبداهة في القرار وفراسة في التحديد وسهولة في التفكير وبساطة في العيش... لذا

فالبدوي او ربما القروي ايضاً لا حاجة لـه بـأن يرتـد الى ذاتـه ويـتمعن في الأمـور المعقـدة ليصل الى نتائج قد تختلف مع ما توصل اليه الآخرون.

هكذا تكون العشيرة كتلة بشرية واحدة تنضوي تحت لوائها مجموعات صغيرة متنقلة او مستقرة في قرى وواحات متفرقة تنتج ما يكفي بها رمق العيش، ويحتفظ الفرد بما يزيد عنه تحسباً لضيف يتكرم، او الايفاء بما يترتب عليه في البت بنـزاعات الثـأر، او اغـراء عائلة حسناء يغرم بها عنـدما يراهـا وهـو في جولـة صـيد او زيـارة مـريض او في حفلـة عرس.

على هذا الأساس تكون العشـيرة مكتفيـة في اقتصـادها ذاتيـاً، ولا تبـالي بالمخـاطر، لأنها مجتمعة قوة عسكرية تصد أي هجوم يهدد المجموعـة، أو تـدافع دون هـوادة عـن كـل فرد يتعرض لمكروه.

من هنا تتزكى روح الانتماء الى الأصل النقـي ولـيس للـوطن المصـطنع، والى الأرض المعطاء وليس للمنظومة الاجتماعية المقننة. لذا يبدو الفرد شاكراً على ما يتمتع به من نعم الحياة وما حظي بالمال والبنين.

وكان ابن خلدون (١٣٣٢- ١٤٠٦م) خير من تنبه الى هذه الحالة الـتي شـكا منهـا المجتمع في عصره وما يزال الوضع مستمراً الى يومنا هذا. فهو يقيم الصـراع بـين البـداوة والحضارة بشكل يفهم مؤيدو الطـرفين أن الحقيقـة تبقـى حيـة ناصـعة تغـذي الحيـاة علـى الارض بالرغم من المغامرات الفكرية والمعرفية التي يقترفها الإنسـان ومـا يترتـب عليهـا من تناقضات ومتاعب فيجسدها أبن خلدون في مقدمته على الشكل الآتـي: (والحضـارة كما علمت هي التفنن في الترف واسـتجادة احوالـه، والكلـف بالصـنائع الـتي تؤنـق مـن اصنافه وسائر فنونه، ومن الصنائع المهيئـة للمطـابخ او الملابـس او المبـاني او الفـرش او الآنية ولسائر احوال المنـزل... واذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المنـزلية الغاية تبعته طاعـة الشهوات، فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لاتسـتقيم حالهـا معهـا في دينهـا

ولا دنياها) وحسب رأي أبن خلدون فأنه يفضل البدو على الحضر وخاصة في الفصول التي خصصها لهذه المسألة الحساسة منها: (فصل في أن البدو اقرب الى الخير من أهل الحضر) وآخر حول (فصل في أن اهل البدو أقرب الى الشجاعة من أهل الحضر) وفصل آخر يحسم فيه رأيه الصريح عندما يعنونها بـ (فصل في أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة عنهم).

نستنتج مما سبق بأن الحفاظ على تلك المشاعر التي تراها البداوة صائبة أمر يستوجب احترامه وفي الوقت نفسه لابد من فتح الأبواب على مصراعيها لاستقبال ما يستجد في عالم المعرفة والاستكشافات الجديدة. فالتوازن بين الحالتين هو قمة مستوى الادارة الناجحة في أي بلد. ولكن عندما يختلط الحابل بالنابل وتتناطح الشرائح الأجتماعية في أعرافها واعتقاداتها او يحاول طرف فرض قيمه وطروحاته على الطرف الآخر فأنهما يدخلان في نفق مظلم دون أن يروا بصيص النور في الجهة المقابلة ويقابلون الحياة وجهاً لوجه من دون دليل أو خريطة طريق، وهكذا يبدو ان نصفهم أحرار يعملون ليل نهار، والنصف الآخر اكثر حرية ولكنهم في غبطة النوم يحلمون.

في الطب الشعبي حكم و مواعظ

حكاري من الأقاليم المهمة في كُردستان, قلما توجد منطقة تنافسها من حيث جمال الطبيعة وتأريخها المشرق الذي يضفي رونقاً وأهمية على الدور الذي لعبته الأُسر الكُردية العريقة فيها سواء على مستوى العلم و الأدب, أم على مستوى السياسة و إدارة المنطقة على أحسن وجه. يخصص الأمير شرفخان البدليسي فصولاً من كتابه (شرفنامة) لذكر أمراء هذه المنطقة. ومما زاد من أهمية حكاري في التأريخ الوسيط وما بعده, انها

كانت تقع في قلب الأحداث التي غيرت مجرى التأريخ لا في الشرق الأدنى فحسب بل في العالم أجمع, وخاصة أثناء نشوب معركة جالديران عام (١٥١٤) بين الإمبراطوريتين العثمانية والصفوية، حيث كان آنذاك يدير منطقة حكاري (زاهد بك) حفيد الأمير ذي الكف الذهبى. كان لزاهد بك منزلة كبيرة عند شاه ايران فيخاطبه بـ (العم) أثناء المداولات الرسمية، لكن الوضع اختلف في عهد ابنه (مَلَك بك) وزاد سوءاً بعد أن تولى حفيده زينل بك إدارة إمارة حكاري واختلف مع شاه ايران الى حد الاحتراب. في سنة (١٥٣٥) ذهب الى الاستانة ليقدم تأييده للسلطان العثماني فقُبل بحفاوة بالغة هناك و لكن أثناء عودته ماراً بدياربكر فجزيرة بوطان وثم إلى حكاري, دبر له بدر بك أمير جزيرة بوطان مكيدة في الطريق وأرسل قوة من خيرة رجاله لقتله. نصبت القوة كميناً في أحد المضايق الجبلية الصعبة و قتلوا المجموعة و جلبوا رؤوسهم إلى الأمير. ولما استفسر الأمير بدر عن رأس زينل بك، كانت إجابتهم قاطعة بأنهم لا يعطون الحق لأنفسهم بأن يتمثلوا بجثة كبير قوم وقع في أيديهم. عندئذ أرسل الأمير بدر قوة ثانية لجلب الجثة. رأت القوة أنه مصاب بأكثر من جرح ولكنه مايزال على قيد الحياة وأتوا به الى بلاط الأمير, ولما رأته (ميربانو) أي السيدة الاولى في القصر عاتبت الأمير على فعلته وأخذت الجريح الى جناح الحريم وطلبت من خيرة حكماء الإمارة أن يبذلوا ما في وسعهم لمداواته, وما أن مرت أسابيع حتى استرجعت عافية أمير حكاري, ندم الأمير بدر على فعلته, بدأ عهد جديد من العلاقات الطيبة بين الطرفين استمر اكثر من قرنين أي إلى نهاية الإمارتين على يد الجيش العثماني في منتصف القرن التاسع عشر.

ماعدا التأثيرات السياسية و الإدارية في هذه الحادثة الأليمة والمهمة في عين الوقت, لفت إنتباهي الى حالة غريبة أكثر تأثيراً من الجوانب العسكرية والدبلوماسية, ألا وهي التطور الطبى في ذلك العصر, كيف استطاع حكيم القصر ان يداوي الجريح وما نوع الأدوية وأساليب الجراحة التي كانت السبب في توطيد العلاقات. بعكس ذلك لو لم يفلح

الحكيم في مهمته تلك لكانت الأمور تسير بشكل آخر ولتغير تأريخ الكُرد وجرت الأمور على عكس ما وصل إليه الآن.

من خلال هذه الالتفاتة بدأت استرجع حالات أخرى إلى الذاكرة (وما أكثر الإنجازات و المآثر و الابتكارات في تأريخ الكُرد).

ولكن أكثر الحالات المثيرة التي عجبتُ بها, كانت حالة حكيم كُردي آخر عاش قبل إمارتي حكاري وبوطان. يحكى عنه أنه عندما كان يجري عملية جراحية في دماغ أحد المرضى, رأى أن دودة صغيرة كانت قد التصقت بغشاء الدماغ فلم يتمكن من سحبها خوفاً من حدوث تمزق في الغشاء, هذه الدودة التي توجد في رأس الإنسان تسمى بـ (نوژه noja ـ) وهي مفردة كُردية أصيلة. فما كان من مساعد الحكيم الشاب الذي يعمل تحت إشرافه إلا أن انتبه إلى الوضع المحير لأستاذه فقال له بلغته الكُردية : (نوژه بسوژه) أي (أحرق الدودة) ففهم الحكيم القصد فجلب بملقط حديدي رفيع ووضعه على النار وكوى به الجزء الظاهر من الدودة, فما كان إلا لحظات و فتحت الدودة مخالبها الرفيعة عن الغشاء الدماغي الحساس.

أعتقد أن هذه العملية هي أدق وأكبر من العمليات الجراحية التي أبداها حكيم بوطان, من خلال هذه الحالة الثانية أستذكر شيئاً غريباً آخر وهو أن الشعب في أيامنا هذه يشبه الدماغ البشري من حيث أهميته وحساسيته الدقيقة وعندما يصاب بشيء يشبه الدودة (نوژه) وتشل قدراته نتيجة هذه الحالات المزرية الكثيرة التي نراها الآن مثل الفساد الإداري والمحسوبية والمنسوبية وعمليات السطو المسلح وفقدان بعض القيم الإنسانية ..... وغيرها من الأمور التي يدركها المواطن مهما تواضع مستواه الثقافي , و لكن تلك السلبيات مجتمعة مثل تلك الدودة التي تمتص رحيق العقل الإنساني.

ويبقى الشيء الأخير وهو أن الأيادي التي تود أن تقوم بالإصلاحات وتعالج المعضلات و تكافح الإرهاب فعملها يشبه إلى حد كبير عملية ذلك الحكيم الذي أراد أن يرفع دودة

(نوزة) من الدماغ, لذا ينبغي أن تكون لتلك الأيادي الدراية الكافية والخبرة العالية والحنكة المبدعة عندما تزيل تلك السلبيات. لأن سلامة الدماغ البشري من حيث الدقة و الرعاية تتساوى مع تأمين حقوق الشعب. فكلاهما لا يمكن الإفراط بهما ومن دونهما يختل توازن الحياة.

أهمية الخريطة الذهنية في الثقافة المعاصرة

من حق الإنسان أن يحب أشياء تعجبه، او يكره أشياء أخرى لايميل اليها أو يستفز منها. لو أخذنا هذه المعادلة على محمل الجد وقارننا بها الحلقات المتسلسلة من يوميات أي إنسان ضمن إقامته كمواطن داخل أية دولة يحمل جنسيتها، فإنه يود أن يقيس مجريات حياته المهنية وهواياته الثقافية او نشاطاته الاجتماعية مع السيل الجارف للتطور الحضاري والتكنولوجي الذي يغزو العالم حالياً، وذلك ليعرف موقعه في المجتمع، حتى وإن كان ذلك الموقع بحجم الذرة التي لاترى بالعين المجردة.

عندما يريد المواطن أن يبحث عن موقعه في المجتمع، عليه أن يبدأ اولاً من السؤال القديم ـ الجديد الذي يركز على معرفة الإنسان لنفسه!؟

قدياً، تكهن الإنسان بهذه المسألة وحاول أن يجيب على السؤال الذي حير الملايين من البشر عبر العصور المتلاحقة، أي منذ بدء الحضارة وحتى يومنا هذا. وينحصر السؤال المبطن في صيغة الامر بجملة قصيرة ذات كلمات واضحة (أعرف نفسك !؟).

هذا السؤال الذي طرحه أحد أكبر فلاسفة اليونان وحاول الاجابة عليه على أحسن مايرام، واستمر الاخرون يتبعون خطاه جيلاً بعد جيل، توصلوا الى نتائج مهمة بنى عليها الإنسان فكره و فلسفته في الحياة.

لكن ما يهمنا في هذه العجالة الاستفهامية، هو السؤال الثاني الذي يبحث فيه الإنسان عن موقعه في المجتمع، والذي يتطلب وعياً بمسألتي الواجبات والحقوق، والماماً بثقافة قانونية تمكنه من بناء علاقاته مع الاخرين، ورسم خريطة ذهنية تحدد بواسطتها الخطوات الاساسية التي تربطه بعمله المهني من جهة ومع الاخرين من جهة ثانية .

تأتي العلاقة مع الاخرين في مقدمة اهتمامات كل مواطن، وذلك لكون كل واحد يحمل أفكاراً تختلف عما يدور في خلد غيره. ومن المفيد جداً أن يستمع كل فرد الى أفكار الاخرين وخاصة فيما يتعلق مع مفهومه عن الخريطة الذهنية.

لكي لايخفى علينا المعنى الحقيقي للخريطة الذهنية يمكن توضيحها على أنها الوسيلة الأسمى لإغناء الفكر وتبادل المعلومات بين مجموعة أفراد مما يسمح بالحصول على مجموعة حلول لمشكلة واحدة، وبذلك تختلف هذه الطريقة عن غيرها فيما لو عمل كل مواطن بمفرده. ومن هنا تعتبر الخريطة الذهنية من أحسن الوسائل التي تؤديها مجموعة من الناس عن طريق طاقة العقل الجمعي.

لو أن الفضل في اجراء دراسات حول التفكير الجمعي يعود الى العالم النفساني يونك، حيث طور أفكار أستاذه فرويد الى ما هو أبعد ما في تجليات أعماق النفس البشرية باعتبار كل مواطن فرداً له كيانه الخاص وشخصيته المستقلة.

تأتي أهمية الخريطة الذهنية كونها الاساس المتين في أي تخطيط عمراني او برنامج استثماري او مشروع تعاوني، حيث تقوم مجموعة على عمل واحد، فقيمة الانتاج توازي مجموعة قدراتهم العقلية ... وهنا تكون نقطة التحول من المجهود الفردي الى المجهود الجماعي، الذي يتطلب مهارة ولياقة وحسن تدبير، هذه الامور مجتمعة هي أعلى درجات الوعي لدى الإنسان وبها يستطيع أن يحافظ على خصوصيته وفي الوقت نفسه يشترك ضمن فريق عمل، ويؤدي دوره على خير مايرام.

أصبحت الخريطة الذهنية مصطلحاً فكرياً ومفهوماً اجتماعياً لها دورها المهم في تنظيم الفكر والتخطيط السليم والدراسات المبرمجة، الا أن مؤسساتنا الاقتصادية والاجتماعية و التربوية والثقافية وحتى الخدمية ماتزال عاجزة عن استيعابها والاستفادة منها. وهي نقاط ضعف يعاني منها مجتمعنا، وعلى سبيل المثال : يصعب على الشركات العاملة أن تؤسس هياكلها على ضوء مجالس الادارة والفروع المساندة لها، او اسلوب التعامل بالأسهم، او ايداع العملات والعمل بمبدأ الادخار والتوفير، وكذلك مسائل التأمين و الضرائب، او حتى اتقان فن الالعاب الرياضية التي تتطلب مشاركة جماعية والتنسيق ضمن فريق واحد متكامل مثل كرة القدم وكرة السلة وغيرها من الالعاب والاعمال التي لابد من ايجاد معالجات ضرورية لكل منها قدر المستطاع. ولو أن العمل في هذا المضمار يحتاج الى جهود كبيرة وامكانيات كثيرة يصعب توفرها في الوقت الحاضر، الا أن تأخيرها او اهمالها يتطلب ضريبة حضارية من المؤسف أن يدفعها شعبنا المسكين بسبب التقصير في التخطيط المتقن وغياب المهارات المدركة في ادارة الاعمال وبناء الإنسان على حد سواء.

لكي نتجاوز المحنة ونبعد شبح الضرائب الحضارية او الخدمية عن كاهل الوطن و المواطن على حد سواء، لابد من البدء بالخطوة الاولى على ترسيخ الخريطة الذهنية عند جميع الشرائح الاجتماعية وإن كانت في مستويات بدائية او متدنية بعض الشيء، لأن اجراء مثل هذه العمليات في هذه الايام صعب جداً ولكنه ممكن.

نعمة الحرية ونقمتها المستترة

يسعى القائمون بادارة كثير من مراكز تدريب الكبار وتأهيل العمال مهنياً، وكذلك منظرو التخطيط التربوي للمدارس الاعدادية والجامعات لتطبيق برامج تطوير الكفاءات

واستثمار القوة البشرية في ضوء الاعلان العالمي لحقوق الإنسان، حيث يركزون على الحرية الفردية ويجعلونها محور اهتماماتهم القانونية والتعليمية، ظناً منهم أن هذا الاسلوب هو المسعى الأفضل في التدرج الحضاري المنشود على المستويين الداخلي والخارجي، حيث المستوى الاول يضم التعليم الرسمي الملزم والتثقيف الجمعي المقبول. أما المستوى الثاني فيشمل الانفتاح والعلاقات المتكافئة مع الآخرين. اثبتت التجارب صحة هذا التوجه الذي تتبعه معظم الدول في الوقت الحاضر، وخاصة تلك التي قطعت مراحل متقدمة في هذا المضمار، لكن الغريب في الأمر انها غالباً ما تتفاجأ اثناء دراسة نتائج عمليتي القياس والتقويم او عند تحليل الاستفتاءات التي تجري على مواطنيها وخاصة من هم في العقدين الثاني والثالث من العمر حيث يميل معظمهم الى:

١. ممارسة العنف في طريقة تعاملهم مع الآخرين، والتعرج الى الأساليب التي تشبع روح التمرد، لذا تكون معظم اهتماماتهم حول الافلام والنشاطات التي لاتقبل العمل تحت سقف القوانين المرعية.

٢. تكون غريزة الجنس الجياشة هي الغالبة على تصرفاتهم والمُسيرة لاتجاهاتهم، وتشغل مساحة كبيرة من سلوكهم الشخصي، حيث يسعون للتجاوز على كل القيود التي تحدد التعامل السليم بين الجنسين.

٣. اللجوء الى الطرق التي تبعده عن صخب ومشكلات المجتمع، وذلك عن طريق التدخين واستعمال المخدرات، مما يسهل عليه ان يحلق في الاجواء الرومانسية الجميلة في مظاهرها، والخاوية في محتوياتها، ويعتمد في قياسه للاشياء على الاسلوب الذي يضمن قوته الجسدية وامكاناته المالية السخية وحسن طلعته الجمالية ولو اقتصرت كلها على لحظة لذة آنية.

في مفترق الطرق التي تتفرع من هذه الأزمة، تحاول الحكومات ايجاد حل توافقي بين خلق وعي في التصرف السليم للمواطنين وبين رفع مهاراتهم الانتاجية والخدمية كل حسب

قدراته الذاتية، ومن دون المساس بحريتهم الشخصية، وذلك عن طريق سن قوانين واصدار قرارات ونشر تعليمات حول ممارسة الواجبات وضمان حقوق الجميع والحفاظ على حرياتهم الشخصية.

عندما نتكلم عن القوانين التي تضمن الحقوق والحريات تتبادر الى الذهن انواع الاساليب التي تخترق حريات الناس والتجاوزات التي تسلب حقوق الآخرين.. أي ان هناك من هو الأقوى والاقدر على القيام بمثل هذه المخالفات، لذا يكمن الحسم في نوعين من الاجراءات القانونية:

١. قوانين تضمن حقوق وحريات الجميع بدءاً من القوي ونزولاً الى الحلقات الضعيفة في المجتمع. فمثلاً في البداية تضمن حقوق وحريات الرجل لانه هو الاقوى... ومن ثم حقوق وحريات الحلقة الاضعف منه وهي المرأة... ومن ثم الطفل حيث الحلقة الاضعف جداً.. واخيراً تأتي حقوق الحيوانات الاليفة التي لا حول ولا قوة لها امام جبروت الإنسان.

٢. اما النوع الثاني من الاجراءات فتبدأ القوانين بضمان حقوق وحريات الحلقات الضعيفة في المجتمع، وتؤكد عليها بكل جد وصرامة حيث تكون حقوق الطفل هي الاولى والاجدر بالأهتمام والرعاية... ومن ثم حقوق وحريات المرأة بعدها... يأتي دور الرجل ذلك الكيان المصدر لمعظم الخروقات والتجاوزات على حرية وحقوق الاخرين من طفل ومرأة كانسان من جهة، ومن جهة اخرى على الحيوانات والبيئة بشكل عام.

ومن هذه البدايات البسيطة في التنظير والمعقدة في التطبيق تبنى الدول وتتشكل الحكومات... ولكن في الحالة الاولى تترسخ أسس الدولة الدكتاتورية التي تنخرط بسهولة ضمن قائمة الدول الفاشلة وتفتخر بهيمنة رجالها على تطبيق القوانين والمحافظة على المبادئ. اما في الحالة الثانية فتبنى الدولة الديمقراطية التي تتباهى بتطورها الحضاري واحترامها لحقوق الإنسان.

الترتيب المنطقي لإستراتيجية الإعلام

لا أدري لماذا يتنمر الاعلام ـ هذه الايام ـ في الساحة السياسية و يرى نفسه مُنظرًا و متناظرًا في الجوانب الاقتصادية، بل وفي أحيان كثيرة يقوم بدور المصلح الاجتماعي و بإمتياز باهر، او يفرض توصياته من موقع االاسترشاد الثقافي... وهكذا يحشر نفسه في جميع مفاصل الحياة من دون أن يراعي الخطوط المسموح بها لصلاحيته، والمساحات المقبولة للتحرك عليها من دون حدوث اية تجاوزات على القوانين المرعية وحقوق الإنسان . وكل رصيده العلمي وخبرته العملية وكفاءته المهنية هو تحميل الاخرين أسباب كل المعضلات والمشاكل وكأن خطيئة الجميع هي اللامبالاة وعدم الاعتماد على التخطيط السليم، ومعتبراً التخطيط هو العصا السحرية في إزالة المعوقات ومحو التخلف، ويعتقد في أحيان كثيرة بأن تأخرنا هو نتيجة حتمية لعدم وجود تخطيط، وتتكرر عندهم هذه المفردة مرات ومرات ناسين او متناسين على أن التخطيط نفسه هو علم متفلسف له منهجه الأكاديمي ومفهومه الحضاري، وعلى المستوى الشعبى هو الخطوة الاولى في كل عمل فردي او جماعي، و بدونه لايمكن أن يؤدي أي إنسان شيئاً سواء أكان صغيراً كشرب قدح من الماء او كبيراً كإدارة دولة. فكل الافكار تعتبر تخطيطاً يمكن تطبيقها حين تتوفر الظروف والامكانات ... ومن هنا يمكث الإعلام في غفلة مطمئنة، وتهتز أسسه وركائزه وأصوله ويدخل مع المجتمع في حوار الطرشان .

ومن الطرف الاخر المقابل لهذه الحالة، أي عندما تتجانس مفردات الحياة في نسق يتحرك ضمن شفافية ذكية، عندئذ يقف الإعلام فوق المربع الصائب ويدرك واجبه الاساس إذ يتجنب مغازلة المشاعر او إثارة الغرائز، وعلى عكسه تماماً يسعى جاهداً في سبيل أن يخاطب العقول حصراً ويتعامل مع الفكر فقط وحتى عندما يتطلب الأمر أن يتكلم عن

مواضيع تتعلق بالأحاسيس والغرائز لابد أن يكون ذلك عن طريق الفكر ويتحكم العقل في إعداد وتحرير مايخص مثل هذه الجوانب المهمة التي لايمكن أن تهمل في الإعلام أساساً، لانه مايزال القوة التي تتغلغل ويتواصل تفاعلها مع المستوى التذوق الجمالي الذي يؤديهما الأدب والفن وكذلك المستوى العلمي ـ النظري المستخدم في العلوم التطبيقية المختلفة. ولايتكامل هذين المستويين إلا بتفعيل المستوى الثالث الذي يؤديه الإعلام بمختلف قنواته وهو المستوى الاجتماعي ـ الوظيفي ويرسم خطوطه ضمن الخريطة الادراكية الوجدانية للشعب.

أما دور الإعلام في تلك المستويات، فغالباً ما يشمل على ثلاثة مسارات متوازية من حيث تحديد الاهداف، ورصد الامكانيات اللازمة لتحقيقها، وكيفية إستخدام الاساليب المتاحة في أدائها الصائب. أي أن هناك تخطيط مسبق يصب أهدافه في خدمة الاستراتيجية العليا للبلد، تلك الاستراتيجية التي تعتمد على الفلسفة المنبثقة من التصورات والافكار التي يعتقدها أصحاب القرار انها صحيحة، ويراها المواطنون أنها مقبولة وجديرة بالتنفيذ، وعند هذه النقطة تتوازن فلسفة الديموقراطية كنظرية لسلوك متمدن (إن صح التعبير) وتطبيقاتها كمسار لادارة المجتمع.

من هذا المنطلق، فالإعلام فن حضاري بالضرورة، فيه مجال رحب للتعبير عن الأفكار و الآراء بالشكل الذي يضمن فيه حرية الإنسان. وهو أيضاً ـ أي الإعلام ـ وسيلة لنقل الاخبار والمعلومات بصورة صحيحة وواضحة ليسهل ويساعد على عملية إنتقال الإنسان من مجتمع مغلق الى مجتمع متفتح يؤمن بالتطور.

أما الترتيب المنطقي لمكونات الاستراتيجية العامة، فيبدأ من القانون الاساس الذي يحتوي على أهداف عليا ثابتة للوطن والشعب، ولايمكن التجاوز عليها او المساس بها على المدى المنظور في أقل تقدير، أي تعتبر ثوابت أساسية كفيلة لبقاء المجتمع. وما أحوج أن تستوعب قنوات الاعلام ضمن سياساتها العقلانية هذه الاهداف الثابتة لتتمكن أن

توضع على ضوئها سياسات إعلامية تشمل جميع نواحي الحياة العامة، وتكون بمثابة برامج تنفيذية تستمد خططها من الاستراتيجية الاعلامية المبنية على الاستراتيجية العامة للبلد.

قيمة الخبرة المتأصلة

هل تعتبر بطاقة الاحوال المدنية رمزاً للجذر الذي يرتكز عليه الإنسان، وعن طريقه يرتبط مصيره بأرض الوطن التي تأويه بكل رفق و تودد!؟ ... إن صح هذا التعبير فإن أرض الوطن تغذي فروع متشعبة لجذور كثيرة موغلة في أعماقها الى الحد الذي تزداد فيه أهمية تلك البطاقة الرمز لتلك الجذور و تصبح لهم هوية الحياة.

صدق من قال " ما حك جلدك مثل ظفرك" وكذلك الجذور وحدها تعرف ماذا تريد من الارض و تدرك قيمة ما موجود في باطنها، وتتقن كيفية التعامل مع ديمومة إستثمار كوامنها على خير مايرام ... وهكذا تتكامل عمليتي التفاعل والتكوين، و بإندماجهما تنبثق النواة الفاعلة في بناء حضارة تحدد مدياتها عنفوان الجذوع المترامية في فضاء الحرية، وكل قوتها تأتي من الجذور المتأسرحة في الاعماق.

جاء نابليون الى مصر جالباً معه خيرة علماء فرنسا وكل أسباب التطور. إستفادت منهم المنطقة بما فيها مصر طبعاً. كان عمر تلك الحضارة الفتية قصيرة حيث انتهت فاعليتها وتلاشت رونقها بجلاء الجيش المحتل. ويعود السبب على ضوء ما ذهبنا إليه آنفاً، أن المحتل او المستعمر مهما تشبث بأديم الارض وحاول تحليل قشرتها وإستثمار بواطنها كما يشاء، وكم ألبسها زينة وجمالا على خير مايرام، إلا أنه لايستطيع أن يتجذر في الاعماق، لابد وأن يذهب ريحه بعد حين.

هكذا أثبت التأريخ بأن خبرة الاجنبى في أية بقعة غير بلاده تكون محدودة، وربما تكون عديمة الفائدة إن لم تندمج في المشاريع التي تخططها وتديرها أصحاب القامات المتجذرة هناك، لأن الخبرة المتأصلة لها صفة الشمولية وسعة الاطلاع وديمومة العمل، إضافة الى قابليتها لاحتضان الخبرات المتخصصة والمهارات العلمية المستوردتين من الخارج، و إستيعاب معلومات جديدة بطرق مباشرة او غير مباشرة تفيد في إستكمال وتطوير المشاريع المختلفة التي تتبناها إستراتيجية البلد.

أما العلم فهو ملك الإنسانية جمعاء والبحث فيه فضاء مفتوح يسلكه المتمكنون بدون إستثناء. والاستفادة من الابتكارات و الاستكشافات الحديثة حق مشروع يمارسه الكل ولو أن الفضل يعود مشكوراً الى الذين يخترعون ويبحثون عن الجديد دوماً ويقدمونه كإنتاج له قيمته ومواصفاته وسوقه الاستهلاكي من خلال حقوق محفوظة تضمن أثمان جهودهم المادية والمعنوية.

خلاصة القول أن التجارب الاجنبية المستوردة بالرغم من إيجابياتها وقوة تأثيرها، إلا أنها غالباً ما تكون سلبية او ناقصة وتضر أكثر مما تنفع وخاصة عندما يكون البلد المستقبل في مرحلة النهوض والبناء. وهناك أمثلة كثيرة تؤيد ذلك منها: أثناء النهضة الصناعية التي قام بها اليابان، اوصى الخبراء الاجانب بأن منطقة (هوكايدو) ذات المناخ القارص والتي تقع في أقصى شمال البلد إذا ما أريد أن تستثمر فإنها تصلح لانتاج الالبان وزراعة البطاطا، إلا أن المزارعين اليابانيين لم يأخذوا بإستشارتهم وأصروا على جعلها منطقة خاصة بزراعة الارز رغم أن هذا العمل يتطلب جهوداً مضاعفة و مصاريف أكثر مقابل زرعها بمحصول آخر كالحنطة مثلاً... وأخيراً تبين صواب رأي اليابانيين و تكلل هذا الموقف بفوائد جمة حيث أن في هوكايدو اليوم أكبر مزارع الارز في اليابان و تسد حاجة البلد بل وتفيض أيضاً، بالاضافة الى ذلك أن هذا المحصول يعطي ضعفي

الوحدات الحرارية إذا ما قيس بمحصول آخر كالحنطة مثلاً فيما لو زرع المحصولين في مساحتين متساويتين.

أبدع اليابانيون في مجال التعامل مع الخبرات الاجنبية ولهم تجربة نادرة ومتطورة في هذا الخصوص، وهو ما فعله الكوريون الجنوبيون والماليزيون و السنغافوريون.... وبلدان أخرى أرادت أن تتقرب من حدود الدول المتقدمة، حيث اعتمدت في استراتيجيتها النهضوية على الذات وأحست مسبقاً بمدى محدودية قيمة الخبراء الاجانب في نقل التجارب الحديثة و التكنولوجيا المتطورة ونتائج أبحاثهم العلمية، وأهم من كل ذلك أن هذه الدول قد أيقنت في توقيتها المناسب أن القيمة الحقيقية لهذه الجوانب تكمن في أن تكون مصادر معتمدة في استثمار الفكر الوطني و استغلال الجهد المحلي حسب ما يمولهما رأسمالهم المتواضع.

الاستخدام المشروع للقوة النائمة

يتباهى الطفل بقوة والده دوماً، ويراه سوبرماناً عظيماً حتى ان كان المسكين ذا قدرات محدودة، ويعتقد انه أقوى رجال العالم ولو كان مقعداً في فراش المرض، يدرس علماء النفس منابع هذا الاعتقاد ولهم في هذا الشأن آراء مختلفة، لسنا ـ الآن ـ بصدد مقارنتها بقدر ما نحن في حاجة الى مغزاها التعبيري لنستحوذ على فكرة جوهرية تهمُّ مجتمعنا من الصميم.

في الوهلة الاولى نرى ان هذه المسألة بسيطة وبدائية الى حد ما، الا ان من يتمعن في خلفياتها ومآربها يدرك جلياً اهمية انشغال محللي سايكولوجية الطفل بهذه المسألة ـ أي

اعجاب الطفل بوالده ـ ومن احد الاسباب الرئيسة لذلك كونها جوهر معادلات كبيرة ومعقدة يصعب على الكثيرين استيعاب مدياتها وتأثيراتها الآنية والمستقبلية.

يضيف البعض سبباً آخر الى مجمل ماتوصل اليه الباحثون وهو ان اعجاب الطفل بوالده يأتي من نظرته الى تعامل من هو اكبر منه عمراً واكثر قوة لكنه لايستخدمها في السيطرة عليه، بل يمزجها بالعاطفة ويقدمها له على طبق من المحبة والحنان، وخير الآباء من استثمر العاطفة والحنان وجعلهما أساساً للتربية الذكية التي يكون الطفل فيها هو محور عمليتي التعلم الذاتي واكتساب السلوك القويم، اما مايملك من القوة فيجعلها طاقة كامنة ويؤجل استخدامها باستمرار، الا انها تؤمن الاحتياط الذي يغذي المعنويات التي تحتاج الى الجرأة، ويقوي الارادة المطلوبة عند الحاجة.

لو كانت هذه المعادلة صحيحة من حيث التنظير والتطبيق، جازت مقارنتها مع النظام الاداري لأية مؤسسة انتاجية او خدمية، والذي يتكون من مجموعة ضوابط صارمة وتعليمات دقيقة لاتقبل الاهمال او التهاون، وكل ذلك من أجل رفع القدرة الفنية للمؤسسة، وخير الاداريين في هذا المجال من هم يجعلون مرؤوسيهم يشعرون بالمسؤولية، ويحترمون آداب المهنة حد العشق، من دون الحاجة الى استخدام لغة التهديد او قوة القانون في تطبيق التعليمات، بل جعل القانون والضوابط طاقة نائمة، يمكن الرجوع اليها اثناء الحاجة الملحة، والتي قلما تأتي الا في الحالات القصوى، او ربما من المستحيل الاعتماد عليها فيما اذا كان باب المبادرة والابداع مفتوحاً على مصراعيه امام العاملين في تلك المؤسسة، وهم على يقين تام بأن المساواة والعدالة تشملان الكل وما عليهم الا ان يفكروا مثلما كان الطفل يفعل قبلهم تجاه ابيه.

تتوسع مديات هذه الدائرة لتشمل كيان اكبر الدول اتساعاً، واعظمها قوة، وهنا تأتي اهمية الادارة الحكيمة المتقنة التي تنصب كل توجهاتها في كيفية صيانة كرامة المواطنين وتأمين معيشتهم، والمضي بهم من خطوة متطورة الى اخرى اكثر تقدماً، حيث لايمكن

لاية دولة ان تتخطى كل الحواجز المنيعة او تتغلب على جميع التحديات المعيقة ان لم تكن لديها منظومة قانونية دقيقة في صياغتها وشفافة في تفسيراتها وجريئة في احكامها ومنضبطة في تنفيذها.

عندما يضمن مثل هذا النظام الاداري المستقر والمنزوي في سبات هادىء، ولكنه على اتم الاستعداد لتلبية أي ايعاز مرسل اليه ومتيقظ لتنفيذ أي واجب يكلف به.

نستنتج من المعادلات الثلاث أعلاه ان القوة الكامنة خير من القوة المستهلكة، وان الحكمة المطبقة خير من الحكمة النائمة، لانه في الحالة الاولى تستخدمهما عند الحاجة ووظيفتهما تصحيح المسارات الخاطئة وضبط الحالات المنفلتة، بينما في الحالة الثانية فأن الحكمة لاتنفع ولاتضر، وتصبح القوة العصا التي تلوح في وجه المستضعفين وتهدد كل من لم ينفذ اوامر المتسلطين.

ظلال المحبة الكونية

أكره السطوح المستوية جميعها، سواء أكانت صغيرة مثل ورقة الأمتحان، أم كبيرة بعض الشيء كمساحة المعركة ويزداد كرهي لهذه السطوح حتى يصل الى الإنسان عندما يكون سطحياً.

السطح- هنا- يعني الشكل ومن الشكل مايقتصر على الطرف العلوي فقط، لذا فانه يخلو من أي جمال لكونه قلما تظهر للعيان كينونته. وفي الوقت نفسه يفتقر الى المعنى لعدم جدوى معرفة خفايا محتوياته الداخلية... وما قيمة الشيء ان لم يكن جميلاً بحقائقه، ومفيداً بمباحث معانيه!؟

من هنا يتضح الشيء القليل من السبب الوجيه الذي يدفع بالإنسان السطحي ان لا يفقه الحياة من كونها مراحل معرفية مستمرة، ولايدرك تجلياتها المتشعبة التي تتوغل الى اعماق الحضارة البشرية بكل هدوء وتودد.

قديماً، عندما كان التفكير الجمعي للأنسان ينحصر في هذه الزاوية العمياء، كان جل اهتمامه هو حب السطوح المستوية حتى ظن ان الأرض نفسها مسطحة، وان الطريق الى العلا مستقيمة... وكان هذا هو اليقين الذي لا يقبل الشك.... ومن لم يع هذه الحقيقة الدامغة يحسبونه غبياً ويستدرجونه نحو المهالك، وفي أحيان كثيرة كانوا يتعاملون مع غباء اولئك المساكين كأنه نوع من الانحراف، وقد يصل حد الكفر ايضاً وخاصة عندما يتجاوز الأجزاء المرئية من السطوح المستوية، ويحل دمه لأنه ينكر الجميل ويجادل الحق في قداسته بل ويحاول اثبات عكس ذلك مع سبق الاصرار.

في الماضي البعيد حاول أحد المعارضين ان يثبت لأنصار السطوح المستوية ان الأرض مكورة، لكن تعنت الانصار بمواقفهم المحافظة وتشبثهم بآرائهم السطحية حال دون نجاح العالم الموهوب في حينه، الا أن الزمن كان كفيلاً بترسيخ تجاربه فيما بعد، بل وتصبح قواعد وأسساً لعلوم كثيرة وابتكارات جمة نحن في غنى عن ذكر اهميتها بل وحتى تعدادها في هذا السرد السريع. وفوق ذلك أصبح ذلك المسكين أحد العظماء الذين يبرزهم التأريخ باستمرار، أما الأنصار الجدد للسطوح المستوية ما يزالون يمثلون جمهرة سفسطائية واسعة وقوية، تثرثر بلا هوادة، وتقيس الخير والشر بمعيار الفن التاسع الذي لا يعرف أحد أسسه العلمية سوا حكمتهم القائلة: (أترك العلم يذهب الى الجحيم، وأطعن صاحبك من الخلف لكي يعرف الناس أن من سيكون في المقدمة هو أنت وحدك).

ما جدوى وجودهم في المقدمة، لو كان همهم الاوحد هو الاستهلاك غير السليم لأن الأمية الاقتصادية بدت تنخر عقولهم وافقدتهم البصيرة، فضاع عليهم النظر بأبعاده ومقاييسه، وبدؤوا لا يرون سوى بضع أمتار لا تكفي الا لإسرتاحة قصيرة يقضي عندها عاشق الأسطح حاجته امتلاءً وتفريغاً، وصدق من قال بحقهم (أنهم معامل براز متجولة). لا نفع فيهم ولا هم مصلحون.... وهكذا يكون الإنسان السطحي والسطوح المستوية طرفين في معادلة مختلة وكلاهما لا يعرفان التفاعل مع تصادفهما او التوغل- ولو قليلاً- الى ما وراء المنظور الذي غالباً ما يكون زائفاً او فيه الشيء الكثير من الغش والخداع.

ما يستثنى من هذه القاعدة شيء واحد وهو المرآة، لأنها مع كونها مسطحة ـ في أكثر أنواعها- الا أن فيها من العمق المخادع ما يجعلها تعكس كل جسم يقابلها، وفي الوقت نفسه لها قوة الجذب بحيث تجر أثقل ما في الكون الى أحشائها من دون خوف او تردد.

وربما هذا هو السبب الذي يدفع جميع الكائنات، جماداً وأحياء، الى التفنن في تغيير سطوحها الى اشكال غير مستوية... منها ما يحولها الى نتوءات مثل الجبال، او أشكال متحركة مثل الصحارى، او مجسمات غير مستقرة مثل البحار، او ألياف محدبة ومدورة مثل الغابات...

وهكذا تتخلى الكائنات عن سطوحها المستوية وكأن عملية التخلي اصبحت محبة كونية يستظل تحتها الجميع ماعدا بعض الناس الذين لا يرون غير تلك المساحة المستوية الصغيرة التي أمامهم.

عظمة الإنسان في نجاحاته

ما أجمل منظر الطفل عندما تراه الأم في سنته الاولى و هو يحبو و يتعثر في خطواته مرة تلو اخرى ، لكن الأم لاتحاول أبداً أن تحصي عدد كبواته بل تحصي عليه ما يحققه من نجاح . و الطفل ببراءته و فطرته يجهل الارهاق و لا يعرف اليأس، بل يترك الشيء الذي يصعب عليه تحقيقه وينساه بعد حين، وحينما يمل من المراوحة يجهد نفسه ليغير حركاته من الزحف الى السير، وهو تحول كبير في حياته، وإن تعرض الى الاذى فإنه سعيد بمحاولاته من أجل تمكنه من الوقوف على قدميه، ومقدرته على المشي الى الامام. و تبقى سعادة الأم تضاهي فرح الطفل لانها تحبه وترى في سيطرته على الوقوف وتثبيت خطواته في السير شيئاَ ساراً تبتهج به وتعتبره هدفها الاسمى في الحياة. وتعلم الأم علم اليقين أن هذه الرابطة الروحية تأتي من صلة الرحم التي تقوى يوماً بعد آخر بين إنسان جاهد لكي يخلف وبين إنسان سينوب عنه في ديمومة الحياة. وصدق من قال: ما مات من خلف. وحتى على مستوى القوة العسكرية، إذا منيت قطعات قتالية بإخفاقات، فهذا لا يعني أنها انتهت الى الأبد. بل بمقدورها أن تعيد الكرة و تصول جولات متتالية أخرى، متى ما أحرزت النصر، تصبح الهزائم السابقة وسائل مقبولة وأجزاء إيجابية تتفاعل وتتلاحم وتتناسق وتتمخض عنها الهدف المنشود. وينقل التأريخ عن القائد المشهور أسكندر الاكبر أو "ميغاس أليكساندروس"حيث كان من أقوى وأذكى القادة العسكريين على مر التأريخ، هزم الامبراطورية الفارسية وسيطر على ٩٠٪ من العالم القديم. وربما

يعود سر ذكائه إلى أنه تتلمذ على يد العالم والفيلسوف اليوناني أرسطو قبل أن يعتلي عرش مقدونيا خلفاً لوالده الذي أغتيل سنة (٣٣٦ ق.م). وأما سر تفوقه العظيم فربما يكمن في أنه لم يكن يؤمن بالاخفاقات. ففي إحدى معاركه التي مني فيها بهزيمة ساحقة، تراجع وهو يجر وراءه أذيال الخيبة والخسران. وبينما كان غارقاً في تفكيره باحثاً عن مخرج لوضعه البائس، رأى نملة تحمل حبة وتصعد صخرة لكنها قبل أن تصل القمة تقع وتعيد الكرة واحدة تلو الأُخرى، إلى أن وصلت في المرة السابعة وعبرت الى مبتغاها... أخذ القائد من هذه الحادثة عبرة وترجمها الى حكمة عملية في جولاته القادمة ووصل الى الشهرة التي تليق به وحده.

من جانب آخر فإن كل عمل جديد تعتريه مشكلات و تصيبه كبوات، وربما تفاجئه مستجدات يصعب تجاوزها إن لم يكن هناك إرادة تستوعبها وتسيطر عليها بحكمة. ولما كان لكل شيء بداية فالخطوة الاولى في هذا المشوار تبدأ من التفكير المتقن الذي يخطط في إذلال العقبات والتوصل الى نجاحات متسلسلة تتوازى مع موقع وقوة المراحل التي تمر بها التشكيلة المكلفة في إدارة خريطة طريق العمل المراد تنفيذها. وأن الجهة المشرفة على العمل لاتبالي بعدد الكبوات ولا تحصي عدد الانفاق التي تمر فيها المشكلات والمصاعب، بل تهتم بما حصل من نتائج و ما كسب من نجاحات، وتكون الخطوات المنفذة بمثابة مراحل متتالية نحو تحقيق هدف قد أعلن عنه مسبقاً.

مايطابق هذه الفكرة ويؤكد على مصداقيتها أمران في غاية الاهمية، اولهما هو الاستدلال بنظريات التعلم التي تغني المراجع الاساسية في التربية الذكية التي تشترك فيها الاسرة مع مراكز التعليم الرسمية وغير الرسمية . وثانيهما الاعتماد على النظريات

التي تسترشد بها في ممارسة المهمات المرتبطة في إدارة الاعمال. وبذلك تكون التربية الذكية والادارة الحكيمة خطين متوازيين فيهما كثير من المتشابهات المنطقية والمرادفات العملية و خاصة في محاوره الاربعة:

ـ حب العمل والارادة القوية على تنفيذه.

ـ القدرة المتمكنة للتغلب على المعوقات.

ـ الثقة بالنفس والتأكد من التوصل الى نجاحات.

ـ التمكن في الحفاظ على المكسب المتحقق و قابلية التحول الى عملية أخرى.

من خلال هذه النظرة التمعنية، يستوجب الاستشهاد بأمثلة تحسم تطابق مفردات العالمين: عالم النظريات والفكر النير مع عالم الحياة اليومية ومتطلباته الآنية والتي أكثرها ترفض التحليل وتأبى التأجيل.

بقدر ما يتحقق من صواب هذا الاستنتاج يتم التقرب من صحة أمر آخر في غاية الاهمية ويمس حياتنا من الصميم وهو تعامل المواطنين مع أداء الحكومة . فلو تركزت اهتمامات الجميع على نقاط القوة التي تملكها الدولة او عدد النجاحات التي تحققها على المستويين الداخلي والخارجي، وحاولوا تغذيتها وتطويرها بالترتيب الملائم والشكل الصحيح، لتوطدت بينهما العلاقة الروحية والرابطة المهنية على أكمل وجه. أما الكبوات فإنها فقاعات زائلة يجب أن تهمل ولا تخضع للتقويم الاختباري في المعادلة التي تتفاعل فيها خبرة الدولة في إصدار القوانين مع وعي المواطنين في حب التنفيذ.

وهكذا يسهل على الجميع تصحيح الهفوات التي لاتستحق التعداد وتتلاشى ذابلة في سلة المهملات . أما النجاحات فإن الجميع يتشرفون بملاقاتها، لأنها وحدها تملك أرقاماً و تخصص لها هوية العمل، تفيد وتبقى ويسجلها الشعب في ذاكرة التأريخ.

ما رأيته في دموع الشاعر

كان صبري بوتاني (١٩٢٥- ١٩٩٨) شاعراً رقيقاً في دواوينه الثلاثة: (شين وشادي- الحداد والوداد)، (دلستان- بلاد القلب)، (ده نكي مَتين وجودى- صوت متين وجودي) والتي تحتل مكاناً مرموقاً في المكتبة الأدبية الكُردية.

امتلك الشاعر من الصفات الحميدة قلما تجتمع في شخصية وطنية مخضرمة مثله، حيث عايش في مسيرته الأدبية والنضالية الطويلة المأساة والويلات التي حلت بشعبه الكُردي في العهدين الملكي والجمهوري على حد سواء.

ومن تلك الصفات التي جعلته محل ثقة اجيال عاصرته هي: التواضع الى حد الزهد، والجرأة التي تحسم مواقف التحدي، والصدق الى ما فوق مستوى اليقين... لذلك كنا- في حينه- نعتز بأخلاصه، ولا نراه مثالاً يحتذى فقط، بل نعتبره طاقة معنوية في شد عزيمة شرائح واسعة من الشباب المتعطش للحرية، وخاصة في العقدين السابع والثامن من القرن المنصرم. أما هو فكان يفتخر بهذا الدور ويؤديه بجدارة ومن خلاله يقدم خدماته بسخاء.

في احدى الجلسات الشيقة التي حظيت بها اثناء لقائنا في بيته المتواضع في بغداد، طلب من ابنه ان يعزف لنا معزوفة موسيقية تفوح منها رائحة الجبل. وبعدها تكلم باسهاب

عن جمال وروعة مدينة آكري (او عقرة كما تلفظ باللغة العربية) ومعالمها الأثرية... وسألته عن سبب تعلقه واعجابه بتلك المدينة، أهي مجاملة لكونها مسقط رأسي أم دغدغة استرجاعية لمشاعر شيخ يحن الى ذكرياته عاشها أيام نضاله السري هناك؟! فقال: لا هذه ولا تلك، بل حادثة بسيطة لامستها قبل ايام وجرحتني من الأعماق. فقلت له: هل هي سر دفين يضاف الى كنـز نضالك الوطني الغني، أم خبر اعلامي يختفي في ثنايا قصيدة لم تكتبها بعد.!؟ فقال: لا هذا ولا ذاك... وانما حديث عابر جرى بيني وبين فريق اعلامي لأحدى الدول العربية كان قد شارك ضمن وفد بلاده في مؤتمر القمة العربية الذي انعقد في بغداد مؤخراً.... وعندما سألتهم عن انطباعهم حول العراق والمناطق التي زاروها في جولاتهم بعيد انتهاءالمؤتمر، أجابني أحدهم قائلاً: رتبت لنا الحكومة زيارة راحة واستجمام الى (الشمال)، رأينا جمال الطبيعة وتلذذنا بمناظرها الخلابة وجوها المعتدل... ولما سألتهم عن أحلى منطقة جذبت انتباههم هناك.. أجابني آخر: كانت المنطقة برمتها جميلة وجذابة واحلاها كانت مدينة عقرة ولكن مع الأسف سكانها اكراد!؟.

مثل هذه الأجوبة القصيرة عبارات صادقة تنم عن روح الكراهية والعجرفة لدى بعضهم وكم نتمنى ان لا تكون هكذا، ولكن ماذا نعمل مع الشريحة الشوفينية التي تبدي استياءها تجاه كل ما هو خارج دائرة نعراتهم القومية. أنهى الشاعر كلماته وأنا اقرأ في وجهه كتاباً تفوح منه رائحة المظالم والمنعطفات الخطيرة التي مر بها الشعب الكُردي خلال تأريخه الطويل. وبعد فترة صمت تمتمت مع نفسي: كيف حال الشاعر مع الذين ينظرون الى بني جلدته باشمئزاز ويضعونه في مقام من لا يستحق ان يعيش على ارض وطنه...!؟

ولما اردت تغيير مسار الحديث الى موضوع آخر، رأيت الشاعر العظيم منكمشاً على نفسه وفي مقلتيه دمعتان: احداها حسرة على تخلف شعبه والأُخرى تأسف على ما يتعرض له من ظلم وابادة.

كان صبري بوتاني (١٩٢٥- ١٩٩٨) شاعراً رقيقاً في دواوينه الثلاثة: (شين وشادي- الحداد والوداد)، (دلستان- بلاد القلب)، (ده نكي مه تين وجودى- صوت متين وجودي) والتي تحتل مكاناً مرموقاً في المكتبة الأدبية الكُردية.

امتلك الشاعر من الصفات الحميدة قلما تجتمع في شخصية وطنية مخضرمة مثله، حيث عايش في مسيرته الأدبية والنضالية الطويلة المأساة والويلات التي حلت بشعبه الكُردي في العهدين الملكي والجمهوري على حد سواء.

ومن تلك الصفات التي جعلته محل ثقة اجيال عاصرته هي: التواضع الى حد الزهد، والجرأة التي تحسم مواقف التحدي، والصدق الى ما فوق مستوى اليقين... لذلك كنا- في حينه- نعتز بأخلاصه، ولا نراه مثالاً يحتذى فقط، بل نعتبره طاقة معنوية في شد عزيمة شرائح واسعة من الشباب المتعطش للحرية، وخاصة في العقدين السابع والثامن من القرن المنصرم. أما هو فكان يفتخر بهذا الدور ويؤديه بجدارة ومن خلاله يقدم خدماته بسخاء.

في احدى الجلسات الشيقة التي حظيت بها اثناء لقائنا في بيته المتواضع في بغداد، طلب من ابنه ان يعزف لنا معزوفة موسيقية تفوح منها رائحة الجبل. وبعدها تكلم باسهاب عن جمال وروعة مدينة آكري (او عقرة كما تلفظ باللغة العربية) ومعالمها الأثرية... وسألته عن سبب تعلقه واعجابه بتلك المدينة، أهي مجاملة لكونها مسقط رأسي أم دغدغة استرجاعية لمشاعر شيخ يحن الى ذكرياته عاشها أيام نضاله السري هناك؟! فقال:

لا هذه ولا تلك، بل حادثة بسيطة لامستها قبل ايام وجرحتني من الأعماق. فقلت له: هل هي سر دفين يضاف الى كنـز نضالك الوطني الغني، أم خبر اعلامي يختفي في ثنايا قصيدة لم تكتبها بعد.!؟ فقال: لا هذا ولا ذاك... وانما حديث عابر جرى بيني وبين فريق اعلامي لأحدى الدول العربية كان قد شارك ضمن وفد بلاده في مؤتمر القمة العربية الذي انعقد في بغداد مؤخراً.... وعندما سألتهم عن انطباعهم حول العراق والمناطق التي زاروها في جولاتهم بعيد انتهاءالمؤتمر، أجابني أحدهم قائلاً: رتبت لنا الحكومة زيارة راحة واستجمام الى (الشمال)، رأينا جمال الطبيعة وتلذذنا بمناظرها الخلابة وجوها المعتدل... ولما سألتهم عن أحلى منطقة جذبت انتباههم هناك.. أجابني آخر: كانت المنطقة برمتها جميلة وجذابة واحلاها كانت مدينة عقرة ولكن مع الأسف سكانها اكراد!؟.

مثل هذه الأجوبة القصيرة عبارات صادقة تنم عن روح الكراهية والعجرفة لدى بعضهم وكم نتمنى ان لا تكون هكذا، ولكن ماذا نعمل مع الشريحة الشوفينية التي تبدي استياءها تجاه كل ما هو خارج دائرة نعراتهم القومية. أنهى الشاعر كلماته وأنا اقرأ في وجهه كتاباً تفوح منه رائحة المظالم والمنعطفات الخطيرة التي مر بها الشعب الكُردي خلال تأريخه الطويل. وبعد فترة صمت تمتمت مع نفسي: كيف حال الشاعر مع الذين ينظرون الى بني جلدته باشمئزاز ويضعونه في مقام من لا يستحق ان يعيش على ارض وطنه...!؟

ولما اردت تغيير مسار الحديث الى موضوع آخر، رايت الشاعر العظيم منكمشاً على نفسه وفي مقلتيه دمعتان: احداها حسرة على تخلف شعبه والأُخرى تأسف على ما يتعرض له من ظلم وابادة.

إنهم يشتركون في صنع مأساتهم!

المأساة حالة إرادية لازمت حياة البشر منذ القدم، وغالباً مايفقد المتورط فيها كل مقوماته كإنسان ذي إرادة يمتلك السيطرة الكاملة على إنفعالاته النفسية، فيخر طريحاً أمام قوة كان غافلاً عن تأثيرها المدمر وقدرتها على التحطيم. ومن هنا يأتي وصف جوسر(١٣٤٠ ـ ١٤٠٠) لهذه الحالة دقيقاً فيعبر عنها كأنه عاشها فعلاً حيث يقول في مقدمة (حكاية الراهب) ما معناه : (المأساة هي سرد قصة معينة مما تنقله لنا الكتب القديمة، وخاصة حول إنسان عاش في خير ونعيم ثم انقلب من منزلته الفخمة نحو هاوية الشقاء وانتهى في بؤس...). وهناك من يصف المأساة بأنها حالة قدرية حيث (يجد الإنسان نفسه في وضع مأساوي متورطاً في عالم لايستطيع الصراع ضده، يمارس إرادته ولكنه لا يستطيع فرضها، مدفوعاً ضد قوة لايستطيع مقاومتها ولكنه يقدر في إندحاره أن يظهر مرتبته كإنسان..).

هناك ما يفوق الحالتين و يتجاوز رأي الكاتبين أعلاه، وأكثر وقعاً وتأثيراً على تلك الفريسة (الإنسان) التي تبتلعها المأساة حيث يشمئز منها القلب بعكس ما كان يقوله أرسطو عن المأساة في كتابه " فن الشعر " بأنها (تثير الشفقة و الخوف عند المشاهد و تساعده على التطهير من تلك المشاعر، فتصبح مشاعر الاشفاق والخوف هوامش ثانوية أمام تهديد مصير الإنسان بأكمله وعلى مسرح القتل تضحك المأساة..).

تعتبر قهقهة المأساة صفير إنذار يتجنبه الشعب وعلامة شر يمقتها الجميع، ولكن ما هو أفجع منهما فضيحة وأقساهما تأثيراً عندما يسهم الإنسان الفريسة او لنقل (الضحية) في صنع مأساته ويكون جزءاً في العملية التي يحطم فيها نفسه. حقاً إنها مهزلة و تدخل ضمن فنون سخرية القدر، لانها تعبير حي عن غباء صاحب الحظ السيء الذي لا يحظى بشفاعة أحد سوى تلك الرذيلة التي لا تتعانق إلا مع الموت .

إذا توصلنا الى نتيجة منطقية بأن تأريخ الكُرد سلسلة طويلة من المأساة المؤلمة، فيا ترى هل شارك الكُرد يوماً في نسج إحدى تلك المصائد التي كانت تنصب للقضاء عليهم..!!؟

لايسهل على أحد أن يسرع في الاجابة على مثل هذه الاسئلة، بل يصعب على الكثيرين حتى التفكير في مثل تلك المسائل المعقدة..!؟

يبقى الاستنتاج الامثل لمثل هذه الامور ضمن الحذر الشديد في أعمال المؤرخين و المحللين السياسيين الذين يتحاشون التعامل مع المحطات الملتهبة للتأريخ الحديث والمعاصر، ولكن هناك مجالاً لابأس به إذا أحسن المتابع التصرف المعقول مع الجزئيات المتناثرة لأية واحدة من تلك المأساة التي كانت تحطم الكُرد من الأعماق. حتى وإن كانوا جزءاً من مكونات تلك المأساة، فمن الضروري أن نتعامل معها الآن بأن نعيد ترتيب جزيئات كل منها بشكل يخلق حالة إيجابية جديدة تمثل الجانب المشرق من حياتنا المعاصرة.

لكن بعكس ماهو مطلوب نرى ـ الآن ـ بعض المحاولات السلبية التي تسعى من دون أن تدري (نتمنى أن لا يكون كذلك) في نسج الخيوط الرفيعة التي ستضع فيها يوماً ما إخفاقات ربما تكون بحجم المأساة السابقة او أكبر منها كثيراً.

من أجل توضيح تداعيات حقيقة هذا التشاؤم، لابد أن تدعم الفكرة ببعض الأمثلة الملموسة، منها:

ـ بعض ما تطرح في الاعلام تمس الاوتار الحساسة للأمن القومي الكُردي وتحاول أن تشوه أنغامها التي تأن ـ أصلاً ـ تحت ضربات مطرقة التحديات الخارجية والداخلية على حد سواء، ومن الممكن تشخيص تلك الحالات بسهولة ودراسة جوانبها علمياً.

ـ بعض المشاريع العمرانية والانمائية تصب في خندق مضاد للمسار الفكري الذي يتبناه الأقليم في نظامه الفيدرالي.. فبدلاً من التركيز على نوع وقوة العلاقة بين الأجزاء المتحررة والمتكاملة ذاتياً، تحاول أن تفرض مركزية مفرطة لتستظل تحتها عموم المكونات الاقتصادية و الاجتماعية والثقافية ملتزمة وشاكرة بما تتفضل عليها من أوامر..

ـ هناك طلقات غير واعية لم تدخل في أية مدرسة وطنية، لكنها تأبى أن تسهر على الحدود .. بل تحاول دوماً أن تتسلل لتنام تحت فراش المواطنين .

ـ التكنولوجيا الحديثة مثل النار، تفيد عندما تكون تحت السيطرة، وتحرق عندما تنفلت خارج دوائر التخطيط. جميلة عندما تنضبط حسب المقاييس النوعية، وقبيحة عندما تستغل في غير محلها... وهذا ما نلمسه يومياً خلال تعاملنا مع مفرداتها المتطورة في البيت و الشارع والعمل...

من باب التذكير تطرقنا الى بعض الجوانب القريبة من أنظار القراء، وعلى سبيل المثال لا الحصر تمت الاشارة الى بعض الحالات المعتادة والمتكررة يومياً... نتمنى أن نكون قادرين على إجتياز مثل تلك المصاعب و نتجنب عواقبها لكي لا تكون هي أو غيرها جزءاً من مهماتنا المصيرية.

سكت الفكر فنطق الشعر

بينما كنت استمتع بنـزهة مسائية في أحد شوارع عاصمة الأقليم، قرأت اعلاناً منشوراً في ملصق جداري جذاب يدعو المثقفين الى ندوة حول الفكر القومي الكُردي يقدم فيها ثلاثة من الأدباء المعروفين طروحاتهم حول الموضوع.

تمعنت في محتوى الفكرة قليلاً، ودفعني حب الاستطلاع الى التعرج على ذلك المكان، حقاً انها مبادرة تستحق الوقوف عندها، لا لكونها نشاطاً فكرياً- ثقافياً- أجتماعياً فقط، بل لأنها دعوة غريبة تثير تساؤلات كثيرة... يا ترى ماهي الاضاءات التأريخية التي يسترشد بها الفكر القومي الكُردي؟ وما هي المنابع الفلسفية التي يستند عليها برنامجه؟ وما هي الأسس العلمية التي يتبعها في تحليل الاشكاليات المعقدة التي تعاني منها المجتمعات الشرق اوسطية بشكل عام والمجتمع الكُردستاني بشكل خاص؟ ومن ثم ماهو موقف الفكر القومي الكُردي من الفلسفات المتصارعة في القرن العشرين واستنتاجاته الايجابية التي تؤهله للدخول في القرن الجديد ويستطيع ان يشخص نوع النظريات التي يتفاعل معها في الاستدلال والتطبيق...؟ وفوق كل ذلك ما علاقة الأدباء بتحليل ودراسة مثل هذه الموضوعات الشائكة والحساسة والخطيرة على المستويين الداخلي والخارجي على حد سواء. قطعت سلسلة هذه التساؤلات غير المريحة، وقررت الذهاب الى القاعة حسب العنوان المدون في الزاوية السفلى من الاعلان. وصلت متأخراً

بعض الشيء. كان الهدوء مخيماً والاديب المحاضر يسري أفكاره في جمل مترابطة جميلة. لا أدري من أين بدأ، لكنه ها قد وصل الى المنجزات الكبيرة التي حققتها الدولة الأموية ويقارنها مع حجم المعارضة الشعبية التي كانت تحاول النيل من بطشها وجبروتها، لأنها قسمت الأمة بين نخبة مختارة مهيمنة وهي أقلية وتمثل الطرف الأعلى وفي الطرف الآخر هناك شعوب وقبائل وشرائح اجتماعية مغلوبه على أمرها وهي اغلبية. الاولى تملك كل شيء والثانية تحاول ان تملك أي شيء. كان الاديب المحاضر يستشهد بالمصادر التأريخية ويدعم بها آراءه منها القديمة مثل: تأريخ الطبري، ومروج الذهب.. ومنها الحديثة منها: عصر المأمون، والعصر العباسي الاول، وتاريخ الدول العربية.... وكان يؤكد على أن هذه المصادر تسهب في تفاصيل دقيقة عن قصة الثورة العباسية والعوامل التي ساعدتها في بلوغ غايتها سنة (١٢٣هـ/ ٧٥٠م) والتي تكمن في النقاط الأربع االآتية:

١ .اندلاع الثورات الكثيرة ضد النظام الأموي، وأرادت منها ان تسلك طريق الصلاح... ومن أشهر تلك الثورات: ثورة ابن الزبير، وثورة ابن الاشعث، وثورة المختار الثقفي وثورة زيد بن علي زين العابدين.... منيت كلها بالهزيمة والفشل وكبحت بشراسة.

٢ .اضطهاد الأمويين للموالي اضطهاداً عنيفاً وساخراً، مما دفعهم للأنضمام الى تلك الثورات سراً وعلانية، آملين ان يروا من خلالها انقاذهم واسترجاع حقوقهم المهضومة.

٣ .تقريب وجهات النظر بين الأطراف المعارضة للأمويين وخاصة مؤازرة العلويين للعباسيين في حركتهم التي تسعى لارجاع الخلافة لآل البيت.

٤ .نجاح الدعوة السرية للعباسيين وخاصة في الولايات البعيدة عن المركز وفي مناطق الصراع القريبة ايضاً، وخير مثال على ذلك ما شعر به الوالي الأموي على خراسان نصر بن سيار من خطورة الموقف حيث كتب الى الخليفة مروان بن محمد هذه الأبيات:

ارى بين الرماد وميض نار

ويوشك ان يكون لها ضرام

فأن لم تطفهـا عقلاء قوم

يكون وقـودها جثث وهام

فان النار بالعـودين تذكى

وان الحرب اولهـا كـــلام

فقلت من التعجب ليت شعري

أأيقاظ بنو أمية أم نيـام

لم يستفد الخليفة الأموي من تلميحة والي خراسان فكوى بنار الثورة العباسية. ومن بعدهم ايضاً لم ينتبه الى تلك المخاطر لا خلفاء بني العباس ولا سلاطين آل عثمان فلدغوا من الجحر نفسه... وربما كثيرون غيرهم ما يزالون يعزفون على الوتر نفسه ومواقعهم قاب قوسين او أدنى من تلك المصيدة التي لاترحم.

وأخيراً انهى السيد الأديب محاضرته باستنتاج مفاده: أن هذه الحالة سوف تستمر مالم تع الدول المهيمنة على المنطقة خطورة الوضع وتكف عن اضطهاد شعوبها وتبني سياساتها على العدالة الاجتماعية وتهتم بالبناء والاستثمار والبحث العلمي.... لتنهي السيناريوهات التي يراها الشعب قدراً كارثياً، أما الأدباء فأنهم يعتبرونها مأساة

انسانية لأنها تهز مشاعرهم من الصميم، أما بالنسبة للمحللين والمفكرين فأنهم يقرؤونها كمهازل يخجل منها تأريخ البشرية.

تركت القاعة قبل ان يقدم الأديب الآخر محاضرته...

الحرية بين تابع ومتبوع

عندما تكون الحرية هدفاً لشعب كُردستان، يصعب عليه فن التطبيق، وعندما تصبح وسيلة بيده، فأنه لا يتقن مهارة الاستخدام، لذا تبقى الحرية عنده شيئاً اكبر من الوسيلة وفي الوقت نفسه لا ترقى الى مستوى الغاية.. فليس هناك ما يستدعي تبرير احداهما على الأُخرى، حتى ان وصل الامر الى الحالات القصوى من التحدي المستميد او الاستجابة المطواع.

مرت سنون ومايزال هذا الميزان مختلاً عند شعبنا المسكين سواء فرضت عليه قيود صارمة، أم خففت عنه الالتزامات، وفي كلتا الحالتين فأنه لا يعترف بالهزيمة ولايتعامل من الموقع الأدنى مع من يملي عليه شروطاً جائرة تمس كرامته او تهدد خبزه اليومي.

هنا يكمن سر عدم تحرك مؤشر الحرية لا سلباً نحو الأسفل، ولا إيجاباً نحو الأعلى... وما يؤكد ذلك هو الوضع الراهن المتحسن ـ نوعاً ما- في الإقليم والذي ينبغي ان تكون استحقاقات الحرية فيه موازية للتطور الحاصل في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، ولكن مثل هذا التقابل غير موجود، فكيف يحس المراقب بتأثيراته؟

اختلال التوازن بين الجرعة المستحصلة من الحرية من جهة وفقدان الإطار القانوني الذي يحدد فيه الفرد قراره في العمل والتصويت والتعبير ونوع المشاركة في تقديم الخدمات للمجتمع من جهة اخرى حالة شاذة يقلق الكثيرين.

يرجع سبب هذا الاختلال الى مجموعة عوامل، يحتاج كل واحد منها الى تحليل دقيق ودراسة مستفيضة، ولكنها مجتمعة مرتبطة بمصدر موضوعي يؤثر بهذا الشكل او ذاك على فاعلية تلك العوامل، ويكمن هذا المصدر في الجانب المعرفي سواء على مستوى التفكير الفردي للمواطن الكُردستاني ام على مستوى الوعي الثقافي العام للمجتمع.

في كلتا الحالتين تكون الحرية هي (معرفة الضرورة) وحتى لو استوعب الكُرد هاتين المفردتين اصطلاحاً ومفهوماً وتنظيراً فيصعب عليهم حصرهما في عمل تطبيقي مبرمج لانهم جزء من دولة غير مستقرة تقف على حافة الفشل سواء في ادائها الإداري ام خبرتها في الاستثمار، وهو ما تؤكده الدراسات العالمية المستقلة، وكذلك الجهات الرسمية التي تُعنى بالشؤون الدولية، وهنا نرى من الضروري ان نحدد بعض المؤشرات المعتمدة في المعايير العلمية التي تقاس بها درجة الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي والأمني داخل الدول وبها يعرف موقع كل دولة في سلم التطور، ومن هذه المؤشرات:

- المؤشرات الاقتصادية، وتشمل ضعف او غياب التنمية الاقتصادية لدى الجماعات المتباينة مثل عدم المساواة في الوظائف والدخل مما يؤدي الى زيادة مستويات الفقر، وكذلك التراجع الاقتصادي الحاد مثل تدني الدخل القومي وسعر الصرف، ومعدلات الاستثمار، والشفافية والفساد، وتقييم العملة الوطنية..).

٢- المؤشرات الاجتماعية، وتشمل تصاعد المشكلات الديمغرافية، والحركة غير النظامية للأفراد الأمر الذي يخلق معها حالات طوارئ معقدة مثل تفشي الامراض ونقص الغذاء والمياه الصالحة والتنافس على الارض...وكذلك الميراث العدائي الشديد الذي يجعل الجماعات المظلومة تنتظر الثأر.. والفرار الدائم والعشوائي للناس الى الخارج، والاغتراب داخل المجتمع أيضاً.

٣- المؤشرات السياسية، وتشمل إجرام الدولة بحق مواطنيها، وكذلك التدهور الحاد في تقديم الخدمات العامة، وانتشار انتهاكات حقوق الإنسان وتقييد الصحافة، وظهور النزاعات المسلحة مما يؤدي الى خلق دولة داخل دولة، وتنامي الانشقاقات داخل النخب بالدولة، وتدخل دول اخرى في شؤونها كالتدخل العسكري او شبه العسكري..

وغالباً ما تقوم المؤسسات الدولية بتقويم حالات الدول وتشخيص نقاط محددة لكل مؤشر لتبني عليها استنتاجاتها في ضوء دليل تراتبى وتعطي درجة التدهور لحالة الدولة، ومايزال العراق يأتي في مقدمة الدول الفاشلة، وكذلك الدول الأُخرى التي توجد فيها القومية الكُردية مثل إيران وسورية وتركيا تقع ضمن الدول التي تقف على خطوط الخطر او الترقب... من هذه النقطة تبدأ الأزمة الكُردية التي لا تفتقد فيها الحرية فحسب، بل تهضم الحقوق القومية وحتى الإنسانية أيضاً، وهما امتداد طبيعي للسبب نفسه الذي يؤكد على عدم توازن المعادلات بين تابع ومتبوع حتى ان كانا توأمين خلقا من بويضة واحدة.

كان العقد الأخير من القرن التاسع عشر زمناً مكثفاً، تخطى فيه الإنسان مسافات شاسعة من الرقي تعادل آلاف الاضعاف مما قطعها عبر مراحل متلاحقة من تأريخ حضارته العريقة التي تمتد جذورها الى حياة الكهوف (٤٠- ٦٠) ألف سنة قبل الميلاد.

من خلال منجزاته الكبيرة في تلك السنين القليلة اثبت بجدارة انه الاقوى على سطح الأرض، ويكمن سر هذه القوة الى تفكيره المنطقي ومن ثم التجريبي اللذين أبدعا سلسلة طويلة من الاكتشافات العلمية والابتكارات التكنولوجية التي غيرت وجه التأريخ.

في هذه الحقبة استعمل النفط والكهرباء كمصدرين جديدين للطاقة، فظهرت معهما ماكنة الاحتراق الداخلي، والماكنة الطوربينية، وماكنة الديزل وبدأ العمل بالسيارة والحافلة والطيارة كوسائل نقل جديدة غيرت موازين السرعة.

وعلى مستوى الاستعمالات المنزلية بدت الصناعات الكيمياوية مفخرة العقد وما بعده بسنين وخاصة بالنسبة للأقمشة الصناعية والاصباغ والبلاستيك. وفي هذه الفترة ايضاً اكتشف ماركوني جهاز التلغراف اللاسلكي، واكتشف الاخوان (لومير) جهاز السينما وفتح اول دار عرض لها عام (١٩٠٥) في ترسبورغ.. وهكذا توالت وسائل الاتصال بالجماهير بشكل واسع، وبدأت معها صناعة الاعلانات والدعاية التي تمهد الطريق لنجاح مهمة التسويق للأنتاج الرأسمالي.

في هذا العقد ايضاً استطاع الإنسان ان يطور أسس المكاتب الادارية والاستشارية والفنية بواسطة التلفون والآلة الكاتبة والطابعة البرقية... مما زادت أهمية مراكز التجارة العالمية وكذلك مراكز القرار في العواصم الكبرى آنذاك وهي لندن وباريس وبرلين..

واكبرها لندن التي كان عدد سكانها اكثر من خمسة ملايين نسمة ولا تضاهيها في الازدحام سوى نيويورك، وبشكل عام كانت احدى عشرة عاصمة فقط في العالم يزيد عدد سكان الواحدة منها على المليون نسمة.

نجد في عام (١٩٠٠) ازدياد هيمنة وجبروت اوربا الصغيرة المساحة نسبياً على العالم كله الذي لم يكن يتجاوز عدد سكانه آنذاك عن أربعمائة مليون نسمة لكنه على المستويين السياسي والاقتصادي كان محكوماً بالآلة والتكنولوجية الاوربية.

لم تكن خارج اوربا سوى دولتين تتمتعان باستقلال حقيقي: أمريكا واليابان، أما بقية شعوب العالم فكانت أما مقسمة بين الامبراطوريات الاوربية المتنافسة فيما بينها، او كانت تحت سيطرة دول تأن تحت سطوة الاقتصاد ـ السياسي الاوروبي مثل: الأمبراطورية العثمانية وايران والصين وبعض دول امريكا اللاتينية.

وباختصار كان العالم بأجمعه مصدراً للمواد الاولية التي تديرها ماكنة الصناعة الاوربية، وفي الوقت نفسه سوقاً مستهلكة لمنتوجاتها، الا ان الأمر لم يتوقف على الهيمنة السياسية والاقتصادية فقط، بل تعدى ذلك الى الأرث الفكري والفني للشعوب التي اهتزت أركانها وتأثرت بالاكتشافات الجديدة في الحقول المعرفية المختلفة... واكثرها اهمية اكتشاف (رونتكن) أشعة (X)، و(باكيول) خواص الراديوم الاشعاعية، و(ج. تومسون) وجود عناصر الذرة واطلق عليها ألكترونات واكملها من بعده (ايدنكتون)... وهناك اسماء اخرى لها تأثير كبير في هذه الفترة مثل (نلس بوهر) و(اينشتاين) في الفيزياء و(فرويد) في علم النفس و(اميل دوركهايم) في علم الاجتماع.....

في هذا العقد الذي يربط القرنين التاسع عشر والعشرين ببعضهما، أخذت الشكوك تحوم حول الذاكرة البشرية التي صورت العالم المادي بشكل مختلف عما آلت أليه اهداف تلك الاكتشافات الكثيرة والمتنوعة وكانت النتيجة ان بدأت ملامح جديدة لعالم جديد تلوح في الأفق لتحل محل العالم القديم.

كان التغيير جذرياً في بعض البلدان حيث تمكنت ان تلف ماضيها بكل احترام وتقدير وتطويها في سجلات التأريخ وتبني حاضرها في ضوء المستجدات. أما بلدان اخرى فقد كانت عملية الطحن فيها بطيئة الى الحد الذي لم تستوعب التغييرات ولم تفهم استنتاجاتها، تشبثت بأسمال ماضيها المفعم بالمنجزات الكبيرة والمبتورة عن الحاضر والتي تشبه الى حد كبير الاطلال، ولكن ليست الاطلال التي تهاوت فيها الصروح وبقيت منها الروح، بل الاطلال التي تجردت منها الروح وبقيت الهياكل شامخة للعيان، وبسبب حسن طلعتها تسمى بـ(الاطلال النبيلة).... وهناك شعوب كثيرة (ومنها الكُرد) ماتزال تنبش أروقتها المعتمة بحثاً عن ماضيها التليد، يضنيها الجد وينهكها الجهد كي تعرف شيئاً عن مصيرها المجهول.

حقوق الطفل اولاً

بدأت – هذه الأيام- عملية غربلة الافكار تسري في مفاصل المجتمع الكُردستاني، وخاصة تلك التي لها قوة التأثير على تغيير حالات التخلف او الركود... حيث تتبادر منظمات المجتمع المدني واطراف نقابية... او حتى الدوائر الرسمية، بطرح الفكرة المراد مناقشتها ومن ثم تأخذ طريقها الى الدراسة المسترسلة من قبل اهل الخبرة والدراية الى

أن تتأطر في مشروع متكامل من قبل السلطة التنفيذية ويتم تقديمها الى البرلمان ليسن قانوناً خاصاً بها.

نستعرض ذكر مجرى هذه التحولات ونختصره في كلمات، لكي تظهر الصورة الحقيقية للحالة الفكرية- الادارية- التشريعية في المجتمع الكُردستاني، الذي يقف اليوم في مفترق طرق بين سليل خير ومتشابك خطر.

من الاصوات التي تسمع هذه الأيام من هنا وهناك والافكار التي تتمخض عنها هي ما يقترح ضمن تحديد مورد مالي شهري للمواليد بين يوم واحد وثماني عشرة سنة حسب تخصيص دخل الفرد السنوي.... وما يبرر مثل هذه الطروحات هو كون الإنسان في هذا العمر يعتبر طفلاً وتتكفل الدولة والاسرة بتربيته وتوفير جميع حاجياته الضرورية، لذا يجب تقنين هذه العملية عن طريق تعليمات منسقة بين مؤسسات الدولة واولياء امور الاطفال وكما هو معمول به في الدول المتقدمة والتي قطعت اشواطاً من الرقي والتقدم.

ماتزال نجاحات تلك الدول هي النبراس المعتبر عند هذا الفريق او ذاك، ناسين او متناسين خصوصيات مجتمعاتنا الشرق اوسطية والتي هي اولى بالدراسة والتمعن والوقوف عند محطاتها الحضارية وقراءة تأريخها بشكل علمي سليم وتحليل معطياتها الايجابية والسلبية على حد سواء.

ولكي نربط ماهو في مضمون المطلب المقترح وما تجذر في تاريخ منطقتنا، نرى شيئاً مشابهاً له في زمن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) عندما اوجد الدواوين ويؤكد ذلك معظم المصادر التأريخية منها ابن خلدون في مقدمته ج٢ ص٦١٣، وأبو يوسف في كتابه الخراج ص١٥ ومابعده، ويقول الماوردي في الاحكام السلطانية ص١٧٨ ما نصه: أن

الخليفة عمر (رض) أمر مناديه (ألا لا تعجلوا اولادكم الفطام، فانا نفرض لكل مولود في الإسلام، ففرض للمنفوس مائة درهم، فاذا ترعرع بلغ به مائتي درهم ، فاذا بلغ زاده). وتذكر بعض تلك المصادر ايضاً سبب سن مثل تلك التعليمات وترتيب اموال المسلمين في ديوان خاص بها الى: ان أبا هريرة (رض) قدم على الخليفة بمال من البحرين، فقال له عمر: ماذا جئت به؟ فقال: خمسمائة الف درهم، ما أستكثره عمر، فقال له: أتدري ماذا تقول؟ قال: نعم، مائة ألف خمس مرات، فقال عمر: أطيب هو؟ قال: لا أعلم الا ذاك، فصعد عمر المنبر فحمد الله واثنى عليه، ثم قال: ايها الناس، قد جاءنا مال كثير، فان شئتم كلنا لكم كيلاً، وان شئتم عددنا لكم عداً، فقام إليه رجل فقال: يا امير المؤمنين قد رأيت الأعاجم يدونون ديواناً لهم، فدون أنت لنا ديواناً..... وهناك روايات اخرى تصب في هذا المنحى حول وضع الديوان منها، قال جماعة: بل سببه مال أتى به أبو هريرة من البحرين، ما أستكثروه وتعبوا في قسمه.... فأشار خالد بن الوليد بالديوان، وقال رأيت ملوك الشام يدونون، فقبل منه عمر.

نستنتج من ذلك ان الخليفة عمر بن الخطاب خير الناس على كيفية تقدير وتدبير اموال الدولة واول الخير ما يصل الى الاولاد ويؤمن حقوقهم، حسب نظام مدون، وهو ما يطبق الآن في ارقى برلمانات العالم ويطمح اليه شعبنا من برلمانه الموقر ايضاً.

الفوضى المنضبطة في ثقافة الحدود

(١)

كانت سنوات (١٩٨٥- ١٩٨٨) مرحلة صعبة جداً بالنسبة للمنطقة المحررة من بادينان، والتي كانت تشتمل آنذاك على معظم المساحة الريفية لمحافظة دهوك ولقسم من الجزء الشمالي لمحافظة نينوى حسب التقسيم الاداري المرسوم جغرافياً في حينه.

في تلك الفترة سحبت الحكومة العراقية مالها من مؤسسات صحية وتعليمية وخدمية اخرى من المنطقة، وأخذت تدار من قبل المؤسسات العسكرية والادارية للثورة الكُردستانية والتي لاقت صعوبات كبيرة ولكن في الوقت نفسه كانت تجربة مفيدة ورائدة أثمرت نتائجها بعد انتفاضة (١٩٩١).

من كبرى تلك الصعوبات كانت المنطقة تلك مغلقة عن محيطها الخارجي حيث تراها الحكومة العراقية منطقة محرمة يقتل كل من يسكنها، ويحرق كل ما يزرع فيها. وعلى ضوء هذا المبدأ تعاملت اجهزة الحكومة الرسمية والحزبية مع المنطقة بكل شراسة. وماعدا تطبيق الاحكام العرفية العسكرية والتعامل المخابراتي القاسي، طوقت المنطقة بحدود خارجية لفصلها عن العالم الخارجي وحدود داخلية ترصد كل التحركات التي تجري فيها، ومراقبتها جواً من قبل طائرات (بلاتوز) السيئة الصيت حيث كانت تحلق في ارتفاعات عالية، ترصد المنطقة ماكثة في نقاط قلما ترى بالعين المجردة وتصيب اهدافها بدقة. كان يعتقد أنها سويدية الصنع تم استيرادها خصيصاً لمحاربة الكُرد، وهكذا كانت اسماء دول

مثل النمسا بمدافعها الثقيلة وروسيا بدباباتها واسلحتها الخفيفة والسويد بطائراتها المراقبة.. أسماء مكروهة ومهينة عند اهالي المنطقة.

في تلك الحدود الخارجية والداخلية تحصنت القوات الحكومية، وتجرى المناوشات القتالية مع قوات البيشمركة باستمرار وخاصة عندما تحاول ان ترعب الاهالي وتمنعهم من العمل في حقولهم، وعلى أثرها تحاول البيشمركة معاقبتها بضرب معاقلها وتكبيدها اكبر الخسائر.

كانت الحدود تبدأ مع الشارع الدولي الذي يدخل العراق من الحدود التركية في ابراهيم الخليل ماراً بمركز قضاء زاخو- سميل ثم يتفرع منه بشارع شبه عسكري بموازاة سلسلة جبال زاوا ـ سبى- آكرى... الى ان يصل نهر الزاب الاعلى عند نقطة مشروع سد بيخمة المقترح انشاؤه.. كان هذا الخط البري هو الحدود الغربية والجنوبية للمنطقة المحررة ومحصنة بربايا ونقاط عسكرية منتظمة وثابتة، اما من الشمال فكانت الحدود التركية محكمة غير قابلة للأجتياز الا ما ندر، حيث يجازف المحترفون في اجتياز الخطوط المنيعة، وان حدثت فاكثرها محاولات غير رسمية وفردية ... وفي الجهة الشرقية أي ماوراء نهر (رويشين) التابعة لمحافظة اربيل فهي مناطق مهجورة ومرحلة ومراقبة من قبل الحكومة العراقية ايضاً، لاتستفاد المنطقة منها الا عند استعمالها كخط مرور الى الحدود الايرانية والتي تبعدها مسافة يومين مشياً على الاقدام حيث هناك مقرات قيادة الثورة.

ماعدا هذه الحدود الخارجية، كانت هناك حدود داخلية ايضاً، فمن الخط الغربي والمقوس جنوباً، يتفرع منه خطان متوازيان:

أحدهما، من نقطة (زاخو) فناحية (باطوفا) ويستمر بموازاة الحدود التركية الى ان يصل ناحية (كاني ماسي) مركز عشيرة برواري بالا.

أما الخط الثاني، فكان يتفرع عند نقطة مركز محافظة دهوك ويستمر شمالاً ماراً بنواحي زاويته- مانكيش- سرسنك – قضاء العمادية- ناحية ديرالوك- وأخيراً مجمعي شيلادزي و سيرى عند التقاء نهري رويشين والزاب الاعلى.

كانت هذه الحدود الداخلية التي تشبه خيوط العنكبوت مخيفة بالنسبة لأهالي المنطقة المحررة ومعيقة لتحركاتهم ومقيدة لاتصالاتهم. لأنها كانت محصنة بربايا عسكرية تشرف على المناطق المحيطة بها وما يبعد عنها بمئات الامتار تعتبر مناطق محرمة ويطبق عليها الاحكام الصارمة من قبل اجهزة متعددة المسميات من وحدات عسكرية وقوات أمن وشرطة محلية ومفارز خاصة وسرايا مرتبة وافواج خفيفة ومجموعات موالية للحزب الحاكم... وكل منها تبحث عن فريستها لو حالفها الحظ ورأت أحد المغلوبين على أمره لو اجتاز تلك الحدود قصداً، او تاه في دهاليز من دون معرفة.

وبين هذه الخطوط الاخطبوطية مناطق شاسعة كانت في الأيام الخوالي عنوان المجد الوطني ومصدر المنتوجات الزراعية والحيوانية حيث تمول المدن العراقية وحتى دول الجوار بالفواكه والعسل والملح والمواشي، الا أنها اصبحت في تلك الفترة منطقة محرمة ومحروقة.. فأنشطرت كل قرية الى مجموعات صغيرة من العوائل تشبثت بسفوح الجبال وبواطن الوديان رافضة الاذعان لأوامر الحكومة بترك موطنها والنـزوح الى مراكز المدن والمجمعات القسرية التي شيدت لإسكان سكان القرى فيها عنوة، والتي كانت أشبه بسجون كبيرة قابعة في أحضان الحدود الداخلية للمنطقة... ومن هنا تبلورت ثقافة الحدود والتي قلما

يعرف أحد شيئاً عن أسسها ومقوماتها وسماتها وآفاقها لانها بقيت مادة خامة لا تحظى بالدراسة والتحليل والمتابعة وكأنها سحابة خريفية أتت من دون استئذان ومرت من دون توديع.

(٢)

سادت ثقافة الحدود منطقة بادينان المحررة خلال السنوات الثلاث التي سبقت آخر حملات الانفال في اجتياح القوات الحكومية الكبيرة للمنطقة في الفترة مابين ٨/٢٥-١٩٨٨/٩/٥، أي بعد (٤٨) يوماً من توقف الحرب العراقية الإيرانية في ١٩٨٨/٨/٨ وتوجيه مسار العمليات العسكرية من الخط الإيراني الى خطوط المواجهة مع الجبهة الكُردستانية.

اتسمت ثقافة الحدود – التي نحن بصددها- بأسس جوهرية منها: محبة المواطنين للثورة المنبثقة من صميم شعورهم الكُردستاني وكرههم الشديد للحكومة نتيجة احساسهم بالأضطهاد القومي وربما كانت هذه الحالة رد فعل لما ارتكبته مؤسساتها العسكرية وشبه العسكرية من جرائم وفضائح ضد المواطنين العزل في حدود تلك المنطقة، او ما يتعدى تجاوزاتهم غير القانونية الى خارجها وتصل الى من لهم صلة قرابة بسكان المنطقة سواء من كانوا داخل السجون والمعتقلات ام المبعدون الى المناطق الوسطى والجنوبية، أم من تلاحقهم أجهزة الأمن في المدن والمجمعات الخاضعة تحت سيطرتها، والتي كانت تتفنن في اساليب تضييق الخناق عليهم، وتحد من الحريات الأساسية الى حد التلاشي التام، وتنتهك الحقوق الى ما وراء الاخلاق والأعراف.

وفي الطرف الآخر من الصراع كان المواطنون يتعاطفون مع الثورة، ويكنون لها كل الحب والمودة بسبب ما تقوم به من دفاع مستديم عن الحقوق المدنية للمواطنين، وتناضل جاهدة من أجل توسيع مساحات التقدير والانسجام بين اهدافها في التحرير وبين آمال الناس في العيش الحر الرغيد.

بين هذين القطبين من الحب والكره... كانت الظروف المعيشية في هذه المنطقة قاسية جداً، وأقساها على الاطلاق هي حياة الطفولة البريئة التي حرمت من كل ما هو متوفر لباقي الاطفال في المناطق الأُخرى من البلاد، طالبت جماهير المنطقة من القيادة الثورية التي تديرها عسكرياً وادارياً، بفتح مدارس لاطفالهم وعدم حرمانهم من حق التعليم، وتكفلت بالتعاون والمساعدة وتحمل التبعات بالرغم من الظروف الصعبة والأمكانيات القليلة.

كان المطلوب مقبولاً والموافقة امراً طبيعياً، لانهما تعبير عن تحد كبير لتلك الظروف وعدم الاستسلام لواقع الامكانيات الشحيحة، وهكذا ترجمت الموافقة الى عمل اجرائي منظم وأصدر الفرع الاول للحزب الديمقراطي الكُردستاني أمراً بتشكيل لجنة تربوية عليا تكون من ثلاثة اعضاء احدهم من الحزب والاثنان الآخران من اتحادي الطلبة والشبيبة الكُردستانيين ومقرها في الفرع في كلي زيوه شكان على الزاب الاعلى.

في الاجتماع الاول للجنة التربوية العليا، تم اقرار تشكيل لجان فرعية في مقر كل لجنة محلية للحزب لكي تكون الحلقة الوسطى بين ادارات المدارس واللجنة العليا وفي الوقت نفسه مسؤولة عن الاشراف المباشر على سير عملية التعليم في حدود منطقتها التي كانت على مستوى القضاء ادارياً، كانت المهمة غير سهلة ولا تخلو من المخاطر الا أن روح

المقاومة التي تبناها البيشمركة والمواطنون آنذاك ذللت المصاعب وجعلت من عملية التعليم هدفاً يسعى إليه الإنسان بكل شوق وحرارة، وكانت المبادرات تأتي من كل صوب ومكان من خريجين متلهفين للخدمة طوعاً، ونساء مثقفات يتبرعن بما لديهن من خبرة ودراية لانجاح العملية، وبيشمركة يرون النور في أفق تأسيس المؤسسات المدنية، واطفال ينتظرون فتح ابواب المدارس وآباؤهم يستعدون لتقديم الدعم والمساندة.

وأنا شخصياً تعلمت من تلك المبادرة: أن ارادة الإنسان وتطلعه نحو الابداع سبيل ممهد لاستثمار ما قل وندر ليخلق منه ما كثر وكبر، والعكس غير وارد في حسابات من يناضل من اجل الحرية.

(٣)

أعطت القيادة السياسية في منطقة بادينان صلاحيات واسعة للجنة التربوية العليا التي كانت تشرف على المدارس في المناطق المحررة. ولم تحدد لها خطوط العمل، بل أبدت دعمها الكامل مادياً ومعنوياً لانجاح تلك العملية مهما بلغ الثمن، وذلك من أجل تقليص المسافات بين حقوق الاطفال في التعليم وحدود واجبات الكبار في الحياة.

أعدت اللجنة التربوية العليا دراسة وافية وشافية عن الواقع الثقافي بشكل عام والحالة التربوية المغيبة بشكل خاص في المنطقة، وحددت فيها الاهداف المرجوة من العملية المقترحة، ومبيناً معها الخطوط العامة للطريقة التي يتم فيها فتح المدارس في كل منطقة، لأن التحديات الكبيرة تفرض التنويع في التخطيط، والتأقلم في التطبيق والتكيف مع مفاجآت سير المجريات اليومية التي تفرزها الظروف الآنية والمباغتة من دون

مقدمات، وفي خضم تلك التوقعات حاولت اللجنة المذكورة جاهدة ان تتمكن من ترجمة برنامجها النظري الى عمل مهني ـ تطبيقي- يومي يستوعب فيه سياق المسيرة التربوية والتثقيفية في المنطقة. والى جانب تحديد الأهداف، سعت اللجنة الى ان تجعل من تلك المدارس صروحاً ثقافية وبؤر للتوعية الجماهيرية وخاصة من ناحية المحافظة على البيئة الطبيعية التي أفرطت الحكومة العراقية بكل خصوصياتها الانتاجية، وكذلك الاهتمام بالأمور الصحية وتوطيد العلاقات الاجتماعية على ضوء المواطنة، حيث كان الولاء للقضية الكُردستانية فوق كل اعتبار، وهو ما تحاول الرسالة التربوية ان ترسخها في حياة الجيل الجديد.

في البدء كان عمل اللجنة يشمل المناطق التابعة في حدود لجنتي آميدي (العمادية) وكولان (منطقة نيروه وريكان)... وتمت تسمية اعضاء اللجان التربوية الفرعية فيهما، وعلى ضوء ما هو عليه في اللجنة التربوية العليا. كانت الخطوة الثانية تتركز على الجولات الميدانية في القرى وإقامة الندوات وجرد عدد الاطفال المشمولين بالدراسة، وكذلك عدد المعلمين او الخريجين الذين تتوفر فيهم شروط التدريس في كل قرية، (تم توثيق هذه التجربة من قبل كاتب هذه السطور وباللغة الكُردية في كتيب طبع مرتين، الاولى في مطبعة خبات ـ الجبل ١٩٨٩، والثانية في مطبعة وزارة التربية – أربيل ١٩٩٩).أكتمل جرد القرى المتباعدة فيما بينها والمتناثرة بيوتها على نفسها خلال صيف ١٩٨٧، وصدر قرار بتعيين المعلمين بمن فيهم مدراء المدارس وبلغ عددهم (٦٣) معلماً في (٢١) مدرسة، وتمت تسمية كل منها بإسم مستوحاة من جغرافية الوطن ومراحل تأريخه النضالي حباً لكُردستان وتقديراً لرجالاتها المخلصين.

خلال هذه الفترة القياسية (حزيران – تموز ١٩٨٧) تم تدريب وإعداد المعلمين والمديرين حسب منهج تم اعداده وطبعه وتوزيعه على ادارات جميع المدارس وحسب عدد المعلمين في كل منها، واكتمل تحضير المستلزمات الدراسية حسب الامكانيات المتاحة وفي حدود المستطاع، ولم يعلن يوم بدء الدوام الرسمي في تلك المدارس التي استقبلت تلاميذها خلال شهر أيلول – ١٩٨٧، بل حددت إدارة كل مدرسة يوماً يلائم طبيعة ظروفها الخاصة، وكان يحتسب دوام السنة الدراسية (١٩٨٧- ١٩٨٨) من يوم المباشرة في كل مدرسة على حدة .. وهكذا ينتهي العام الدراسي في كل منها حسب إتمام المدة المقررة وهي تسعة أشهر حيث تحددها إدارة المدرسة أيضاً وضمن حدود شهر حزيران من عام ١٩٨٨، ومن أجل انجاح العملية التربوية، كان مجلس إدارة شؤون كل قرية مكلفاً بتخصيص مبنى إعتيادي للمدرسة وابداء كل التعاون مع إدارة المدرسة، وغالباً ما كانوا يختارون مكانين او أكثر للدوام، وذلك لتفويت الفرصة على القوات الحكومية من معرفة مكان تجمع الاطفال والمواقع البديلة للمدارس التي كانت في تناوب مستمر، خوفاً من انتقام القوات الحكومية التي كانت تعتبر أي شخص موجود في المنطقة المحرمة في نظرهم هدفاً عسكرياً يجب ضربه، ويزداد سخطها الانتقامي لو كان الهدف تجمعا، وهيهات ان كان التجمع مصدراً علمياً يرفد الوعي الوطني الكُردي في حدوده القصوى وتشع منه روح التحضر.

(٤)

تعتبر البناية المدرسية ركناً أساسياً في العملية التربوية في كل زمان ومكان ،لأنها البوتقة والملاذ الطبيعي لتجميع وإنجاح مكونات عمليتي التعلم والتعليم وتثبيت دورهما في ضبط التناسق الثلاثي بين التلميذ والمعلم والمنهج الدراسي، لكن توفير بناية المدرسة في ظروف غير طبيعية كالحالة التي كانت تمر بها المنطقة المحررة ـ او المحرمة ـ (كما يحلو

للبعض تسميتها) من بادينان خلال تلك الفترة، فالقرى التي انشطرت الى مجموعات من البيوت المتناثرة تحاول أن تختفي في كنف الادغال الكثيفة او بين الصخور العملاقة لتحمي نفسها من موت محقق، كانت القوات الحكومية ترصد المنطقة وتقصف أية نقطة لو تبين دليل على وجود الحياة فيها. ومن أجل حماية الأطفال كانت لكل مدرسة ملاجيء قريبة ملحقة بها ومحفورة بشكل جيد تقي التلاميذ من أي حادث طاريء.

أبدع أهل القرى في إختيار أماكن تلائم أن تكون مدارس لأطفالهم وجل إهتمامهم يتركز على الجانب الأمني دون غيرها من الشروط الصحية والعلمية . من تلك النماذج التي سجلت ملاحظاتي عنها في حينه و بقيت عالقة في ذاكرتي :

ـ في قرية سيكيري التابعة لمنطقة نهيلي ـ قضاء آميدي (العمادية) ، اختار أهالي القرية كهفاً أثرياً يشبه غرفة منتظمة الجدران وسط غابة كثيفة لايظهر للعيان إلا إذا وصل الإنسان الى فوهته وجهاً لوجه. أجهد الأهالي في ترميمه وجعله بالشكل الذي يشبه قاعة معدة للتدريس.

كان التلاميذ ـ في هذه الغرفة ذات الملامح الغريبة ـ يجلسون على مصاطب صغيرة وضعت بعكس إتجاه حزم ضوء الشمس المتسللة اليها من المدخل الذي يعتبر باباً و شباكاً في آن واحد.

أما في قرية (هورة ـ منطقة ريكان) والتي تقع في واد عميق بين جبال شاهقة وكثيفة الغابات حيث يصعب رؤية الأرض من خلال أشجارها العملاقة. أستغل الأهالي هذه البيئة الملائمة وبنوا لأطفالهم مدرسة من ثلاث غرف منتظمة الأبعاد، ذات شبابيك كبيرة تتوفر فيها جميع الشروط الصحية ولها ساحة متواضعة تستغل للإصطفاف

الصباحي والألعاب الرياضية وكذلك النشاطات اللاصفية... لم يقتصر هذا العامل الجغرافي الحسن في هذه القرية فقط، كانت عينات أخرى من هذا القبيل تقبع هنا وهناك كما الحال في قرية (بيدة) في أقصى منطقة ريكان، وقرية (شط يونس) على ضفاف نهر رويشين في منطقة دوسكي زوري، وكذلك قرية (سركلي) في منطقة نهيلي أيضاً...(كانت هذه العينات القليلة من المدارس تشكل مجموعة ذات خصوصية إستحقت الوقوف عندها مما دفعني الى إعداد دراسة مستفيضة عن هذه التجربة في حينه).

في قرية (زليبي) الواقعة في الوادي المنحدر نحو نهر الزاب الأعلى، كانت المدرسة تتكون من ثلاث مجموعات متباعدة من البيوت، لذا كانت إدارة المدرسة مع صف واحد من التلاميذ في المجموعة الكبيرة وفي كل مجموعة أخرى صف واحد تشرف عليهما الادارة عن بعد، وكانت هذه تجربة فريدة أخرى لم تشهدها المنطقة سابقاً ـ فرضتها الظروف الأمنية القاهرة ـ حيث كان من المعمول في هذه الحالات أن تكون المدرسة في القرية الكبيرة و يذهب اليها التلاميذ من القرى الصغيرة المجاورة لها.

كانت بناية المدرسة في قرية (هيش) التابعة لمنطقة ريكان والمحاذية للحدود التركية عبارة عن هيكل قديم لطائرة هليكوبتر وهو من مخلفات العمليات العسكرية المتروكة منذ السبعينيات. والهيكل يشبه غرفة صغيرة و قد سدت منافذها المكسورة بالنايلون و صنع له باب خشبي مشدود بحبل كي يسهل فتحه وغلقه، أما مصاطب الجلوس فكانت من صنع اولياء أمور التلاميذ أنفسهم...كان التناسق بين بناية المدرسة وحماس المعلمين وشوق التلاميذ من العجب الذي يحير من يريد أن يتمعن في هذا الأمر المشتت بين الأسطورة والمعجزة.. كنت أعتبره في حينه شيئاً مهماً, أجزم في مرجعيته المؤثرة التي

ستشغل ركناً أساسياً في الفكر التربوي الوطني فيما لو تبنته حكومة كُردستانية في المستقبل .

مرت (٢١) سنة على تلك التجربة البسيطة في مقوماتها والكبيرة في تأثيراتها، لكنها لم تحظ بإهتمام الوسط الكُردي المتنفذ لا من قريب ولا من بعيد، بل تاهت في دهاليز الفكر الكُردستاني المعاصر الذي يراوح بين تراث محلي مثقل خذله في السابق، و فلسفات غربية تهمله في الحاضر.

---

(٥)

في البدء كانت القراءة هي الهاجس الذي يشغلني ويسليني، أحببتها منذ طفولتي، تمخض ذلك الحب، وفي تجلياته أفرزت دلالات لم تكن مفهومة لي آنذاك، استمر المسير نحو المجهول وأدمنت فيه على المطالعة التي سيطرت على جوارحي كلياً، تولد فيها كائن غريب وأليف، أستسلمت له طوعاً، أناجيه في الخلاء حيناً وفي العلن حيناً آخر، وبدأ يفهمني ويداعبني كأنه حيوان راق يعمل حسب ما أملي عليه من إشارات وايحاءات ومن ثم جملٍ أصبحت فيما بعد لغة أخاطب بها بني البشر بصمت ومكتفياً بأقل ما يمكن من كلمات... وحينئذٍ بذكراها، ويصعب علي تفضيل إحداها على الأُخرى، ولكن ما تفتح به شهيتي التعبيرية، تمثَّل في تلك اللمسات الرقيقة التي كانت تدللني في خضم عنفوان حياة الجبل أيام الثورة الكُردستانية الأخيرة في العقد الثامن من القرن الماضي.

كانت الكتابة تهزني من الاعماق، احتفظت بالشيء الكثير من وريقات تلك الفترة وهي مسجلة في دفاتري التي تمنحني الطمأنينة في أحلك الظروف وتعلمني حب الحياة مهما بلغت الصعاب، وتجبرني على احترام الآخر حتى وان وصلت عنجهيته حد التجاوز المهان.

تاهت بعض من تلك الكتابات في دهاليز عمليات الأنفال المظلمة عام ١٩٨٨، ولكنني مازلت أشم عبق رائحتها الزكية لحد الان، وخاصة تلك الكلمات التي كنت أحررها في سجل الزيارات الموجودة في إدارات مدارس الثورة أثناء زياراتي لها ضمن واجبي الرسمي آنذاك.

كانت تلك الكلمات خلاصة فكر أتقن طريقه الى التطبيق بكل دقة.. حيث كان عطاء المعلمين أكثر مما تدربوا عليه، واستيعاب التلاميذ اكبر من المتوقع، وانسجام إدارات المدارس مع أهالي القرى ومجالسها المنتخبة أحسن من المعتاد.. وبشكل عام كانت العملية التربوية تسير كالنهر الجارف سالكة طريق الأمل المنشود.

لم يكن من السهل، ان تخضع مثل تلك الحالات الى عمليات التقويم والمقارنات.. لكن الفكر الذي كان يقتادني الى أفق المستقبل يلزمني ان أشارك في تلك الطقوس الكتابية، والتي كانت بدورها ترشدني الى عالم العلم والعمل وأثناء زياراتي المتكررة لتلك المدارس كنت أرى نفسي في كل مرة أترك محطة فخر وفي الوقت نفسه أحاول الحصول على تأشيرة دخول لمحطة مجد أخرى وأسعى إليها بكل شوق وحماس.

في جولتنا الإشرافية الثانية في منطقة (دوسكي زووری)، زرنا مدرسة دياربكر في قرية (نيروه سيتو).. كان كل شيء على خير ما يرام و كان مستوى التعليم جيداً وسجلات

الإدارة المدرسية منتظمة، واستطعت ان استغل فرص لا بأس بها للاستماع الى أحاديث بعض أهالي القرية، وخاصة فيما يتعلق بالتراث الثر لماضيهم البعيد والقريب.. حيث كانت القرية مركزاً إدارياً لمنطقة واسعة أيام عهد الدولة العثمانية، ومن رجالات القرية المشهورين آنذاك (سيتو الهورماري)، الذي بقيت مناقبه متعلقة في ذاكرتهم كما تشهد على ذلك آثار قصره الفخم في أرض الواقع.

لم تدم الرحلة في هذه القرية طويلاً، كان علينا الذهاب في اليوم الثاني لزيارة قرية زيوه القريبة منها والواقعة في الطرف الثاني من المضيق الجبلي الذي يشرف على بساتين (نيروه سيتو) الممتدة في الوادي الملتوي حولها.

وصلنا قرية زيوه في وقت مبكر، وكان علينا التحدث مع مجلس القرية لغرض فتح مدرسة ان تطلب الأمر ذلك، لكونها قرية صغيرة وقد تم تعميرها قبل أشهر.

جلسنا تحت عريش مفروش استند سقفه على أربعة مساند ثلاثة منها خشبية والآخر احد الأعمدة الكونكريتية المنتشرة على مسافات متناسقة في طول الوادي كدلالات على رسم الحدود الدولية بين العراق وتركيا.

وبينما كنا مشغولين بتسجيل المعلومات، لاحظت رهطاً من الجنود على سفح الجبل المقابل يتسلل مثل مسيرة نمل نحو الأسفل باتجاه القرية.

انتبه المضيف على ما لاحظته وارتبك بعض الشيء، لكنه استجمع قواه وتبين عليه انه يستذكر مثل هذه المشاهد في معظم الأيام وطمأننا بأن الرهط ليس له علاقة بما يجري داخل حدودنا.. كان يسرد ما يجول في مخيلته من أمور طارئة ويرفع أقداح الشاي الموجودة أمامنا ويحولها الى الجهة الأُخرى من مضيفه، وبكل أدب واحترام طلب منا ان نغير

أماكن جلوسنا الى الطرف المقابل، وتمتم مع نفسه: لماذا نعطيهم مبرراً كي يحاسبوننا كوسطاء في انتقال البيشمركة الى الطرف الآخر من الحدود، فأجبته وكأنني أسدل الستار عن قضية مرهقة: ويا عجباه لحدود تفصل مضيف البيت الواحد الى عالمين مختلفين ولا يلتقيان الا في قلب الشعب.

تحسين ما هو ليس حسن

لايستطيع الإنسان أن يتبادر طوعاً في عمل الخير، إلا إذا توصل عن وعي إلى مرحلة من النضوج في العلاقات الاجتماعية تؤهله أن يكون جزءاً من فسيفساء المجتمع، ويشعر بكل جوارحه انه ينتمي إلى وطن يحتضنه بحنان.

وقديماً، كان الكُردي يزداد وقاراً عندما يفدي ما يملكه ليسعف من يحتاج إلى مساعدته، لم ينتبه الكُرد أنفسهم إلى هذه النقطة المهمة إلى أن أبرزها الرحالة والمستشرقون في انطباعاتهم وما طبعوه في مؤلفاتهم كما هو الحال عند باسيل نيكيتين وهنري تروتر أو ما أثاره هؤلاء الطيبون في مخيلة الكُرد كما فعل قبلهم الكساندر زابا مع ملا محمود البايزيدي في منتصف القرن التاسع عشر.. وتبقى النقطة المهمة في هذه المعادلة الكُردية أن صفات الإيثار وحب العمل الطوعي كانت تنحصر بين كرههم للتعصب وافتخارهم بالجرأة، ولولا هذا التحلي المتزن لما بقيت للعمل الطوعي أهمية تذكر، لأنه إذا اقترن مع التعصب لتحول إلى عنصرية وسلاح غدر ضد الآخرين، وإذا تجرد صاحبه عن الجرأة لتحول العمل الطوعي ذاك إلى جبن وتخاذل أمام جبروت الطامعين.

كانت القرية الكُردية تقبع في أحضان العشيرة فمنها الصغيرة بحجم القرية نفسها ومنها الكبيرة مثل (جاف) و(مللي) واللتين كانتا في يوم ما تعتبران نفسيهما كياناً سياسياً بلا منازع، أما المدن الكُردية فقد كانت تحتضنها الإمارات منها الصغيرة مثل بايزيد وبدليس، ومنها الكبيرة مثل بوتان و بادينان.. وكلتاهما (أي القرية والمدينة) بقيتا قروناً عدة مطواعة في ثنايا مجتمع جبلي يتباهى بشرقيته، لاينحني أمام زحف الغزاة ولا يخضع لهيبة دولة الإسلام.

مرت سنون وتوالت أيام عصيبة، واشتدت صراعاتها الشرسة في خضم الحرب العالمية الاولى وما بعدها خلال أحداث ملتهبة... وسرعان ما تلاشى هيجانها أمام معاهدات دول التحالف ومطاليب أمم المنطقة وبقي الكُرد خارج إحداثيات رسم الخريطة السياسية الجديدة.. ومن خلال ثوراتهم وانتفاضاتهم التي حفلت بها صفحات تأريخهم المعاصر بدأ الصدأ ينخر في أسسهم النفسية ومقوماتهم الاجتماعية التي تنهار مع كل انتكاسة وتنبت مع انبعاث كل انتفاضة من جديد..

خلال هذه الفترة غير القصيرة تغير المجتمع الكُردي ـ ولو أن التغيير أمر حتمي ـ لكن ما جرى من تحول وتقلب واختلاف لم يساير التطور الايجابي نحو الأحسن، بل كانت هناك قوى تهدم البلد وتعبث بالقيم، فخسر الكُرد الشيء الكثير ومن ضمنه روح التطوع نحو عمل الخير التي كانت بمثابة قيمة اجتماعية ـ إنسانية تشكل جانباً أساسياً من المنظومة العصامية في شخصيتهم.

وبعد ان تحقق الهدف المنشود في تسلم الكُرد زمام إدارة بلدهم، يجدر بالخيرين ان يبادروا في تطعيم بذور القيم الأصيلة في الجسد الكُردستاني، والذي هو المناخ الملائم والحاضن

المتجدد لاستيعاب كل التطورات العلمية، وخاصة عن طريق منظمات المجتمع المدني كل حسب خبرتها في الاختصاص واصالتها في المنبت.

ليس عسيراً ان يميل المواطن ـ الآن ـ إلى التطوع مع ما هو في صالح المجتمع، لكن ما يصعب تحقيقه هو تقولب تلك القيمة الروحية (أي عمل الخير طوعاً) في إطارها الصحيح الذي يجمع في مداراته الجرأة الواعية وكره التعصب، ولولاهما لانقلبت تلك القيمة النبيلة في هذا الزمان إلى الغفلة المطمئنة ومن ثم إلى الاستغلال الفاحش وأخيراً تنشطر إلى أنواع من الوشاية الخبيثة.

ما بين الشجاعة والقراءة

لا يسهل على القارئ الاعتيادي، حتى وان كان شجاعاً، ان يكتشف المقومات المشتركة بين الشجاعة والقراءة، لكونهما مفردتين ذوات دلالات مختلفة، وقلما تجتمعان في تكوين حالة اجتماعية، او تتجانسان في تحديد مسار شخصية معينة، وان اقتربت هاتان المفردتان في مجال ما، فانهما تتفاعلان في مجال التربية وتعليم اللغات.. او ترميان في بعض الأحيان إلى ترويض الأبناء على السلوك الذي يفضله الآباء.

تلتقي مثل هذه الفرضيات في نقطة جوهرية، يتفق عليها معظم الذين يهمهم تعظيم شأن القيم الاجتماعية، او يجهدون أنفسهم في تقويم كل ما لا يتفق مع الذوق العام، ومن خلالهم يهتدون الى استنتاج فكري يصعب على الكثيرين تصديقه، ولكن لعدم قدرتهم

على إتيان البديل وعجزهم عن رفض ما هو منطقي لذا يخضعون للأمر الواقع، ويعتبرون هذه المقولة حقيقة مسلمة وهي: (أن ما يجمع الشجاعة والقراءة معاً هو تعويد الفرد ـ أياً كان مستواه العمري او الثقافي ـ على الجرأة الأدبية والتعبير عن آرائه بسلاسة وبالشكل الذي لا يجرح مشاعر الآخرين) ولو كان في هذا الرأي شيء من الحقيقة، لكن ما يبعد من المنطق السليم هو ان الجرأة الأدبية شيء نسبي وتختلف فعالية مقاديره حسب الظرف المحدد والمقام المعين والرأي المقبول للخطاب الذي يتقنه القائل ويستسيغه السامع من دون لبس او تناقضات بين الكلمات المنطوقة حرفياً والمعاني التي تعبر عنها قصدياً.. وهنا تبدأ متاهات الأسلوب وخفايا فنون البلاغة وعلى المستويين الفكري واللغوي على حد سواء.

لكي نترك الافتراضات الجانبية، ونأتي الى بيت القصيد في الاستدلال الترابطي بين الشجاعة والقراءة واللتين تجتمعان في وحدة عضوية متكاملة على أنهما مصدران للثروة. والثروة هي الحاصل المستنتج لكل نشاطات وأهداف الفرد مضافاً إليه ما يرثه من آبائه وما سيضيف إليه أبناؤه أيضاً.

على هذا الأساس، فالشجاعة ثروة في المجتمعات القبلية، حيث يستطيع الفرد او الجماعة أن يعتمدا على شجاعتهما ويغيرا على الافراد او القبائل الأُخرى ويستوليا على المال الوفير والممتلكات الباهظة وما يطيب لهما من جمال الجنس اللطيف أيضاً.. وما أكثر الأفراد والأمم التي تعتز بصولات شجاعة أسلافها، معتبرين تلك المهمات هي المنشأ الفاضل لتكوينهم الاجتماعي السعيد، ظناً منهم أن الأمة التي لا تتقن فن الغزو لا تستحق الحياة.

أما القراءة، فهي أيضاً ثروة، ولكنها كبيرة ومؤثرة في الوقت نفسه، ويعتبر القارئ النهم أغنى الناس وأرقاهم تحضراً وأعلى شأناً من الذين يقل عنه رصيدهم في القراءة. ومن هذا المنطق، تهتم المنظمات الثقافية والمؤسسات العلمية بقيمة القراءة وتعتبرها القياس الحقيقي لمستوى الفرد الثقافي ورقي المجتمع الحضاري على حد سواء.

تختلف القراءة عن المصادر الأُخرى للثروة على أنها تفتح الأبواب لصاحبها لكي يختار فرصة عمل تناسب اختصاصه ويستثمر فيها خبراته الفنية ليضمن بها استحقاقاته المادية والمعنوية، وما عدا هذا فأن القراءة سترشده الى كيفية صرف أمواله بالشكل الصحيح وتطوير مهاراته المهنية على خير ما يرام.

في هذا الصدد يقول شاعر انكليزي ما مفاده: (قد تكون عندك ثروة ضخمة، تملأ بها الخزائن، ولكنك لن تكون أبداً أغنى مني، فقد كانت لي أم اعتادت ان تقرأ لي).

تقاس تطور المجتمعات حسب معدل قراءة الفرد في السنة، فالمجتمعات التي متوسط القراءة أقل من (١٠) دقائق في السنة للفرد، هي مجتمعات متخلفة وفقيرة ولو كانت تملك ما في باطن الأرض وما فوقها من ثروات كبيرة.. وبالعكس فالمجتمعات التي متوسط القراءة فيها أكثر من أسبوعين في السنة للفرد، فأنها مجتمعات متطورة وان كانت ما تملكها من الثروات الطبيعية قليلة نسبياً، فالاولى تكون ملحقة وعالة على المجتمع الدولي والثانية مفخرة للحضارة الإنسانية.

القراءة ثروة وطنية كبرى

(1)

يتوقف تقدم الدول على مدى قدرتها على استثمار مواردها الطبيعية والبشرية، وهناك احصاءات سنوية تصدرها جهات رسمية عدة تبين تطور الدول ومدى رفاهية مواطنيها اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً بالاعتماد على الارقام المستنبطة من الدراسات والتحليلات التخصصية، وعلى أساس معدل دخل الفرد أيضاً.. ولسنا هنا بصدد ذكر تلك الاحصاءات وتحديد المفاضلة بين مستوياتها، الا ان ما يجلب الانتباه –وربما يحير الذين يفكرون خارج دائرة أهمية التنمية البشرية- هو ان معظم الدول التي تتربع سنوياً على الدرجات الاولى في تلك المعادلات العالمية هي دول فقيرة بالنسبة للموارد الطبيعية مثل السويد او فنلندة على سبيل المثال لا الحصر، لكن المتتبع للشؤون الدولية او لنقل الإنسانية يدرك جلياً ان ما يساعد على التوازن المحكم بين طرفي المعادلة هو السياسة المسؤولة في كيفية استثمار الطاقات البشرية وتنميتها حسب تعليم وتدريب متقنين، تنعكس فيهما برامج مدروسة يخطط لها نظام ديمقراطي يدير الدولة بكل مؤسساتها الدستورية ومنظماتها المدنية من دون ان يهمش اية طاقة بشرية مهما اختلفت رؤيتها بل يفسح لها مجال الابداع وفرص العمل كل حسب امكاناته وخبراته.

استثمار الطاقات البشرية حالة انمائية ـ سلوكية يحصل فيها المواطن على غذائه العقلي وبالشكل الذي يليق به كإنسان، واكثر الوسائل أهمية وجدية في هذا المجال، والتي بواسطتها يستطيع ان يحصل على غذائه العقلي وكذلك الروحي الى حد ما، هي:

- القراءة والمطالعة المفيدة للاطلاع على ما يستجد في الحياة.
- السفر في رحلات طويلة كلما أمكن للاحتكاك بالثقافات المتنوعة.
- الاستفادة من تجارب الآخرين سواء المتراكمة في التاريخ البشري العريق أم المنظورة في مجالات العمل اليومي.

وهذه وسائل مهمة واحتياجات ضرورية، لا يستغني عنها الإنسان المتكامل حضارياً، ولو ان نسبها تتفاوت من شخص الى آخر ومن مجتمع الى غيره، ولكن تبقى القراءة اكثر تلك الوسائل تأثيراً، لذا لابد ان يمارسها كل فرد حسب مجاله المهني ومستواه الثقافي ولا يستثنى منها أي فرد حيث تشمل كل الاعمار حتى الطفل في مراحله المبكرة.

لكي تتوفر الشروط المطلوبة للقراءة وتندمج مع شخصية الإنسان، لابد ان يكون لها تخطيط عام وشامل وبموجب برامج تنظمها الحكومة سواء على المستوى الرسمي في عمليتي التربية والتعليم أم على مستوى التثقيف والتوعية لتشمل كل الاعمار ما قبل وما بعد سنوات المراحل الدراسية، وهنا تظهر حقيقة جديرة بالاهتمام يمكن الاشارة اليها في هذا السياق وهي: ان قليلاً من الاطفال يتعلمون القراءة قبل ان يذهبوا الى المدرسة، وكثير منهم يتركون القراءة بعد ان يتخرجوا منها.

ومرحلة ما قبل المدرسة هي مرحلة مهمة وحساسة حيث يبدأ الوالدان فيها بقراءة القصص القصيرة التي تلائم عمر الطفل، وكذلك يعرضان له بعض الافلام المخصصة

لاعمار الطفولة المبكرة.. ولو ان قياس زمن الطفولة الاولى وتحديد نوع النصوص التي تفيد كل فترة من نموه السريع ليس بالامر السهل، الا ان الوالدين يكتشفان ذلك نتيجة استجابة الطفل لتلك المواد الشيقة التي تغريه وتستهويه بشكل جيد، وفي هذه الفترة بالذات تبدأ حالة تحبيب وتعويد الإنسان على القراءة، وتكمن بعض مزاياها في النقاط الآتية:

- تعتبر القراءة وسيلة مهمة لحصول الطفل على معلومات اولية متنوعة هو في حاجة اليها.

- القراءة تفتح باب الحوار للتحدث مع الطفل، وخاصة حول أمور كان بود الوالدين ان يتحدثا بها مع طفلهما، الا ان صعوبة استيعاب الطفل لبعض المسائل المجردة تحول دون ذلك.. فتأتي القصص الشيقة وكأنها مفاتيح تفاهم بين الطرفين.

- تزيد القراءة من وعي الطفل وتساعده على الفهم ومحاكاة الاخرين بسهولة اكثر من الاطفال الذين حرموا من القراءة في الصغر.

- القراءة تساعد الوالدين على اكتشاف امكانات ومواهب الطفل، وهو جانب مهم من التربية الذكية والتي اصبحت ركناً أساسياً من العائلة المثقفة.

- من الأفضل ان يفسح الوالدان لطفلهما مجال التوصل الى بعض الحلول للمسائل السهلة التي تجري احداثها في القصة البسيطة، بأن يطرحا عليه مجموعة حلول مناسبة ليختار من بينها ما هو الافضل حسب ما يرتاح له. وبذلك يتعود الطفل على محاولة حل المشكلات التي تعتري طريقه تدريجياً من السهل الى الصعب ومن البسيط الى المعقد.

- يستطيع الطفل ان يستفيد من الخبرات التي كونها نتيجة القراءة للتعبير عن المشكلات التي يتعرض لها، وعن طريق التعبير السليم تنمو لديه ملكة الجرأة.. والجرأة هي الخطوة الاولى عند الإنسان لكي يطالب بحقوقه ويتجنب الغفلة المطمئنة والتي هي الداء القاتل الذي ينخر في جسم الإنسان المسالم.

ونظراً لأهمية قراءة القصص في حياة الطفولة المبكرة، فلابد من الوقوف عند اختيار نوع القصص وطريقة قراءتها للطفل ومتابعة تأثيراتها عليه.. وللحديث صلة.

(٢)

تبين من خلال بحوث سايكولوجية عدة، أن الأطفال الذين تقرأ لهم القصص الشيقة من قبل الوالدين في سنوات عمرهم الاولى، أكثر ميلاً لتعلم القراءة في رياض الأطفال ومن ثم في المراحل الدراسية المقبلة، وحتى بعد تخرجهم وانخراطهم في الحياة العملية. وربما يزداد معدل القراءة عندهم في اواخر العمر حيث تزداد ساعات الفراغ التي يستغلونها في القراءة لمعرفة ما يستجد في الحياة وهم في أمس الحاجة الى سماعها ليشبعوا بها فضولهم الأستطلاعي.

بدت القراءة في هذه الأيام ذات تأثير كبير في حياة الإنسان، واثبتت التجارب ان بذرتها الاولى تنبت مع ما تقرأ للطفل من قصص وحكايات. لذا من الضروري ان نقف في هذه العجالة عند نوع ومكونات وتأثير تلك القصص وطريقة سردها وأمور أخرى مهمة تتوجب على الوالدين او من يقوم بتربية الطفل معرفتها لكي تحقق تلك القصص غرضها

المطلوب على أحسن ما يرام، ومن أجل ذلك ايضاً يجدر بالوالدين ان يكونا على بينة من تأثير تلك القصص والتي تكمن أهميتها في النقاط الآتية:

- على الوالدين ألا ينخدعا بما تعلنه بعض دور النشر عن سلسلة كتب او قصص للأطفال مناسبة لفترة ما قبل المدرسة، او تحدد في مرات أخرى مستوى الكتاب الذي يلائم كذا فترة عمرية، بل عليهما ان يكونا ناقدين ماهرين في اختيار ما هو صالح ويستفيد منه الطفل، واذا استصعب الأمر عليهما فمن الممكن ان يستعينا بأحد معارفهما الملمين بهذه الناحية، او حتى جهة علمية متخصصة في علم النفس الطفولي او علم النفس التربوي...

٢- من الأفضل ان لا تقتصر القصص المختارة على موضوع واحد، بل يجب ان تتنوع الموضوعات من دينية وتأريخية وعلمية وفنية وخيالية... وغيرها ليتسنى للوالدين اختيار ما يناسب مستوى طفلهما، وخاصة بعد أن يفسحوا له المجال أن يشارك في اختيار القصة التي يرغب فيها، وتكون المشاركة على مستويات عدة منها

أ- وضع مجموعة من القصص امام الطفل ليختار من بينها ما تعجبه.

ب- قراءة القصة للطفل بطريقة جذابة، فأذا اعجبته من البداية وانسجم معها، فما على السارد الا أن يستمر معه الى النهاية.

ج- مزايا القراءة كثيرة، ولكن أهمها هي معرفة الوالدين بميول طفلهما واتجاهاته، وبذلك يسهل عليهما الأستمرار في الحصول على قصص أخرى تفي الغرض نفسه لتتم تنمية تلك النواحي بشكل جيد...

- اختيار الزمان والمكان المناسبين للقراءة، لأن التوقيت الجيد هو عامل مهم لانجذاب الطفل الى القصة والتفاعل مع احداثها المبسطة. فمثلاً لا يجوز ان يطلب منه الأستماع الى قصة ما، وهو يشعر بالجوع او يتابع برنامجاً خاصاً بالأطفال او منسجم مع اقرانه (أخوته) متمتعاً باجواء اللعب او أي نشاط آخر.

للمكان الملائم- ايضاً- تأثيره المباشر في انسجام الطفل مع اجواء القراءة، فمثلاً لا تكون القراءة امام التلفاز، او قريباً من مكان طفل آخر مشغول بألعابه المسلية، او في المطبخ حيث تفوح رائحة الأكل الشهية... هذا ما يتعلق بالوضع النفسي والحركي للطفل. أما بالنسبة للسارد فيتوجب ان يكون وضعه- ايضاً منسجماً مع عملية القراءة وخاصة في وقت يشعر فيه بالأرتياح ولا يمله ارهاق العمل اليومي، وبذلك يستطيع ان يقدم افضل مالديه من معلومات ويختبر مواهبه في الأنفعال والترنيم والترتيل والتمثيل وتقمص شخصيات القصة ليجعل منها مادة حية يعيش هو وطفله في أجوائها الجميلة.

٤- على الوالد السارد ان يقرأ القصة مسبقاً، ويتعرف على أحداثها وكلماتها ويستنبط منها اسئلة تمهيدية شيقة واستنتاجات كثيرة، لكي لا ينحرج او يتردد اثناء السرد او في حال الأجابة عن الأسئلة الكثيرة التي ستدور في خلد الطفل او التي يجب ان تثار في ذهنه.

٥- على السارد ان يسأل الطفل قبل واثناء القاء القصة ليشارك في جميع اركان عملية القراءة من غلاف الكتاب الى استنتاجاتها الأخيرة فيدخل الطفل مع السارد في حوار شيق ويتعلم من خلاله فنون طرح الأسئلة وكيفية الأجابة واكتساب الجرأة الأدبية وتنضج لديه – أيضاً- سرعة البديهة عن طريق التفكير السليم، وعلى سبيل المثال في

البدء يسأله عن الصورة الموجودة على غلاف الكتاب فيقول- مثلاً- (دجاجة) ثم تستمر الاسئلة عن المكان الذي تقف فيه الدجاجة. وكذلك ما لونها؟ وماذا تعمل؟ وكيف تعيش؟ وهل سبق ان رآها في السوق او في التلفاز... الخ.

٦- من الضروري- ايضاً- ربط احداث القصة بالواقع الذي يعيشه الطفل، فمثلاً تذكره بالنهاية التي وصل اليها الثعلب نتيجة كذبه على الأسد، او الخاتمة الحسنة التي كافأت فيها الجدة حفيدها اثناء مساعدته لها في عبور الشارع.

٧- من المستحسن ان يصطحب الوالدان- بين فترة وأخرى- طفلهما الى مكتبات الأطفال التي تقدم خدمات جميلة وحلوة تليق بهم ويعلمانه طرق استعارة الكتب والتمتع بالقراءة... وعندما يرى الطفل قدوته- ايضاً- وهو يقرأ وكذلك الأطفال وزوار المكتبة جميعهم في غاية الغبطة والسرور كما هم فيه... ستتحقق له ايضاً متعة الذهاب الى المكتبة، ويراها نزهة حلوة وضرورة ملحة يحتاجها بين حين وآخر.

٨- يقوم الوالدان بتوفير بعض اللوازم الضرورية للطفل مثل دفتر الرسم واقلام التلوين ويشجعانه على تلوين صور القصة في الكتاب، او محاولة رسمها على الدفتر، او مشاهدة القصة على شكل فيلم، او تمثيلها ولو بشكل مبسط مع الأطفال الآخرين... وأخيراً يطلب منه اعادة سرد القصة واذا تمكن من ذلك فأن الهدف المنشود قد تحقق وتصبح القراءة جزءاً حيوياً وحساساً من شخصيته، ويكبر معه هذا الجزء ليتسع حدود افقه الثقافي ويشغل مساحة مهمة من اهتماماته الفكرية.

(٣)

خير ما يفضله الإنسان في الحياة هو الاطلاع على ما يستجد في الفكر، ولا تتم هذه العملية إلا عن طريق القراءة، ولا يمكن الاستحواذ على هذا الكنز المعلوماتي من دون عملية تراكمية لجرعات متتالية من الفهم المستمر للكلمة الهادفة التي تعبر عن أفكار الآخرين، و تحلل في المعطى النقدي المقروء لتؤلف ثانية في معادلة متوازنة بين ذهن تواق للاستلام، ورسائل تبحث عمن يستقبلها بتودد.

من هنا نعلم أن القراءة هي أساس التفكير ومنه تنبت بذرتها الاولى في الطفولة المبكرة أي في سنوات ما قبل المدرسة، ويستكمل نمو معالمها في المراحل الدراسية التي تتوارى بين كتب منهجية متدرجة علمياً من البسيط إلى الشامل، وبين كتب تزخر بها مكتبة المدرسة من سهلٍ شيقٍ إلى متنوعٍ يميل إلى التعقيد، وعند التقاء طرفيهما تبنى شخصية الإنسان التي تتطور أثناء البحث المتواصل في العمل اليومي المتخصص مهنياً، وتنمي قيماً جمالية تجمع بين المواطنة السليمة في الواجبات والانتماء الواعي لنظام تتكامل أسسه في بنيان الدولة.

هكذا تكون شخصية المواطن الصالح هي المبتغى المرغوب في البيئة الاجتماعية التي تسعى إليها الدول جميعها، سواء المتطورة إلى حد بعيد أم الصغيرة ذات الإمكانيات المحدودة. ولما كانت للقراءة هذه الأهمية الكبيرة فلا بد من الوقوف عند شروطها وأسسها و مؤثراتها و أنواعها... وحيث تبدأ اولى خطواتها في الشروط الذاتية التي تبنى عناصرها على العاطفة الجياشة سارياً جريانها في المنظومة النفسية والذوقية ذات التأثير

المباشر على نوعية اتخاذ القرارات الصحيحة واختيار إصدار الحكم النقدي البناء، وبهما تتكامل أسس الصحة النفسية للقارئ المواظب الذي يصطفى في موقعه الإداري اجتماعياً واقتصادياً ضمن النخبة المثقفة التي تتبوأ أعلى المناصب على المستويين العلمي والسياسي على حد سواء.

من هنا نصل إلى حقيقة ملموسة، وهي إن القراءة الصحيحة للطفل تساعد على إنماء شخصيته عاطفياً، وعند نضوج ميوله العاطفية يصبح لديه الاستعداد الكامل للتعامل مع جميع النقاط التي تنبعث من القراءة عاطفياً.

يستحيل تحبيب القراءة لأي فرد مهما كانت منزلته العلمية او الاجتماعية رفيعة إذا لم يستعد عاطفياً لذلك، لذا فإن العلاقة بين العاطفة والقراءة علاقة جدلية لا يمكن الاستغناء عنها سواء في الدراسات الأكاديمية التي تتمحور في هذا الاتجاه، أم في التعامل المتكافئ بين أفراد المجتمع.

إن القارئ الذي نضج خياله نتيجة مؤانسته لما كان يسرد له من القصص الممتعة أيام الطفولة، وتمرّن على المطالعة أيام الدراسة الابتدائية، وأعد تقارير علمية في المرحلة الثانوية، وأبدع في إعداد البحوث في مرحلة الدراسة الجامعية، ستصبح القراءة لديه حاجة ضرورية لايستغني عنها، وغذاءً فكرياً دائم الحضور في ذاكرته، و بذا تكون القراءة المنتظمة هي المفتاح الذي يمهد له الدخول في عالم الثقافة، وتنمي في شخصيته سمات يحسد عليها الخيرون وتصقل مهاراته بصفات قلما توجد عند غيره ممن لم يمر بتلك المراحل القرائية، ومن تلك السمات:

- الاتزان المحبب بين التوجهات الغريزية والميول العاطفية والقدرات العقلية وبذلك يكون ذا حس مرهف يتكيف بموضوعية مع محيطه.

- الالتزام بمبدأ الحياد حيال مايطرح من فرضيات جديدة، والاعتماد على التحليل العلمي في فرز الصالح من الطالح.

- النزاهة في التعامل مع ما يترتب عليه من واجبات مهنية وأعمال طوعية تسري في المصلحة العامة.

- النظرة الجمالية الثاقبة وبذلك تكون لديه روحاً مرحة تجعل الآخرين يتعاملون معه بثقة واطمئنان.

لا تنحصر صفات القارئ الجاد عند هذه الحدود، بل هناك مزايا أخرى تظهر طردياً مع المستويات المنفتحة على جميع الاحتمالات وسمات كثيرة تكون دوماً في متناول اليد وتتقاطع ذاتياً مع الممكنات المختلفة في فضاء الإبداع.

(٤)

بات من مسلمات العصر، أن يتقن المتعلم المثقف الظروف الذاتية والمزايا المساندة التي تبنى عليها الخطوات الأساسية لتعويد الإنسان على القراءة، سواء على الورق المكتوب أم على الشاشة المتحركة، والتي تبدأ من مرحلة الطفولة وإلى آخر مراحل العمر... وما أجمل الحياة مع صديق يعطيك كل شيء من الدغدغة المداعبة إلى أدق أسرار الكون، وبدون مقابل يذكر، او منية مكلفة، او رقم يثقل فاتورة المصروفات اليومية، وطبعاً،

فيما إذا اعتمد القارئ على المكتبات العامة، والتي هي ركن أساس في حضارة أي شعب.

وهكذا تصبح القراءة من مستلزمات المرء الحياتية، وتمول نشاطاته العقلية كما الغذاء والماء و الهواء مواد أساسية لنموه البيولوجي. وما أزكى عطر الأيام الخوالي، تلك الأيام التي كانت تسمو على السنين و يتغذى فيها العقل من القراءة والقلب من المحبة والجسد بما تشتهي النفس.

في البدء كانت الكلمة، ومن الكلمة ولدت القراءة، ومن القراءة تعاظم شأن العلم، وبيت العلم المكتبات، لذا من باب المكتبات العامة ندخل إلى عالم الظروف الموضوعية التي تهئ الأجواء المناسبة لتنشيط عملية القراءة، وجعلها من السمات المميزة للمجتمع، وتشمل تلك الظروف الميسرة معظم مجالات الحياة من أركان هيكلية التخطيط الثقافي إلى أسس الأمن القومي.

بالرغم من ضخامة مدخلات العملية القرائية وإتساعها المتجذر في المدينة والقرية على حد سواء، إلا أن دعائم بنيتها الراسخة في الأعماق والمنفتحة على محيطها المترامي الأطراف، تنحصر في خطوات مركزة وجدية تبدأ من مقومات يسهل على الجميع التعامل معها ببساطة ومن نوافذ اليسر يتطلعون على أبعد تعقيدات الحياة. وهنا لا ندعي وضع برنامج متكامل او مشروع قانون يستوعب هذه العملية الحساسة، ولكن من الضروري أن نذكر علامات تأشيرية تكون بمثابة مفاتيح لأبواب تفتح على عالم نصبو الدخول إليه بكل شوق ومحبة. ومن تلك العلامات:

- بناء مكتبات عامة متواضعة، حسب أعداد الأحياء السكنية في المدن او المجمعات السكنية المنتشرة في الريف. وفي كل منها جناح خاص للأطفال، وتمول بما تستجد في الثقافة العامة من نشرات وكتب وصحف. وبقدر غناها العلمي من الداخل، يجب أن تحافظ على جماليتها من الخارج أيضاً لتكون رمزاً لمدى وعي ورقي التجمع السكاني المستفاد منها. ويفضل أن تربط تلك المكتبات العامة الصغيرة مع بعضها كنقاط ناشطة تستوفي عملها التثقيفي في مدارات متكاملة حول نواة فاعلة تتمثل في المكتبات العامة الكبيرة حسب التوزيع الجغرافي الذي يغطي الوطن كله. عند تعذر تأمين البنايات الكافية وتوفير مستلزماتها بشكل متكامل، يمكن تعويضه بمكتبات مشابهة ولكنها متنقلة داخل سيارات جميلة ومخصصة للهدف نفسه. في جميع الأحوال تكون هذه المكتبات الصغيرة في علاقة متواصلة مع جميع مراحل التعليم، تزورها مجموعات الطلبة حسب برامج توضع خطواتها من قبل إدارات المدارس وبالتعاون مع مشرفي المكتبات.

- توزيع صحف مجانية على المواطنين وتمول ذاتياً بالإعتماد على الإعلانات والنشاطات الثقافية والتبرعات، وتهتم بما يتعلق بحياة المواطنين في شؤونهم الخدمية كل حسب منطقتها، وبذلك تصبح الصحافة حاجة ملحة ومحل إهتمام الجميع تتكامل دورتها على محور أساس وهو المواطن وتتشابك علاقاتها مع مثيلاتها القريبة في مجموعات متجاذبة لتغطى في مدياتها المساحة الاجمالية للوطن، وفي الوقت نفسه تكون روافد مستديمة للصحف الرئيسة وقنوات الاعلام المركزية سواء بالمعلومات أم الكوادر الفنية المتقدمة.

- إصدار نشرات إختبارية من قبل مؤسسات المجتمع المدني التطوعية، او المراكز الدينية الخيرية، كل حسب برنامجها الارشادي او التثقيفي، وتمنح شهادة تقديرية او مكافاً تشجيعية لمن يتفوق في حلقات البرامج المتكاملة، سواء أكانت شهرية أم فصلية أم حتى إذا كانت نصف سنوية. وهناك أمثلة عملية كثيرة ومجربة على مستويات مختلفة ونالت نجاحات ساحقة في كثير من دول العالم... ومن تلك الامثلة : تقوم جمعية علمية بإصدار كتيب صحي او نشرة علمية وترفق معها مجموعة أسئلة وترسل بالبريد الى المشتركين. يقوم المشترك بقراءة الكتيب او النشرة ثم يجاوب على الاسئلة و يرسلها الى المركز. يرسل المركز درساً ثانياً مع أجوبته المصححة السابقة.. وتتكرر العملية بين المركز والمشترك الى أن يكمل المنهج المخصص لذلك الغرض.

وهناك أمثلة وخطوات كثيرة يمكن أن تكون نقاطاً أساسية ضمن مشروع مقترح كالذي تم طرحه أعلاه... وعندما يصبح مثل هذا المشروع أمراً محتوماً ويطبق في الواقع عملياً، يبدي القائمون به إبداعاً في التنظير ومبادرات خلاقة في التنفيذ. وبذلك تكون عمليات التثقيف والتوعية والترشيد سهلة يتقبلها المواطنون برحابة صدر، ومريحة للجهات المتنفذة في الحكومة أثناء ما يطبقونها بحذر و شفافية.

مفتوح .. مغلق

(١)

كان ناظم رجلاً ضخماً مختل العقل، هادئ الطبع، نادراً ما يتفوه بكلمة او كلمتين وخاصة عندما تكون الحاجة الى ذلك من أجل أن يتجنب ثرثرة الآخرين وفضولهم الى جانب متاعبهم التي لاتطاق. ومع شكله الغريب والمخيف بعض الشئ كان دوماً رث الثياب، يمشي بتمهل، غارقاً في التفكير وينظر بتمعن يوحي الى عدم رضاه عن الآخرين. وبالرغم من عدم وجود ما يجذب في مظهره الكئيب هذا، إلا أنه كان نادراً ما يُرى جالساً في مكان ما، او واقفاً يجري حديثاً مع أحد او يقضي أمراً يهمه او يطلبه منه الآخرون. بل كان في أكثر نزواته وحيداً، يتنزه في الأماكن المهجورة او في الطرقات شبه الخالية من المارة .

كان ناظم بالنسبة لمن هم في سنه، معروفاً من حيث الكنية والنسب والماضي السعيد المفعم بالإباء والكرم، يحترمونه أجل احترام وله معهم ذكريات جميلة قبل أن يترك مدينته وينخرط في العمل السياسي ويرى في دهاليزه صعاب الواجب وقساوة الطرف المقابل الذي يرى في حرية الآخرين خطاً أحمر يمس مبادئه من الصميم. هكذا عاد ناظم بعد أن انفلت من مخالب القدر ، لكنه مغاير تماماً لما كان عليه قبل المغادرة، فهو الآن لغز يحير الجيل الجديد و خاصة لمن يهوى أن يسلك طريقه في النضال سراً او يلتحق بالجبل ليقاوم علناً.

كنت أقرأ في وجهه مآسي الكُرد، وأتعلم من تقاسيم وجهه دروس الحياة، لم أحاول أن أتحدث معه أبداً، لأنه كان من خلال ملامحه المعبرة و المفعمة بالحياة والإيحاء، يفهم ويتفاهم من دون الحاجة الى الكلام. فالتعبير عن طريق التمعن والتأمل لغة في غاية الرقي والتطور، كما كان الرقص عند زوربا اليوناني لغةً تفوق الكلام الذي لا يستطيع أن يعبر عنه في كل المناسبات وخاصة في الحالات التي يصعب عليه استيعابها بالشكل المعتاد. ونادراً ما صادف أن سمعت بعض كلماته عند حالة مفاجئة او حدوث أمر طارئ، وهو ما كان يسرني جداً لا لكوني من الذين يتقنون الإصغاء أكثر من التكلم، او من

الذين يحبون الكتابة أكثر من الخطابة، بل لانه كان من الضروري أن يعجن الإنسان في هذه الحالات عمق النبرة مع أفق المعنى، ليحصل على الصدق في جوهره النقي. وربما كان هناك كثيرون مثلي يتضايقون من الكلام المعسول الذي ليس له في الأعماق منبع، او من الثرثرة المملة التي ليس لها في الآفاق أثر. وكم كنا نود ـ في حينه ـ أن يقل تأثير هذا الفايروس القاتل في مجتمعنا، إلا أن الذي حدث لاحقاَ كان عكس ما كنت أتمناه .

ومن أجل تبيان حقيقة الرجل الذي كان يخفي في كيانه الإنساني معاني كبيرة تدل على عظمة خالقه تعالى والذي له في خلقه شؤون. أذكر على سبيل المثال لا الحصر هذه اللقطة الدرامية التي حدثت معه قبل ثلاثين عاماً :

في أحد الأيام كنت جالساً مع صديق أعتز به في محله للتصوير، وفضلاً عن مهنته كفنان ومصمم، كان كاتباً متزناً في آرائه ومواقفه ، أزوره كلما سنحت لي الفرصة، حيث كان محله بمثابة منتدى صغير يعوض عن أي ملتقى ثقافي آخر، كانت مدينتنا ـ آنذاك ـ تخلو من مثل تلك المنابر بتاتاَ. كان الحديث في هذه المرة شيقاَ، نتحدث عن إحدى كتاباته المنشورة في مجلة (العربي) الكويتية الصادرة حديثاً، حيث كان من دواعي سرورنا أن تنشر مجلة واسعة الانتشار شيئاً عن الأدب الكُردي وبالذات في الظروف العصيبة كتلك التي أعقبت نكسة (١٩٧٥). في أثناء الحديث انتبهنا الى الرجل الواقف أمام الواجهة الزجاجية وهو يتمعن في الصور الكثيرة الملصقة بها. تكلم الاستاذ رمزي عن شخصية الرجل الواقف وهو (ناظم) وتأسفنا لما آلت به الايام، وتكهنا مع طيب الخاطر بالشؤم الذي لا يمنع أن يكون مصير أي واحد منا ليس بأحسن من حاله، إلا أن حديثنا انقطع عندما دلف ناظم الى الداخل، ومن دون سلام او كلام بدأ ينظر الى ما تبقى من الصور المعلقة في الجدران الداخلية للاستوديو. توقفنا عن الحديث كلياً وساد الجو صمت جنائزي

لا نسمع سوى بعض زفراته بين حين وآخر وخاصة عندما كان يقف أمام بعض الصور مبهوراَ، والتي كانت جميلة جداً و مؤثرة حقاً.....

(٢)

أنه موقف صعب وربما محرج الى حد ما، أن تكون جالساً في محل عام وأمام موقد في يوم شتائي بارد، وتتناول اطراف الحديث مع صديق عزيز ويدخل عليكما فجأة رجل مختل العقل ومبلل من أعلى رأسه الى أخمص قدميه. يقف امامكم دون أن يتكلم ثم يجول في كل اركان المحل متمعناً في الصور والملصقات المعلقة على الجدران ويتمتم مع نفسه...

هذا ما وقع لي فعلاً حيث كنت مع صديق عزيز في حديث شيق ومهم بالنسبة لنا.. قطعنا حديثنا وبانتظار مفاجأة غير متوقعة.. الا أن صديقي صاحب المحل استغل براءة الرجل المسالمة التي تطغى على الجانب الوقح والشرير في مثل هذه الاوقات الهادئة، واسعف الموقف وبادره بالسؤال:

- يا ناظم، ما الجديد في هذه الدنيا؟

اجابه ناظم بكل هدوء ومؤشراً باصبعه الى القطعة الخشبية الصغيرة المعلقة على الواجهة الزجاجية للمحل:

- يا رمزي، لماذا علقت هذه القطعة هنا؟

أجابه رمزي موضحاً:

- تعليق القطعة اسلوب استدلالي حضاري، تستخدمه المحال ذات الواجهات الزجاجية لتسهيل أمر الزبائن في التعريف على أن المحل مفتوح او مغلق.

اجابه ناظم باستغراب:

- واذا كان الزبون امياً؟

- نحن كتبناها للمثقفين..

- لكن أكثر اهالي القضاء أميون لا يعرفون القراءة والكتابة، أما المثقفون الذين تبحث عنهم يا عزيزي، فإنهم غالباً ما يسافرون الى المحافظة او العاصمة، ومن هناك يلتقطون صورهم في أرقى الأستوديوهات.. صح النوم يا حبيبي!.. واحتراماتي الى زبائنكم الأميين، كيف يكون موقفهم من هذه الظاهرة الحضارية؟

أذهلنا ناظم بتعليقاته التوضيحية التي لم نتوقعها منه ابداً، فما كان من صاحبنا الا الأنسجام مع حديث ناظم واستوضح له الأمر بأختصار:

أنهم يتحملون مشقة الأختبار، فاذا لم يفتح لهم الباب الزجاجي، يعرفون تلقائياً ان صاحب المحل في الخارج، وأنه سيعود عن قريب لأن الباب الرئيسي المصنوع من الصفيح مازال مفتوحاً.

فاجابه ناظم بارتياح بالغ وكأنه وصل الى النتيجة الحتمية:

- وأنا، أيضاً، مثل محلك الجميل، علقت على رأسي قطعة مكتوب عليها (مغلق)، لكن الناس الأميين من أمثالك الأفاضل لا يعرفون قراءة الأفكار، فيحسبون ان باب التفكير مفتوح على مصراعيه، ويتبادرون الى فتحه بهذه الأسئلة السخيفة!!..

ذهب ناظم في حينه ولكن سخافة الأميين ماتزال عالقة في ذاكرتي استحضرها في حالات كثيرة واستخدمها، اذا تطلب الأمر، كمقياس لسلوك شخصيات على شتى انواعهم عندما اصادفهم في مجرى الحياة اليومية. وكم من شخصية كبيرة ومرموقة تتباهى

بعنجهيتها وتحاول الدخول عنوة في أبواب كتب عليها (مغلق رجاء). وكم من ابواب اخرى علقت عليها قطع مزينة وجذابة ومكتوبة باروع انواع الخط وبلغات عدة، لكن لا يكلف أحد نفسه حتى بالتفاتة بسيطة، ليعرف ماذا تعني كلمة (مفتوح)؟

٢=١-٢

يعتقد البعض أن ما يرونه صحيحاً هو عين الصواب، وعلى الآخرين تصديقه. يبذلون جهوداً غير اعتيادية لأجبار كل من تصل اليهم سلطاتهم الفعلية على تطبيق آرائهم على ارض الواقع... وفوق ذلك يحاولون توسيع دائرة التصديق وأقواس تطبيقاته لتشمل جميع الذين تؤثر فيهم نفوذهم ايضاً.. وربما تنتابهم موجات الغضب عندما يشعرون ان الذين تحت أمرتهم لا يثنون على مقولاتهم السديدة، وفي الوقت نفسه يعاتبون من هم أعلى مرتبة منهم على عدم أخذ آرائهم القيمة بنظر الأعتبار. لم يأت هذا الأعتقاد اعتباطاً، ولا يخال على بال اصحاب هذا التوجه انهم غير واقعيين، لكونهم حقاً يملكون طاقات فكرية هائلة، وفي كرمهم الوفير كثير من العطاء المشكور، الا أن عيبهم الوحيد هو عدم امتلاكهم فلسفة حياتية واضحة تغور في أسبار الحقائق لتغذي قيم الخير من الأعماق، بل كل ما يمولون عليه هو منطقهم التجريدي الذي يرى في العقل الإنساني وسيلة وغاية فيه السبب والنتيجة.. يكمن في حيثياته تسديد المآرب وتشديد المخالب، طمعاً في الكسب الذي يفيض خيراً ان لم يخاذله طيف مخادع طاريء. على أجنحة هذا

الطيف المخادع، نرى عوالم غريبة على ما يعكسه سلوك بعض الآباء في البيت، او توجيهات بعض المعلمين في المدرسة، او اوامر بعض المدراء في المؤسسات الحكومية، الى أن يصل الأمر الى مناورات رجال الأعمال في دهاليز القطاع الخاص ايضاً.

لم يتجرد المجتمع الكُردستاني من مثل هذه الشخوص النبيلة، ونشعر بمآثرهم العجيبة تغطي سلة الغذاء اليومي لكثير من العوائل المحظوظة، او تزركش مناضد مناقشات التخطيط العامرة، او تزين واجهات الأسواق التجارية المزدحمة... الى أن تصل اشعاعات تأثير هذه الوقائع الى أروقة الشركات الأستثمارية وحرم الجامعات وحتى ساحات كرة القدم...

هذه الفكرة ليست جديدة على المخيلة الإنسانية، ولا هي حالة طارئة استحدثت في مجتمعنا، بل هي ظاهرة عالمية متجذرة في أعماق اعرق الحضارات ومستفحلة بشكل ملحوظ في المجتمعات التي لم تتوازن اسسها الحضارية حسب مبادئ التنظير السليم مع طرق التطبيق الواعي، وفي اطار اجتماعي مقنن.

في الاونة الأخيرة، بدأت هذه الأفكار تنتشر مثل النار في الهشيم، وما هي في حقيقتها الا مفاجآت تعبر عن رغبة اصحابها في أن يخالفوا الآخرين في آرائهم، محاولة منهم على اقناع الأكثرية بأن ما يسلمون به هو خطأ فاضح يحتاج الى تغيير جذري يعاكسه ثباتاً ويحل موقعه افتراضاً.

يحمل التأريخ على صفحاته أمثلة كثيرة تنم على نجومية عالية وفاقت شهرتها أكثر من اللازم واصبحت تصطف مع الملاحم العالمية، مثل: الألياذة اليونانية والأنياذة الرومانية والشهنامة الفارسية ومم وزين الكُردية.. وتشار اليها بالبنان، وتحور في مصطلح له

مفاهيمه العامة التي تشمل الأدب والسياسة والإقتصاد والثقافة وتسمى عالمياً (بارادوكس)، ومن نماذجها القديمة مادار بين أبو الهول والملك اوديب، وكذلك ما ذهب اليه زينون الأيلي ليثبت استحالة الحركة، وحاول ان يبرهن بارادوكسه على أخيل بطل حرب طروادة المشهورة والذي انسحب ثائراً من المعركة بعد اختلافه مع اغامنون، ثم عاد الى ساحة القتال ليثأر لصديقه بتروكل المقتول على يد خصمه هكتور. استطاع أخيل ان يقتل هكتور ويطوف بجثته حول قبر صديقه الحميم المفقود بتروكل، وماعدا هذه فلأخيل بطولات ومآثر كثيرة وكان مشهوراً بعدوه السريع. الا ان زينون الأيلي اراد ان يثبت نظرياً ان أخيل لا يستطيع ان يلحق بالسلحفاة التي انطلقت قبله، بغض النظر عن قصر او بعد المسافة الفاصلة بينهما. ويبرر افتراضه على أساس أنه يجب على أخيل ان يصل اولاً الى المكان الذي وصلت السلحفاة اليه الآن، ولكنه ما يكاد يصل الى تلك النقطة واذا بالسلحفاة قد تخطته الى مكان آخر، واذا تابع أخيل ليصل الى المكان الثاني، تكون السلحفاة قد اجتازت مسافة اخرى... وهكذا دواليك الى ما لا نهاية له. شغلت بارادوكس بال كثير من الفلاسفة والحكام، وغيرت في بعض منعطفاتها مجرى التأريخ...الا أن الأهتمام بها بدأ يزداد وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية وآخر كتاب تطلعت عليه في هذا المنحى هو (باردوكس القوة الأمريكية) لمؤلفه س. ناي جوزيف، والذي يثبت فيه ما هو ليس في الحسبان. أما بارادوكساتنا الكُردية فكلها شفوية عابرة وطارئة تأتي كالنسيم العليل وتذهب كالموج الهائج الذي يتلاشى امام اقدام ذرات الرمل المسكينة . فيضحكنا جبروت هذا العملاق الذي يتكسر ارباً ارباً، لكننا سرعان ما نترك مصيره لنتابع في حفظ المعادلة التي استلمناها بالأمس ونردد اولى فقراتها (٢-١=٢).

حول المنطق ايضاً

يسهل على القارئ الملم بالجوانب الفلسفية، أن يعرف الشيء الكثير عن المنطق، وربما أكثر من الناس العاديين الذين يداولون هذا المصطلح كقياس معياري في التعامل اليومي، حيث يقسمون الأمور، صغيرها وكبيرها الى ما هو منطقي وما هو غير منطقي. ليس هناك اجماع بين الشرائح الأجتماعية او حتى بين المستويات الطبقية المتقاربة على تعريف واحد بما يحتويه هذا المصطلح من معنى. ويمكن ان لا يتفق اثنان على مفهوم واحد له، او في الأقل يتساوى جوابهما على استنتاج موحد... ويجب ان لا نستبعد ان كان هذا الأمر لا يهم الكثيرين، بل ويستغرب الآخرون لو جاءتهم مثل هذه الاسئلة المملة التي لا تنم الا عن بديهية مسلمة ومعروفة للجميع!؟..

سيختلف الموضوع وتتغير نتائجه لو طرح مثل هذا السؤال على الباحث الأكاديمي، ومن المتوقع أنه سيجزم ان الأمر ليس بهذه البساطة وأنه سيشرح ما يلاقي من صعوبات جمة ومخاضات كثيرة في اتباعه المنطق السليم اثناء اجراء تجاربه وغربلة افكاره وانتقاء ما هو صواب فيها.

سيزداد الأمر صعوبة وتتشابك المهمات وتتعسر الأختيارات، لو حاول رجل الأعمال المتمرس او الأداري المسؤول المحنك تنظيم اعماله الأجرائية حسب المنطق المقبول علمياً، والمؤشر الأستثماري الصاعد عملياً. لنترك مثل هذه الأسئلة ونهمل اجوبتها تسريان في دهاليز الحياة السياسية والأجتماعية.. وناتي الى الجانب الآخر من المسألة ونسأل من يهمه سبب ذلك التعقيد المتنامي في فهم الإنسان للمنطق ونقول: ما الذي يحير الإنسان عندما لا يعرف درجة تذوقه لما يستشري في المنطق؟ وما الذي يمنعه عندما لا يتوصل في أحكامه الى النتيجة التي ترضيه؟ !الا نستبعد ان يكون الجواب الشافي مكمناً في بودقة ما يجمع فيها آخر ما يستجد في الفكر الإنساني المعاصر. ويمكن ان لا يتقرب هذا الجواب من المنطق ايضاً، لان المسافة التي تفصل بين التفكير السطحي للتعامل اليومي بين

الناس وما يتعمق فيه الأكاديميون في ابحاثهم وما تطبقها ادارة الدولة في مؤسساتها المتنوعة... ما هي الا محطات كبيرة ومتباعدة ومختلفة الى حد كبير، لذا لا يمكن ان يتوصل الإنسان بهذه السهولة الى جواب يناصف مثل هذه التساؤلات (المنطقية!!).لذا لابد وان نسترشد ولو في حده الأدنى الى ما توصل اليه المفكرون قديماً وما استنتجوه بالأمس وما يلهثون وراءه اليوم: عرفه ارسطوطاليس (٣٨٤- ٣٢٢ ق.م) بانه (طريقة في تحليل العلم الى مبادئه واصوله) ويقول العرب الأقدمون انه (أداة فكرية تعصم الإنسان عن الخطأ في التفكير والأستنتاج. أما المفكرون المحدثون فأن لهم رأيهم الأستنتاجي فيعرفونه انه (علم يساعد على التفكير الصحيح، ويفرض ترابطاً ضرورياً ومنتظماً بين الأحداث والأفكار، مؤداه: اذا حدث شيء ما فان ذلك يستتبع بالضرورة حدوث شيء آخر معين عنه. وبالرغم من أن المنطق يركز على ترابط وتسلسل سائبين بين الآراء بحسب اصول التفكير، الا ان البعض يرون في اقسامه فروقات جوهرية تنم عنها طرق جديدة في الأستنتاج وأساليب حديثة في التحليل، ولعل المنطق الرياضي والذي تعمق فيه برتراند رسل (١٨٧٢- ١٩٧٠) له الأثر الكبير في طرق الأستدلال الرياضي. ووضع حجر الأساس لغيره من الرياضيين مثل ديفيد هيلبرت ومن بعده الرياضي الكبير كورت غودل. ويبقى السؤال الأستفزازي الأخير الذي يتطرق الى أذهان البعض وهو: ما هو موقعنا على المساحات الشاسعة للمنطق؟ وما هو موقفنا من أقسامه وفروعه التي بدت كأكسير الحياة وخميرة النضوج في جميع مجالات الحياة المعاصرة.

أحلامنا في القرن الماضي وما نعمله في القرن الحالي

يذكر الشاعر الكُردي عبدالخالق شيخ حسين النقشبندي (١٨٩٥-١٩٦٢) والملقب بـ(أثيري)، في احدى قصائده التعجيبية والمنشورة في الجزء الاول من ديوانه المطبوع في بغداد ١٩٨٧ (ص٦٠-٦١) (أرى وطناً واحداً يعيش فيه شعبان، احدهما في الشمال والآخر في الجنوب وبالرغم من ان ارض (الشمال) تدر خيراً وأرض الجنوب تعصف فيها شرارة الرعب لتزهق الارواح.. ومع ذلك فأن أهل الشمال ينهكهم الضعف وأهل الجنوب يغرقهم الترف).

ومن الارجح ان الشاعر يقصد بذلك الوطن (العراق)، حيث كانت تلك الفكرة سائدة بل ومتجذرة ـ آنذاك ـ في عقول المواطنين الذين كانوا يعيشون في أحلك أيامهم العصيبة، الفقر والجهل متفشيان في طول البلاد وعرضها.

وحتى لو كان في ذلك التوجه شيء من الصواب، الا انه ليس الحقيقة كلها، لان وضع الجنوب لم يكن احسن حالاً من (الشمال) بل يتخطاه في الفقر والعوز والجهل.. الا ان احساس الشاعر يوحي الى ما يكبت في طيات الايام من نوايا غير حسنة لا تريد (للشمال) خيراً وان كان هذا هو القصد، ففيه من عوامل التفنيد اكثر مما تثبته الحقائق الملموسة.. وما بين العاطفة والفكر خيوط رفيعة تسري فيها اطياف الخيال الخلاق والتخييل التوحدي وربما اشياء اخرى تحاكي ضمير الشاعر وتثير ميوله او تهيج انفعالاته.. وكل ذلك من أجل ان يستقيم ما هو معوج في نفس الإنسانية ويتوازن ما هو مختل في المجتمع..

وهنا لانريد ان ندخل في نقاش عقيم، تخيب فيه آمالنا كالذين جادلوا وتشاجروا لاختلافهم في السؤال البارادوكسي المحير الذي يمكن تصديقه ولكن يستحيل تثبيته، لان

محوره الاساس يدور أياماً وسنين حول معرفة العدد الحقيقي للحوريات اللواتي بامكانهن الوقوف سوية على رأس إبرة.

ولكي لانتعمق في أغوار ما لا يعنينا ونسلم الابرة للخياط، لانه ادرى منا بما يفعل بها ونتقرب من ذلك الواقع المأساوي الذي كان شعبنا يعيش فيه، حدثني المتنور شكري ملا احمد اثناء ما كنت ادون ملاحظاته حول (الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مدينة عقرة قبيل الحرب العالمية الثانية)، حيث كان متعاقداً ـ آنذاك- مع دائرة الارشاد الزراعي، قال ضمن ما كان يتذكره: كان صائب بك قائم مقاماً للقضاء وبحكم وظيفته كمسؤول اداري اول كان رئيساً للمجلس البلدي ايضاً، في احد اجتماعات المجلس اقترح عليه الاعضاء العمل على استخراج الفحم الحجري الموجود بكثرة في جبل عقرة وبالتحديد بالقرب من قرية (هشتكا)، في البدء اتفق الجميع على جمع المعلومات وفي اليوم الثاني ارسلوا مجموعة من عمال البلدية لجلب عينات من المادة.. ولما تم فحص المادة اعجبتهم قابليتها الجيدة للاحتراق، حدد السيد القائم مقام يوماً لعقد اجتماع موسع يحضره رؤساء الدوائر وشخصيات معروفة في المدينة، كان الاجتماع في قاعة مدرسة عقرة الابتدائية المجاورة لمركز السراي، بدأ الاجتماع بكلمة مستفيضة من قبل القائم مقام، بشر فيها أهل المنطقة بوجود هذه المادة التي ستنعش اقتصاد البلاد واسترسل في ذكر فوائدها، ثم بدأت المداخلات وتخللت النقاشات بعض الفعاليات الترفيهية ايضاً واختتم الاجتماع الاحتفالي بتقديم اللحم والكبد المشوي على نار مناقل الفحم الحجري التي اعدت لهذا الغرض.

كانت المناسبة جميلة الا ان الاراء الاخيرة اتفقت على اخفاء حقيقة ما قد حصل، لان الحكومة المركزية اذا علمت بالخبر رسمياً ستعمل كعادتها على تهجير أهل المنطقة وجلب عمال من مناطق اخرى.. وتجني الارباح لنفسها والتي غالباً ما تشتري بها الاسلحة لتقمع الاصوات التي تطالب بحقوقها.

في هذه الحادثة ـ وان كانت تفاصيلها صحيحة – فهناك وجهات نظر متقاربة بين ما تكهن به الشاعر أثيري وما اعتقده أهالي منطقة عقرة.

كان هذا الرأي سائداً عند رجال الأدب ولدى رجال الادارة، ولمسناه عند رجال العلم ايضاً، حيث ذكر صديق لي كان يعمل مهندساً مدنياً ضمن المجموعة المشرفة على شق طريق في جبل (سادة) سنة (١٩٧٧) حيث قال: اثناء حفر احد المنعطفات في الطريق فاجأنا تدفق سائل كثيف اسود تكهنا بانه نفط خام.. كان من المفروض ان نبلغ الجهات العليا، الا ان ظننا كان أشبه ما نتوقع ان تحدث كارثة اخرى، مثلما حدثت في كركوك وخانقين ومناطق ملتهبة اخرى بسبب وجود هذه الآفة ـ النقمة والنعمة – في ان واحد، طمرنا البقعة كي تبقى الثروة لأهلها عندما يقع زمام أمور البلاد بأيديهم.

تعددت الحالات التي تؤيد صدق تلك الاحتمالات، وكثرت الى الحد الذي يمكن ان تجمع في موسوعة كاملة.. لم أكن أميل ـ يوماً- الى تحليل تلك الاتجاهات ولا اعيرها اهتماماً، ولا اعتبرها تستحق الذكر، او أحاول الكتابة عنها.. الا ان الامر اختلف بعد ان تبين لي مدى تأثير استخراج الثروات النفطية بعد عام (٢٠٠٣) حيث قرر شعب كُردستان العراق تقرير مصيره ضمن فدرالية الدولة العراقية، الا ان عملية الاستخراج

اثرت سلباً على العلاقة المتوازنة بين الحكومة المركزية وحكومة الاقليم، وما يتعلق بالكُرد يكمن في ثلاث نقاط:

- ارتاح الكُرد للاطمئنان الذي وفره الدستور العراقي للجميع.

٢- ان عملية استخراج النفط لاتهدد مناطقهم للتهجير القسري، وجلب عمال من مناطق اخرى، بل بعكسه ستوفر فرص العمل لهم.

٣- ان النفط لا يصبح مصدراً لشراء الاسلحة التي تهدد وتقمع الاصوات التي تنادي بالمساواة.

وهكذا فالنفط ملك الدولة، وما يحدد مساره وسياسته هي شبكة الانابيب الوطنية التي تديرها حكومة المركز، وما عدا ذلك فهو غرض في نفس يعقوب.

الحضارة الكُردية بين صناعة اللبن وصناعة النكتة

النكتة والمحبة توأمان، تعرف عليهما الإنسان منذ أن تعانق الذكر والأنثى لاول مرة، او عمل اثنان في الحقل او بادرا بنـزهة قصيرة في الغابة، او ناما سوية في كهف...

والمحبة هي منهل فن النكتة، والنكتة نفسها مفتاح الدخول الى عالم المحبة، او تذكرة اذن لمعاشرة رقي الأخلاق. وصدق قوله الحق: من لا يحب لا يعرف الله لأن الله محبة. يزيدنا... ابن عبد ربه علماً ومعلومة عما يدور في رحاب الكلام اللطيف، حيث يقول في الجزء الثالث من كتابه العقد الفريد ما مفاده: ان يوحنا وشمعون كانا من الحواريين. كان

يوحنا لا يجلس مجلساً الا ضحك وأضحك من حوله. وكان شمعون لا يجلس مجلساً الا بكى وابكى من حوله. فقال شمعون ليوحنا: ما أكثر ضحكك، كأنك فرغت من عملك!. فقال له يوحنا: ما أكثر بكاءك، كأنك قد يئست من ربك! فاوحى الله الى المسيح، ان أحب السيرتين الي سيرة يوحنا.

النكتة، كما تعرفها المعاجم: (هي جملة لطيفة تؤثر في النفس انبساطاً) او (هي مسألة دقيقة أخرجت بعد نظر وتفكر). وربما هناك تعاريف لا تحصى نظراً لأهمية الموضوع عند جميع شعوب المعمورة، الا أن جميعها تدور في مساحة لا تتعدى ما كان يعنيه أحد التعريفين الجميلين الآنف ذكرهما. وفي كل الأحوال اذا كانت في ثبات صدق النكتة حكمة يستفيد منها الإنسان، او فكاهة محكمة العبارات، فأنها تدل بلا شك على بعد نظر ناظمها وشهادة موثوقة على صفاء تفكيره وبديع كلامه وجمال حسه المرهف. وهو ما يطابق على المتسلم المستوعب لمحتواها المكثف، ويزداد التقارب بين الأثنين (أي المرسل والمستلم) كلما اختزل الوقت وتقلصت سرعة الأيصال. والأمة التي تملك ادباء وفنانين وعلماء يبدعون في ابتكار النكتة سواء على مستوى الكتابة الراقية أم الترديد الشعبى.. لها الحق بان تتباهى بمدى مدنيتها وسعة افكارها، لأن في كلتا الحالتين مظهر من مظاهر التحضر ومرآة شفافة يرى من خلالها الحالة الإجتماعية والسياسية والمعرفية بكل تفاصيلها.. ويتوازى هذا المظهر الفكاهي الجذاب مع الجد الخالص، كلما اختلط الفن الرفيع مع العمل المثمر عضوياً، وبدا الأثنان شيئاً واحداً في قاموس تلك الأمة الثقافي. ولا يخفى على أحد بان أكثر العلماء والفلاسفة والأدباء والأفذاذ كانوا من اصحاب النكت والدعابة اللطيفة، ما عدا قلة قليلة منهم عرفوا بسوداوية نظرتهم للحياة وكان

التشاؤم والعبوس يكتنفان اعمالهم الإبداعية مثل ملتون في الأدب الأنكليزي والشريف الرضي في العربية... ومع ذلك فالفكاهة عند بعض الشعوب ومنهم الأنكليز تتسم بالعفة التي هي صفة حميدة وسمة مفضال في التراث الإنساني، لانها تعتني أكثر ما هو متعلق بالأخلاق ونوع الأعمال الحرفية وتشخيص المتناقضات من أفكار وآراء واقوال الناس. اما عند بعض الشعوب الأُخرى ومنهم العرب فأن الفكاهة تنـزل احياناً عند الهجائيين الى أبخس انواع الشتم والسباب، لأنها أكثر ما تهتم بالعبث والعيوب الأجتماعية والجسدية وذم من ليس مرغوب فيه عند البعض، او يكن له عداءً ويريد الأنتقام منه. فهذا المتنبي المشهور بجديته وصلابته في التعبير يسخر من رأي اعرابيين يتباهيان فخراً لأنهما قتلا جرذاً بالقرب من مضياف شيخهم، فيقول عنهما:

وأيكما كان من خلقه؟ فإن به عضة في الذنب

للجاحظ مواقف ونوادر كثيرة، وربما يكون أكثر كُتاب العرب إلماماً بما هو طريف في المجتمع، لأنه عاش في عصر وصلت فيه الحضارة الى اوج رقيها فكثر تبرمه بالثقلاء وتوالت سخريته بالبخلاء وله في ذلك مؤلفات. وفي مقامات بديع الزمان الهمداني وقصص ألف ليلة وليلة، ايضاً، فكاهات ومداعبات هي في غاية الإمتاع. من جملة المداعبات الذكية التي كان الشعراء يجاملون بها أدعياء النسبة تلمساً منهم بعطف السلطة او طمعاً لجاه يسعون اليه، فيقول بشار بن برد عن احدهم: (ارفق بعمرو اذا حركت نسبته فأنه عربي من قوارير مازال في كير حداد يردده حتى غدا عربياً مظلم النور...)

بدأت الذاكرة الكُردستانية، ايضاً، تبدع في خلق النكتة اللطيفة الهادفة، وهي تنتشر مثل النار في الهشيم، وتسري من دون أذن مسبق او خجل متحفظ في مفاصل الشرائح

المثقفة وتجلس في مضايفهم مشكورة. وبذلك فهي تسبق المقالة الساخرة او زاوية فكاهية او حتى لطافة كاريكاتيرية تفتقرها اليوم المكتبات والصحافة على حد سواء. وربما تستنكفان استقبالها، وحبذا لو كان السبب المتوقع هو أن الفكاهة غير مرحب بها في وطننا لأنه كان يئن – الى وقت قريب – من وطأة الذل الذي اذاقه نظام حاكم لم يتقن فن الإبتسامة ابداً. بل كان متوتر الأعصاب، حاد الطبع، شديد البأس، يُبكي ولا يبكي، يسخر من دموع الأطفال ويستهزئ بآهات الأرامل والثكالى... وبذلك خلف وراءه ارضاً جرداء خالية من الحياة الحرة، وحرية تخلو من النكتة.. وأن وجدت كانت بمثابة ردود أفعال على عنجهيته وغروره الذي افل ولم يعد له أثر في المجتمع الكُردستاني. وهذا هو السبب الذي طال فيه الحديث عما تعامل العرب مع القول اللطيف ولهم مع الكُرد وشائج وروابط لا يمكن اغفالها او أهمالها بأي شكل. وفي التراث الكُردي الشيء الوفير من لطائف القول وفكاهات العبث، دون القسم الأكبر منها الأستاذان علاء الدين سجادي ومحمد امين بوز ارسلان، وما زال الكثير من كنوزها مخفية، ولا ضير في ذلك لو تدفق نبعه من جديد ليبدع بما هو ألطف وما هو اقرب الى وقائع واحداث اليوم. ومما يؤسف له أن الشاشة الصغيرة الكُردية بالرغم من تعدد قنواتها واستمرارية بثها- المحلي والعالمي ـ الا أنها لا تصادق مع الدعابة ولا تريد التعرف عليها الا ما ندر.. وسوف تدفع ضريبة تعنتها في يوم ما. وإن كانت في السابق مدن كُردية تمتهن صناعة النكتة وتشتهر بمداعباتها الحلوة في كل حدب وصوب مثل السليمانية وعفرين... الا أن ما تقوم به اربيل حالياً، في مجال صناعة النكتة وتوليد اللطائف على المستوى الشعبى، هو ابداع يضاهي ما كانت تصنع من اللبن في السابق وما تبني من عمارات في الوقت الحاضر.

الحقيقة العابثة في حياة الكُرد

هل ان قانون أي شيء هو الشيء ذاته؟ سؤال فيه شيء من البديهية المسلمة لمن يتعمق في قضايا القانون، او لنقل من له اهتمامات في مجال حقوق الإنسان، وفي الوقت نفسه فإن مثل هذه الاسئلة ليس لها معنى عند البعض الآخر وخاصة لمن لم يتعب نفسه فيما لا يعنيه او لمن يأخذ من صفة اللامبالاة منهجاً سهلاً في الحياة. وفي الحالتين سواء أكان السؤال بسيطاً في لامبالاته، ام معقداً في قوانينه.. فأنهما سيبقيان في غاية الجد والاهمية لمن يهمه ضرورة وجود الإنسان.. وتحديداً لمن لم تستكمل انسانيته ضمن اطار وطن لم تحدَّد فيه حريته بعد، وبقي معلقاً بين سياسة دولة لا ترحم وارادة مواطن تحتقر الذل. وهذا هو المنعطف الخطير في حياة أي انسان يتمعن في جوهر الامور البسيطة ويراها في غاية التعقيد، حيث لا بساطة في الحياة لو أخذ أي جانب منها بمحمل الجد، وما يراه البعض بسيطاً فمن غير المستبعد ان تبنى عليه قواعد كبيرة تبدأ من تربية الطفل وتنتهي بتحديد مستقبل امة. لنترك الطفل يرتاح في حضن امه، وندع الامم تجني ثمرة جهودها، او تدفع ضريبة مواقفها المغفلة، ونعود الى لب سؤالنا البسيط والمعقد في الوقت نفسه: (هل ان قانون أي شيء هو الشيء ذاته؟).

يتخاصم العالم في اختيار الجواب المناسب لمثل هذا السؤال البسيط وينقسمون على محورين:

- محور يفقه الحياة بأدق تفاصيلها، ويحاول عن طريق اختراعاته وابتكاراته ان يستكشف عوالم جديدة هو في اتم الحاجة اليها.

- محور غير مهذب لا يأبه بغير السيطرة على الآخرين وإجبارهم على الاعتراف بأنه هو الاقوى وعلى الآخرين اطاعته.

وهنا يأتي السؤال التالي الذي حير العقول دهراً: هل ان عدم التهذيب مرحلة مؤقتة من التأريخ؟ ام انه التأريخ نفسه ومنه تأتي قوانينه التي ضاقت بها الامم من الويلات، ويشتكي من كوارثها المستضعفون حيث نالوا من مصائبها القسط الاكبر.

المحور الاول هو الحياة بسلاستها وعنفوانها ومجراها الطبيعي، اما المحور الثاني فهو الحالة الاستثنائية والشاذة في اكثر مفاصلها المشلولة، وعندما يفيق احد المفاصل يعبث بكل ما هو اعتيادي ومنسجم وسوي، ويحاول تعكير الاجواء ليثبت ماهيته، والتي في اكثر الاحوال لا تعني شيئاً بالنسبة لما هو جدير بأن يسجل في التأريخ.

وما بين المحورين حالات كثيرة أرادت ان تدخل التأريخ من اوسع ابوابه، إلا انها لم تحظَ بما يمكنها من ان تقف على رجليها لتقول كلمتها واصبحت حياتها حقيقة عابثة ولم تنل اعجاب اعز القريبين اليها، وفي تأريخ الكُرد أمثلة كثيرة على ذلك نذكر منها حياة البطل الاسطورة سمكو شكاك والذي قام في سنة ١٩٢٢ بحركة مسلحة في منطقة اورمية وسيطر على مناطق واسعة من كُردستان ايران، ومما يذكر من مواقفه الجريئة انه عندما دخل مدينة اورمية ذهب وجهاء المنطقة لملاقاته خارج المدينة، استقبلهم سمكو كرهط واقفين وهو يتمشى أمامهم خاطباً فيهم بما كان ينوي عمله من أجل التحرير، واعداً فيهم بالتهديد لمن يحاول الوقوف بوجه مشروعه الوطني او يتعاون مع الاعداء.. واثناء

خطابه هذا دخلت حية كبيرة حيث تشتهر المنطقة بثعابينها السامة صفوف الواقفين وعكرت جو الاصغاء ومرت من جانب سمكو، الا ان سمكو لم يأبه بذلك بل التقط الحية بحركة سريعة واستمر بخطابه دون أن يفسح المجال لاحد أن يشوش على كلماته، ما ان مرت دقائق حتى لاحظته الجموع بان سحنة وجهه قد تغيرت وعض على شفته السفلى وهو مستمر بالكلام وبحركة سريعة ايضاً رمى الحية ارضاً وداس على رأسها وقتلها وسحب خنجره وبتر الجزء الملدوغ من يده.. وكان ينزف الا ان اتم خطابه ووضع كل شيء في محله بالاتفاق مع المستقبلين وكان الجرح ضمن هامش اهتماماته القيادية آنذاك، كانت الحادثة محل ادهاش الحاضرين وتناقلتها الاجيال ضمن البطولات الكثيرة لهذا الجبلي الذي لا يهاب شيئاً، شفاهاً إلى ان سجلتها جريدة كُردستان في عددها الثالث والصادرة في مهاباد يوم ١٥ كانون الثاني من عام (١٩٤٦).. اراد سمكو ان يدخل التأريخ من باب الحرية لا كقائد عسكري بل كثائر ضد الظلم وطغيان جبابرة عصره الذين عجزوا عن النيل من سلطته على المنطقة، ما استدرجوه للمفاوضات، وهناك في خيمة المفاوضات في مدينة (شنو) فاجؤوه بالمكيدة وغدروا به واستشهد مع المجموعة الوافدة معه للمباحثات، ومن شدة حقد نظام رضا شاه مثَّلوا بجثث الشهداء ولم يعرفوا جثة سمكو الا من خلال اثر الجرح الذي بتره هو بنفسه اثناء لدغة الحية.

ظهر من بين الشعب الكُردي نماذج كثيرة من أمثال سمكو، الا ان كثيراً منهم اصبحوا ضحايا الغدر والمكائد التي تدبر لهم سواء ممن لا يريدون للكُرد خيراً ام من بعض الكُرد أنفسهم، ومن هنا لا نستطيع ان نصنف هذا الشعب ضمن شعوب راقية لكنه غير محظوظ، او ضمن شعوب غير راقية لكنه يخسر دوماً مع شعوب محظوظة، لان المعادلة

تدخل في تصنيف آخر وهو ان هناك اماً مهذبة واخرى غير مهذبة ويحمل الكُرد هوية الصنفين ولكن الاول هو الأرجع.

سيدة من بلادي

تقول احدى السيدات الكُرديات والتي تشغل اليوم منصباً اجتماعياً مرموقاً، ولها من الخبرة الادارية في مؤسسات الدولة اكثر من أربعين عاماً: (عندما تزوجت وانا لم اكمل العشرين من عمري، كان وضع المرأة سيئاً للغاية وما عدا القيود الاجتماعية الكثيرة التي كانت تكبلها الى حد الرق، كانت دائرة الالتزامات البيتية متعبة جداً وتضيق عليها الخناق من دون رحمة وتجبرها ان تعمل من دون ان تعرف للزمن تقاسيم وحدوداً.

كان الحال يزداد سوءاً لو كانت المرأة كنة تعيش في كنف أسرة زوجها، حيث تبلغ قائمة الاوامر من الطول فتضيع عليها نوع صلاحيات الاخرين وكيفية استغلال نفوذهم في تكليف من هم أقل منهم مرتبة، الا ان الشيء الذي كانت تعرفه جيداً هو ان تكون حريصة في اتقان فن الاصغاء وتفهم ما يناط اليها من اعمال، لذا كان جل تركيزها ينصب على ما تفعل من دون ان تثير مزاج الآخرين.

وهكذا تمضي سنوات وهي تكد وتجهد وتثابر وعندما تنجح في كل الاختبارات وتقدم الولاء للجميع، عندها ينعمون عليها بالمديح وربما بعض الهدايا في المناسبات لانها تربت في بيت الوالد الحنون، وصقلت شخصيتها في بيت الزوج الحبيب... ولا تنال اية مرتبة اجتماعية الا عندما يتزوج ولدها البكر وتصبح حماة وتتقن كل فنون اضطهاد الكنة!.

وتضيف السيدة الفاضلة معاتبة الزمن الذي تغير رأساً على عقب وتقول: عندما كنت كنة كانت الاوامر والنواهي بيد الحماة وحدها، ولما اصبحت حماة غدت كل الاوامر بيد الكنة ولها استقلالها التام وكلمتها المسموعة من الجميع كما ترونه الان (والحمد الله)، الا أنني ما رأيت الا الاضطهاد والقهر والموت البطيء الذي ينخر بآهاته اجسام العجائز اللواتي لم تبق لهن قيمة سوى من تشد ازرها وتتحدى المخاطر... صب على رؤوسنا جام غضب الجيل الجديد، الذي يكافح لا من اجل حياتهم ومستقبلهم فقط، بل لكي ينتقموا من أجل الاجيال السابقة ايضاً.

واختتمت السيدة كلامها بآهة اخيرة أتت من الاعماق: ما أتعس حياة الإنسان عندما يقع بين السندان والمطرقة... وماذا نعمل أنها شيمة المنعطفات، خزي يضمحل ومجد يعلى... فانعم علينا يا رب برحمتك ولا تحرمنا من ومضة الامل...

ليس لدينا ما يؤكد او يفند صحة ما تقوله السيدة، وان المنزلة المرموقة التي تشغلها الان لا تكفي لزاماً لنيل ثقة الاخرين، او تكون براهين تثبت خفايا تلك الاحداث التي عمت على الجميع جهاراً واستمرت أجيالاً.

لو كان تصديق ما ذهبت اليه السيدة صعباً على الجالسين القانطين، فان الامر هين بالنسبة للباحثين المولعين في التشكيك قبل الكشف، والشغوفين في العمل قبل التحليل.

وبادئ ذي بدء هناك نافذتان على ذلك الميدان الرحب والذي هو جزء من تأريخنا، ذلك التأريخ الذي لف كل ماضينا بأفراحه واتراحه بهزائمه وانتصاراته لذا لا يمكن اغفاله او تركه من دون التفاتة، يلفه النسيان، وبعكسه لو تم كشفه واستغلال مكنوناته، فانه كنز لا ينضب.. ومن خلال النافذتين يمكن العمل بأحد الاسلوبين:

- الاستفادة من تجارب الشعوب المجاورة التي يجمعنا وإياهم تراث ثر وما تم تدوينه وتوثيقه في مجرات ارشيفاتهم، من الممكن مقارنته مع الشذرات الموجودة في خفايا كتبنا القليلة التي تهتم بالحياة الاقتصادية والاجتماعية وبعض من الاهتمامات الثقافية...

٢- نبش التراث الشعبى الكُردي، حيث تم جمع وتنقيح نسبة لا بأس منه في الاونة الأخيرة، فيه الشيء الكثير والوفير من الاحداث والمآثر والوقائع والحكم والتجارب... لتكون نبراساً في حسم الامور المستعصية، او دليلاً في فك الالغاز، او مرشداً في كشف الأسرار، او مسانداً في إزاحة الشكوك من بعض الطروحات التي يلفها الغموض وتنقصها الدلائل المثبتة، كالتي طرحتها السيدة الفاضلة أعلاه.

أمام الاقتراحين المذكورين أبواب موصدة يصعب فتحها حالياً، لا لكوننا عاجزين عن القيام بذلك او هناك شحة في الامكانيات المطلوبة لتنفيذه، بل هناك إرادة غائبة وقناعة مفقودة عند معظم مؤسساتنا الثقافية وكذلك منظمات المجتمع المدني المحسوبة على ذمة مسيرتنا التحررية... وربما تعود أسباب ذلك الى:

- في الاقتراح الاول سيكون هناك تهميش لدور الكُرد، اذا ما قامت جهات علمية او ثقافية بإجراء مقارنات او مفارقات بين تراث الكُرد وتراث الآخرين.

- في الاقتراح الثاني، ستكون هناك إهانة كبرى لذوي البدلات الفاخرة او السواعد المفتولة، لو أقدمت على متابعة أعمال أشباه الأميين، او كلفت نفسها بتحليل أساليب حياة المزارعين وأصحاب المهن البدائية التي أكل عليها الدهر وشرب.

وربما هناك أسباب أخرى لا أود سردها هنا، بل أتمنى ان أكون مخطئاً فيما ذكرته من سببين لا يليق أي منهما بمستوى شعب يعيش في القرن الحادي والعشرين.

ضحايا المنعطفات الوعرة

المحيط الصالح والملائم للعمل مثل النهر الصافي الذي تحلو فيه السباحة، وكلنا نعلم ان هناك حقيقة اجتازت مرحلة الشكوك في مصداقيتها وهي: مهما بلغت درجة نقاوة وصفاء النهر فأن ضفافه لا تخلو من الادغال الموحشة والاوحال المزعجة، ومما يزيد الطين بلة عندما يتربص القناصون في شعابها لالتقاط اية فريسة تصادفهم علانية ان استطاعوا، او خلسة اذا كان هناك ما يمنع تجاوزهم على حرمات الآخرين.

ولما كان النهر هو الطرف المشبه بالطرف الأساس الذي نحن هنا بصدده وهو محيط العمل، لذا يحاول الكثيرون ان يضبطوا التوازن بين الطرفين: طرف العمل بنظامه واتعابه ومكاسبه، وطرف النهر بصفائه وأدغاله وعصاباته. وهنا لا نتكلم عن الصيد، لان من هو في الطرف الآخر من المعادلة ويتكيف طوعاً في محيط العمل، لا يحبذ ان يكون ضحية بريئة او فريسة مغفلة، لانه يعلم يقيناً أن هناك من يحاول ان يجعله اول الأهداف وآخر الشواخص في هذه المعادلة المعقدة. يعتقد البعض ـ في الوهلة الاولى- وخاصة من هم خارج هاتين المعادلتين، ان السباحة أفضل من الصيد وانفع وربما أروع من باقي أنواع الرياضة إطلاقاً سواء ما تمارس في الماء ام على الأرض ام حتى في الجو، ولا يختلف اثنان

في مثل هذه الطروحات المرموقة، الا أنهم يذهبون ابعد من ذلك عندما ينبذون اصطياد المغفلين ويعتبرون الانقضاض على الفريسة البريئة جريمة لا تغتفر، ويخفى عليهم أن الواقع يثبت عكس ذلك، ويبقى المغفلون مثل السلالم الآمنة يصعد بها الأذكياء الى درجات توفي بعضاً من طموحاتهم اما الفريسة ـ ان وجدت- فهي لقمة لذيذة انعم بها القدر على المحظوظين، لذا لا يمكن ان يفوتوا الفرصة بل عليهم تقبلها مشكورين.

لو يتعمق الإنسان في مجريات المعادلتين أعلاه، ويطبقهما على مجتمعنا الذي يهوى بكل جوارحه ان يكون سباحاً ماهراً، ويمقت باستمرار في وسائل إعلامه المقروءة والمسموعة والمرئية وحتى على مستوى الحديث المتداول شعبياً، نعم يمقت ويشمئز من كل ما هو موجود في الطرف الآخر من الغابة... انه أمر مفرح وعلامة فخر يعتز بها الأبناء قبل الآباء.

وخارج هذه الدوامة الضبابية، تبقى أشياء كثيرة يلاحظها المرء عن بعد، ولو تفحصها عن قرب فيرى العكس تماماً، ونادراً ما يصادف جسماً رشيقاً حراً لطيفاً وديعاً مبتسماً للحياة ومستعداً لعرض مهارته تحت الماء الصافي، وان وجدت مثل هذه النماذج البريئة او المغفلة فأنها سرعان ما تصبح فريسة لقنص اياد متربصة تختفي قوتها في أدغال الضفاف وتنتشر شحناتها بين صخور القعر وفقاعات سطح النهر.

قد يستغرب الإنسان الذي يتحاشى ان يكون صيداً او صياداً من هذه المفارقات العجيبة في العمل والتعامل.. وقد يكون صادقاً في استغرابه ومحقاً في اندهاشه.. بل ومصيباً في مبتغاه الحيادي، لان الحق والخير وبكل ملحقاتهما لا يصحان خارج هذه الدائرة، وليس هناك ما يرحب بهما ان لم يكونا ضمن مدخلات شرنقة هذه الأفكار

الرومانسية. ما أحلى الحياة الرومانسية، لو بقي النهر صافياً رقراقاً واندثر الصيد الى الأبد... الا ان هذه الأحلام البنفسجية لا تفيد الا المنزوين الذين تزعجهم شعاعات الشمس والقمر معاً ويستفزون من نورهما سوية... ومع ذلك فأنها ستبقى أحلاماً لها معانيها وبنيتها التجريدية لتدغدغ مشاعر المنهزمين من ساحات الوغى او الذين لا تروقهم المجابهات أصلاً. كل هذه التناقضات المملة تصبح بديهيات لحالة فريدة، وقلما تحدث في تأريخ الشعوب.. وهي حالة المنعطفات الوعرة التي يمر بها، حيث تتصارع الفضائل والرذائل، ولا يحسم أمرهما بطرفة عين بل يحتاج الصراع الى أشهر وسنين كثيرة، وربما يذهب عصر ولا يتبدل شيء، وخاصة ان لم يكن هناك من يريد تسديد أجرة فاتورة السفر الممتع وإقرار حتمية التغيير. وهناك أمثلة كثيرة لضحايا المنعطفات، ووقائع عدة لنزالات صراع الأفكار، يبتسم لهما تأريخ الإنسانية ولا يدلي بدلوه عما يحدث ولكن في كل الأحوال، لابد من ذكر بعض الأمثلة، وكم تكون النماذج فاعلة ومباشرة ان أتت من باب الاستكشاف الجوهري لتكون المسألة ـ التي نحن جزء منها ـ اوضح وحكمتها اعم وتوصيلها أسرع، وحتى إهمالها أسهل لمن لا يريد ان يتعظ من التأريخ شيئاً.

عشقي الكردستاني رمز للإنسان المتحدي حضارياً

فشل الإنسان مراراً في أن يبقى فسلجياً إلى ما لا نهاية، ولكنه لم يفشل في أن يخلد ذكراه إلى الأبد. و الذكرى تعني وجوده في مخيلة الآخرين، ومادام أحد من الآخرين باقياً فإن آثار أعمال ذلك المحترم او تأثيرات أفكاره جارية ـ لا محال ـ بدون توقف لأنها حفرت في الزمن ويبقى الزمن قيمة عليا تسيّر وتوجه جميع القيم الفاضلة صغيرها وكبيرها

وسواء أكانت المسألة في الماضي البعيد أم الحاضر الآتي ومن دون تغيير في الأساسيات المنظورة او المخفية على حد سواء. أرى أن (عَشقي الكُردستاني) كان أحد هؤلاء المحترمين الذين تحدوا من أجل أن يثبتوا وجودهم ولكي تبقى ذكراهم خالدة في التأريخ، ذلك التأريخ الذي لا يرحم الضعفاء ويشمت الجبناء إلا أنه يخر ساجداً أمام العظماء الذين لا يتعاملون مع التأريخ بأنه كتلة مستقلة بل يجمعون شذراته من هنا وهناك ليضعوا منه من يروق لهم من كيانات تعجبهم مجالاً وتفيد الآخرين خيراً وهذا ما فعله عشقي الكُردستاني بكل فخر واعتزاز. كان (عشقي) من دعاة الثورة الدستورية التي أجبرت الشاه الإيراني مظفر الدين القاجاري بأن يرضخ لإرادة الجماهير و أصدر الدستور في الخامس من تموز (١٩٠٦) حيث قامت اول حياة نيابية في تأريخ إيران الحديث وبدت البلاد كأنها على اتصال دائم مع اوروبا التي تعيش في ظل دساتير تكفل للجميع الحرية والمساواة، وعاد كثير من العلماء إلى طهران وغادر المعتصمون السفارة البريطانية وبدأ الناس يمارسون حقوقهم الديمقراطية ولكن بحذر شديد خوفاً من عودة طغيان الملك الاوحد. لم يكن (عشقي) الشاعر الوحيد الذي وقف مع النظام الدستوري و ضد أية محاولات تجعل من إيران أداة طيعة بيد مصالح الدول الأجنبية، بل كان هناك شعراء آخرون مثل آغا خان الكرماني وأديب الممالك فرهاني و محمد تقي بهار و فرخي اليزدي... وكذلك مفكرون مثل جمال الدين الأسد آبادي (الأفغاني) الذي كان له الدور الرائد في توعية الجماهير وإيقاظ مشاعرهم الوطنية ضد أطماع بريطانيا وروسيا حينذاك. ما يهمنا هنا أن نعرف شيئاً من حياة الشاعر (عشقي الكُردستاني). اسمه الكامل هو السيد محمد رضا ميرزا زاده إبن السيد أبي القاسم الكُردستاني. ولد عام ١٨٩٤ في مدينة همدان. بدأ المراحل الاولى من تعليمه في همدان و تعلم اللغتين الفارسية و الفرنسية فيها. ثم سافر إلى العاصمة طهران ليكمل تحصيله، لكنه قبل أن يكمل السابعة عشرة ترك الدراسة وأنخرط في الحياة العامة حيث عمل فترة كمترجم للغة الفرنسية وعمل في الصحافة

أيضاً وأصدر جريدة بإسم (عَشقي) في همدان. وعندما اندلعت الحرب العالمية الاولى سافر مثل كثير من أحرار إيران إلى اسطنبول و انشغلوا بالدعوة للثورة في إيران ضد الدولة القاجارية. وبعد انتهاء الحرب عاد إلى همدان في ١٩١٨ وبقي يعمل في العمل النضالي فوقف ضد اتفاقية عام ١٩١٩ التي عقدت بين انكلترا وإيران. وبقي عشقي مخلصاً في عمله ومعارضاً لكل أشكال الفساد والإفساد في البلاد. وقف ضد محاولات رضا خان قائد الجيش في زمن الشاه القاجاري ومؤسس الدولة البهلوية بعد أن أنهى حكم العائلة القاجارية. ومن أشهر ما نظمه عشقي الكُردستاني في هذه الفترة قصة شعرية بعنوان(جمهورى سوار) أي ما معناه (الراكبون موجة الجمهورية). وأحداث القصة تدور حول مراوغة أحد اللصوص الحاذقين يعيش في إحدى القرى الكُردية و يدعى "ياسي". في غياب المزارعين يدخل إلى دار أحدهم و يسرق ما يروق له، لكن المزارع توصل عن طريق تعقب أثر أقدام اللص على أن ياسي هو الذي ارتكب الجريمة. وعندما يريد اللص أن يكرر تلك الفعلة ومن دون أن ينكشف أمره. ذهب إلى دار المزارع ممتطياً حماره وسرق كل ما أراده. وعندما عاد المزارع وجد آثار أقدام الحمار خارج المنزل بينما آثار ياسي بالداخل. تحير المزارع المسكين من هذا الامر و تملكه العجب. وفي آخر القصيدة يقول الشاعر عشقي ما معناه: (إذا رغب أي إنسان ألا يقتفى أثره أحد، فليغير قدميه بحوافر حمار). أبدع عشقي في استخدام الكناية و الرمز في هذه القصة الشعرية و شبه أنصار الجمهورية بالخونة الذين تعاونوا مع لصوصٍ أي يقصد البريطانيين، مما أثار غضب رضا شاه فتآمر أعوانه عليه وأغتاله شخصان من أتباع الجمهورية عام ١٩٢٣ . وهكذا استشهد الشاعر فداء لمواقفه الوطنية و له من العمر إحدى و ثلاثون سنة فقط.

للقصة الشعرية المذكورة أعلاه أبعاد إنسانية قبل أن تكون لها أهداف وطنية، ولها جذور من التراث الكُردي قبل أن تكون لها تشبيهات واستعارات من الأدب الفارسي، مما يحتاج المتابع للأحداث السياسية في تاريخ إيران الحديث وكذلك الناقد الأدبي أيضاً إلى

دراسة القصيدة دراسة تحليلية مقارنة ليستنبط منها علاقات التأثير و التأثر بين الأدبين الكُردي و الفارسي وما لكل منهما من قابليات التداخل وخصوصيات التأصيل.

من كان عالمي التفكير و محلي العمل!؟

تمتاز نظرة الشعوب المنتمية إلى حضارات بدائية بالبساطة في العيش والسهولة في التعامل والزهد في الاقتناء واللامبالاة في العلاقات وعدم الدقة في التشخيص... وغيرها من السمات التي تجعل من الحياة أسلوبا سلساً ممتعاً و رومانسياً إلى حد ما. ومن هنا يأتي السؤال الحرج حول ماهية الحضارات البدائية وكيفية انتماء الشعوب إليها!؟

بالرغم من فاعلية القول المسلّم به بأن العالم أصبح قرية صغيرة، إلا أن هناك فروقاً كبيرة بين أفرادها و خاصة بين من يفكرون عالمياً و يعملون محلياً و بين من يتصرفون عكس ذلك. وإذا كانت البديهية التاريخية (التي تنظم تطور حياة الإنسان في كرونولوجيا متسلسلة) صحيحة، فأن اولى الحضارات البدائية هي التي تحولت من حياة الكهوف و سكنت القرية وامتهنت الزراعة. وحتى المجتمعات التي ازدهرت فيها الزراعة وتوصلت الى درجة من التحضر فإنها لا تزال تعد ضمن الحضارات البدائية لأنها لم تدخل في دهاليز عالم الصناعات المختلفة وتتشرف بالصعود على سلم الحضارات المتطورة .

في الحالة الاولى أي عند (الحضارة البدائية ـ الزراعية) يضع الإنسان البذور و الشتلات والدرنات داخل الأرض. ويرتب حساباته حسب مناخ ملائم و تضاريس مناسبة، لتنبت محاصيله وتكبر وتزيد كمياتها إضعافا. و تصبح منتجاته الزراعية و ما يلحقها من ثروة

حيوانية رأسماله الوحيد، وهكذا يبقى دوره ثانوياً ويدخل من باب الحضارة كعامل مساعد. أما المجتمعات التي تمتهن الصناعة، فإنها تأخذ المواد وتطاوعها كيفما تشاء، وتستطيع أن تدخل في تفاصيل كل شيء وتغص في حيثيات الحياة سواء أكانت صغيرة كالذرة أم كبيرة كالبحر. فكل ما موجود في الدنيا مسخر تحت أمرتها، وتحاول أن تجتاز حدود الفضاء وتدخل بصناعتها المتطورة الكواكب الأُخرى ... وشتان الجمع بين حضارة غارقة في البساطة وأخرى مبالغة في التعقيد.

التعقيد حالة متطورة للبساطة، لذا يعتبر هذا التغير معادلة صعبة، تتوازن تفاعلاتها مع درجة مهارة الإنسان في التحليل والاستنباط. وعندما يختل هذا التوازن لا تبقى للحضارة الصناعية قيمة. ويرى الإنسان نفسه مبتلى بضوضاء التقدم التكنولوجي وأتعابه الثقيلة، ويتمنى أن يعيش ولو لأيام قلائل او لحظات عابرة في أجواء الحضارة الزراعية... ألا انه يجهل بان الصناعة التي غزت الفضاء وأعماق البحار قد تدخلت في جميع مفاصل الحياة الزراعية أيضا وأصبحت عمليات الحرث والحصد أسيرة بيد غول الصناعة، وبات الفلاح المسكين عبداً مطيعاً لها.

حقاً إن موضوع صراع الحضارات ممل أكثر من اللازم، وربما مكرر في أكثر من مجال أيضا، لكنه غير مطروق في المساحة المتاحة للفكر الكُردستاني او حتى في إطاره العراقي الجديد، لذا لا ضير لو دلفنا في محطاتها الخلفية الهادئة نوعاً ما، وتعرفنا على موقعنا الحقيقي في منتدى الحضارة الإنسانية التي دخلت القرن الحادي والعشرين بكل فخر واعتزاز. ونحن أيضا مثل الآخرين دخلنا صالة الاستقبال، ولكن ما يعيق تعاملنا معهم هو إننا هجرنا الزراعة في حينه ولم نتأقلم مع الصناعة بعد. إلا أن الترحيب الذي يحظى

به المستهلكون من أمثالنا وفي هكذا تظاهرات حضارية يفوق ما يناله الفلاح الرومانسي والتكنولوجي العبقري على حد سواء. وما علينا إلا أن نحترم رأي الآخرين ونقدر اعتباراتهم الحميمة التي جعلتنا في مقدمة الحضور، وسلطت الأضواء على دورنا في فهم الصناعة بمنتجاتها والزراعة بمحاصيلها وما نبديه من استعداد في تقديم فاتورة أسعارهما على ما موجود في باطن الأرض. هل أن المستهلك أفضل من المنتج؟ إن كان كذلك، فله حق التفرج والاختيار والتسوق والتمتع..مما يصعب على المنتج الصناعي أن يحصل على مثل هذه الحقوق ويستحيل على الفلاح أيضا أن يطالب بمثل هذه الامتيازات. وفوق كل ذلك للمستهلك حق التملك والتصرف بما هو موجود في الحضارتين. ويبقى الفرق الوحيد الذي يختلف فيه المستهلك عن المنتج هو انه لا يستطيع أن يحصل على العقل الذي ينتج أفكاراً او الأفكار التي تصنع السلوك .

وأكثر الذين يدخلون منتدى الحضارة الإنسانية كمستهلكين، يميلون إلى محاكاة أفكار حضارة الزراعة وتقليد أعمال حضارة الصناعة. فيكونون حضارة ثالثة لا هي بدائية ولا متقدمة بل حضارة هجينة تستوعب كل ما أنتجه الآخرون، إلا أن الشيء الوحيد الذي ينقصها هو ليست لها قابلية التطور او تحدي الاحتكارات، بل تبقى منكبة في هامش الحضارتين. وينحصر دورها محايداً حتى إذا اصطدمت الحضارات. ولا يحق لها إن تدخل ضمن دائرة حسم النتائج، ذلك الحسم الذي ليس فيه انتصار او اندحار، بل: هناك من يصعدون إلى العلا وآخرون ينزلون إلى المهالك، هناك من ينظمون الحياة من جديد ومن يعبثون في مصير الإنسانية، هناك من هم قساة لا يرحمون ومن هم خائفون من هول التحولات .

وما على الذين هم تحت خط التهميش إلا أن يختاروا أحد الموقعين: إما تهميش في ظل هيمنة القساة، او هامش مركب يلهث وراء المهزومين. والمتابع الذكي وحده يعرف عدد ضحايا من اختاروا المربع الخطأ، فوقعوا في هامش تهميش الحياة المعاصرة. ويزيد المتابع ذكاءً عندما يقيس مدى تفوق من كانت مساحة تفكيره تطغى على العالم وعمله المثابر يتجذر في العمق المحلي.

التأريخ وأرثه المل بأثقاله

لا أدري ان كان الفيلسوف الألماني نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠) مجنوناً في شطحاته أم عبقرياً في إبداعاته، فالأمر سيان في الحالتين، لان ما يهم في حسم هذه المسألة هو مدى تأثير أفكاره في الترابط المضطرب بين القرنين التاسع عشر والعشرين، حيث كانت افكاره بمثابة المنعطف الذي تغير معه اشياء كثيرة، وخاصة ما يتعلق بالهيمنة الاوروبية ونظرتهم الآزونية الضيقة الى العالم. أذهل الاوروبيون العالم ـ في حينه- بثورتهم الصناعية وما توسع في مديات هذه الثورة من ابداع مدهش وابتكار يطور ما هو في حاجة اليه، الا ان هذه المديات كانت تضيق في الفكر ما يجعل من العالم وطناً كبيراً للجميع، وكذلك ما كان يطرح من مشاريع للمساواة بين البشر. توسعت نظرتهم الى المادة وبدأت الابتكارات وكأنها عملية تطورية مستمرة بدأت في خطها البياني المتصاعد وبسرعة مذهلة أما نظرتهم الى الإنسان فتمخضت بالمراوغة والالتفاف والتركيز على مركزيتهم التي تنص على انهم الشمس الثابتة في الأعالي وباقي الامم والشعوب كواكب ونجوم صغيرة تدور حول فلكهم بكل تواضع وخشوع وانتظام، ومن هنا بدأت الصراعات التي لم تتوازن فيها معادلات المادة والجوهر بشكل يضمن مستقبل التجربة الإنسانية عندما دخل بوابة القرن

العشرين...وكلنا نعرف النتيجة الاليمة التي تمخضت باندلاع حربين عالميتين ظالمتين وبشعتين الى حد النجاسة. في السابق كانت النظرة المتعالية للديانات تطغى على الافكار التي تلتقي بين القارات بين من هم شعب الله المختار ومن يتباهون بأنهم ملح الارض ومن يصر على أنهم خير أمة اخرجت للناس. وهكذا تغير الصراع الروحي الجوهري الى الصراع المادي السطحي الذي لايرحم، كان الصراع الاول أقل دموية واكثر تواضعاً وأجل شأناً، الا انه انهار أمام قوة ترى في نفسها الجبروت بكل عنجهيتها، احتلت البلاد وأذلت الشعوب واغتصبت الحقوق وقسمت الاوطان على هواها وما ينسجم مع مستقبلها وكأن الآخرين لا مستقبل لهم ثم قدمت النصائح والارشادات ونظمت الشعوب في سلم غريب بين مطيع عاقل متحضر وبين متمرد وضيع حاقد وجعلت من الثواب والعقاب الفيصل الحاسم في كل النزاعات الذي يتضمن الحصار الاقتصادي والغزو العسكري والابتزاز المالي والعزل الإجباري و... وكلها بأسم الحضارة والعقلانية والتطور والاتاكيتات الأنيقة. لنترك ما كان يتنبأ به الفيلسوف الألماني نيتشه، ونعود الى بيت القصيد في طرحه الذي يعتبر نموذجاً بارعاً في شطحاته والذي تنبأ فيه الى أكثر الأمور التي حدثت بعد وفاته في (١٩٠٠) وخارج تنبؤاته كان التأريخ في هذه السنة نقطة التحول بين أشد القرنين هيجاناً في الحروب وعنفواناً في التقدم الحضاري المذهل. ومن ضمن ما قاله نيتشه في حينه هو (ان ما لا تأريخ له هو الذي يمكن تعريفه، اما ما يملك تأريخاً طويلاً فأن تعريفه يصبح مسألة صعبة جداً). يا ترى هل ان التأريخ إرث ثقيل يعيق عمل الإنسان في التحرك ويقيد حريته في الإبداع... لو كان هذا الرأي صحيحاً ـ الان ـ وبعد ان اثبتت التجارب صوابه وفي اكثر من مجال وعلى المستويين الرسمي والشعبى ايضاً، وخير النماذج ما حصل في الولايات المتحدة الأمريكية من تطور مذهل فاق ما هو موجود حتى في البلاد المصدرة للخبرة والإبداع اوروبا المدللة، او ما يحصل في دول فتية من تقدم ملحوظ خلال أعوام قلائل. ولكن هناك ما يناقض هذا الرأي حيث دول مثل اليابان او الصين

صاحبات التأريخ الموغل في الزمن السحيق وفي الوقت نفسه خطتا خطوات كبيرة في مضمار التقدم. وان كان رأي نيتشه في زمانه ثورة فكرية غيرت كثيراً من المفاهيم، الا انه يمكن ان يضيف اليه الان ما يكمل مسيرة تلك الخطوات التي أتت من حضارات اليونان وفارس واودية النيل والرافدين والسند و... غيرها وتتجه صوب آفاق رحبة للحضارة الإنسانية. ومن هنا يتبين انه كلما كان الإرث التأريخي ثقيلاً كانت خطوات المسافر بطيئة أكثر وتؤثر سلباً على مسيرته التي يرى الإنسان فيها خلوده، وهنا يكمن سر من ينجح في التعامل مع التأريخ كي يحتفظ به ولم يتخل عن ركب الآخرين... ومفتاح السر ذلك هو ان لا يختم تأريخه بالشمع الأحمر كي لا يمس ولا يعمل به، ولا يجعله حملاً يئن من تحت ثقله المرهق، بل عليه ان يسلم تأريخه بكل مفرداته الايجابية والسلبية الى قطار الحضارة الإنسانية ويحجز له مكاناً يليق به لكي يصبح جزءاً من تلك الحضارة باسمه ويخصص لنفسه مقعداً مريحاً ويعيش أحلى أيامه في العمل وجني ثماره وهو مسافر من التأريخ المفعم بالتراث الى السعادة التي لا تأريخ لها.

الزوايا الحرجة في تأريخ الكُرد

ليست هناك جريمة أكبر من الحرب، ولما كانت كُردستان عبر تاريخها القديم والوسيط والحديث مسرحاً للحروب والمطاحنات الدولية، فقد ارتكبت جرائم كثيرة ازاء سكانها سواء أكانوا مسالمين في بعض ما وقع، ام كانوا جزءاً من الحرب في مرات اخرى.. وفي الحالتين يكون الامر سيان، لان الحرب لا تعرف الا القوي والقوي يستمد قوته ـ دوماً- من ضعف الآخرين، وما يؤخذ من طاقاتهم وامكاناتهم يكون الضعف المادي او البؤس

المعنوي او لقمة العيش او حتى فلذات أكبادهم كما هو مبدأ أساس متبع في فن إدارة الحروب.. وبالرغم من تلك المبادىء الأساسية فأن ما تعرض له الكُرد يعتبر مفقودات سلبت منهم بكل ما في العنف من قسوة.. وفي هذه الحالة لا يمكن ان تؤخذ الأمور من طرف واحد، والمنصف في التقدير النهائي يعرف جلياً ان للكُرد أيضاً حصته في ارتكاب بعض السلبيات التي حلت بالحالة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، وكلها مجتمعة لا تليق بأي شعب يحافظ على صون قراراته المصيرية. ولكي نعود إلى الافتراض الذي بدأنا به الموضوع، أي عندما كان الكُردي مسالماً وابتلى بالحرب كرهاً وساقوه اليها عنوة، خرج منها خائباً ضعيفاً، وعاملوه كالأسير الذي لا حقوق له الا من خلال خدماته التي تكافأ حسب حجمها وكرامة المقابل مشكورة، ويبقى مستقبل هذا المسكين كورقة رابحة بيد المنتصر يستخدمها لصالحه في تصفيات نتائج الحرب... وضمن هذا الموقع الذي لا يصلح الا للعمالقة، كان الكُرد يستفاد منهم ـ أحياناً ـ وربما يتكرر الربح وتعاد المنح مرات عدة ويتنفس الصعداء ويدير بعض ما يهم حياتهم من صميم العمل اليومي... الا ان مثل هذه الحالات أيضاً كانت مؤقتة وسرعان ما تكون نتيجتها لطمة تأديبية يوجهها المنتصر الأكبر لكي يدير بها أحد فنون الحرب من الداخل ويجعل من الكُرد إنساناً ذليلاً مطيعاً ينصاع إلى الاوامر بكل أدب واحترام.. وتستمر الحالة إلى بداية القرن العشرين.

اما في الحالة الثانية، أي عندما كان الكُردي جزءاً من الحرب، فأن النتيجة شبه الحتمية كانت ـ دوماً- لصالح من يؤيده الكُرد، لان مقومات نجاح ذلك الغريم الذي أحبه الكُرد كانت متوفرة وصارمة، بل في حالات كثيرة حاسمة إلى حد بعيد من ساحة تدار

عليها الوغى وخبرة التمويه وأنواع التموين وبسالة المقاتلين.... وهكذا كانت هذه المقومات كافية لكي يضمن انتصاره الأكيد، وما يؤكد ذلك انتصار العباسيين على الامويين والفرق التي تسعى لتسلّم الحكم، وكذلك انتصار العثمانيين على الصفويين في معركة جالديران.. وشواهد اخرى كثيرة.

خلال مجريات التأريخ، انحصر دور الكُرد في زواية حرجة، كونهم ورقة رابحة ليست الا، وربما تفيد المنتصرين في المستقبل أيضاً، وهكذا بقيت حقوق الكُرد مرهونة بتلك الفرضيات والاحتمالات التي تنشط الجانب النظري في تقييم تأريخه الموغل في القدم، وقلما تدخل تلك الفرضيات حيز التنفيذ العملي، وان وقع شيء من ذلك القبيل، فيبقى في إطار محدود غير مرتبط بأية إمكانيات فيها ديمومة الحياة وحركة التطور.

كان الوضع الكُردي العام، يتراكم في محطاته التأريخية الكثيرة التي تبدأ مع هجرة الشعوب واستقرارها في المنطقة قبل الميلاد ولحين نهاية الحرب العالمية الاولى.. ويزداد سوءاً بين خشوع المنكوبين الذين لا حول لهم ولا قوة، وبين عنجهية الموالين للجهات المنتصرة، وباتحاد الحالتين ودمجهما في بوتقة تطور الأجيال المتلاحقة تكون صنف ثالث له مميزاته الخاصة التي تكمن بين التواضع المفرط وهيجان ردود الأفعال السريعة.

وهكذا تسير الحياة على حافات المخاطر ومهددة دوماً بالانزلاق نحو المهاوي المليئة بالجرائم البشعة والتجاوزات الأليمة والتي كثيراً ما تصبح ضمن العرف السائد في المجتمع، فلا يستطيع احد مقاومته لان العرف هو أكبر قوة في العالم لا يمكن ازاحته بسهولة، بل تتمخض عنه متاعب لا يحمد على نتائجها احد.

من يبحث عن معالجة هذا الوضع المزري والمعقد إلى حد ما، يحتاج إلى دراسات مستفيضة والوقوف عنده بكل جد، والتمعن في تفاصيله بمنتهى الدقة. وهنا يتكهن أي

متابع منصف لهذه الأحداث التأريخية ـ الاجتماعية، بأن هناك خللاً في العقل قبل ان تكون هناك نواقص في التفكير، لذا يجب ان يتوازن او يتقارب عدد المصحات العقلية مع الدراسات الممكن إجراؤها في الفكر الكُردي المعاصر.. وكلما ازداد عدد نزلاء المصحات العقلية تلك يرتفع الخط البياني الذي يؤشر إلى الحاجة لدراسات جدية أكثر.

في وعي التواضع

شخصية أكرم قرداغي نموذجاً

كان الاختلاف بين الثقافة الأدبية والثقافة العلمية يشغل حيزاً كبيراً من المناقشات الهادئة بين أنصار الطرفين لا لكونهما قطبين متضادين او فيهما ذلك التناقض الذي يحاول فيه كل طرف أن يلغي الآخر، بل كان الصراع يتركز على المحاولات الجدية لكل منهما في اكتشاف الحقيقة، أي تلك الحقيقة التي تثبت في المختبرات او التي يستنبطها العقل ويرتاح لها الحس البشري او ما يتفق مع عواطفه الجياشة مرونة واتساقا.

سبق أن طرقت هذا الباب مراراً وما زلت أفكر في ثنايا مفردات هذه المعادلة الصعبة نوعاً ما، ويذهب بي الفكر أبعد من ذلك عندما أقف عند النقطة الساخنة التي تمثل مخاض "المعرفة الإنسانية"، ويلتقي بهيجانه محورا الثقافتين الأدبية والعلمية و توابعهما الكثيرة التي تتشابك مجتمعة في كم هائل من العلوم البحتة والإنسانية وأطياف أخرى لا تدخل ضمن أي تنسيق علمي يسخره المرء في مصلحته. والمعرفة الإنسانية ـ هنا ـ مفهوم شامل لعالم واسع لا تكتمل مقومات نموه إلا في طقس اقتصاد ملائم ومفعم بالتطور سواء على المستوى التنظيري المتكامل، أم التطبيقي المقبول في التوزيع والمتكافئ في الإنتاج. ظهرت بوادر نمو مثل هذه الحالات في الثقافة الكُردية، منذ العقد

الثاني من القرن الماضي، أي كانت نتائج حتمية لإفرازات الحرب العالمية الاولى التي غيرت الخارطة الجغرافية في الشرق والخارطة الفكرية في الغرب، وبتداخلهما طولاً وعرضاً تشرب الشرق بما لم يكن له مستساغاً في السابق، وتذوقت الذاكرة الكُردية نكهة الحرية من بعيد، وتعرفت على بعض أسرار الحياة خلسة، واشتاقت إلى كشف ألغازها لكنها لم تفعل، خشية أن يغضب الأخوان الكبار او من هم في مرتبة اولي الأمر. لم تقتصر هذه الظاهرة في الثقافة الكُردية فقط، بل كانت هناك نماذج بارزة في الثقافة العربية أيضاً، مما يدل على الطبيعة الصحية لمثل هذا التوليد المنبسط في قوته والمنفتح في ارتباطاته لتكون العملية بؤرة ذات مخرجين أحدهما يهتم بالتواصل الروحي مع التراث الثر للأمة، والثاني يتفاعل مادياً مع مستجدات العصر، وعندما تتزاوج إفرازاتهما في مرحلة البلوغ المعرفي، تسمو في كنفيهما القيم النبيلة، الجديدة من حيث ارتداء ثوب الأيام، والأصيلة من حيث التأثير والتأثر، لتكون السمة المميزة للنخبة التي تقود الثقافة الكُردية في المنعطفات الخطيرة الحبلى بالتحديات والمحاصرة بالتهديد والوعيد من قبل الأخوة في الإيمان و الأصدقاء في المصالح على حد سواء.

عند ضفاف هذا الصراع غير المتكافئ، دار حديث طويل بيني و بين صديق كنت أعتز به كثيراً وأرى في شخصه المتواضع النموذج الحقيقي للانتليجنسيا الكُردية بكل معانيها القومية الخالصة وأبعادها الإنسانية الواسعة. عندما يملك الإنسان روحاً مرحة تزداد منزلته شوقاً واحتراما وهذا ما كان يمتاز به صديقي النبيل فكان رجل علم و طالب حق ومبدع أدب وله في الحالات الثلاث شواهد تذكر بالبنان وبصمات لا تمحى أبداً، بل تبقى عزيزة على أهل مدينة السليمانية الجميلة قبل غيرها من المدن الكُردستانية. كان الحديث معه شيقاً للغاية لا لكوني أمزج الجد بالنكات الهادفة دوماً... بل لأنه كان يستوعبها قبل أن تكتمل ويعلق عليها بشيء من الفكاهة التي كثيراً ما توضع النقاط على الحروف أي يؤشر على معانيها المترادفة ويجمع بين متضاداتها بدهاء وخبرة عليم بخفايا

اللغة الكُردية بأفضل ما يتوقعه الهاجس الحساس، وفوق ذلك كنا نود أن تسرح الحقيقة في فضاء المعرفة ومن دون تحفظات جانبية. وهنا كانت آراؤنا تلتقي في نقاط عدة ونتفاهم في أكثر من محطة فكرية. وهكذا كان الحديث مفيداً، يجري من دون جهد او تعثر ومن الواجب أن يقدم الإنسان في مثل هذه المناسبات مداعبات مفعمة بالحب ويكن لمثل هؤلاء الرجال كل التقدير والاحترام، لا لكونهم يتقربون من حدود التواضع الواعي فقط، بل لأن همساتهم العاطفية مشحونة بجماليات الخيال الخلاق ولها القدرة بأن تتجاوز حدود الممكن وتسخر من القشور. وهكذا كان صاحبى يتكئ على لب القصيد ويتحاور بما هو جوهري و يغربل نقاوته بدقة، ويطرق باب الجرأة بكل لطف. حقاً كانت كلمات هذا الإنسان المتواضع مفيدة لأنها تنبع من فكر يقطر كرماً في حدود العلم، ويتعاظم إبداعاً في ثنايا الحلم، ويتنور بهجة في رفعة الأخلاق.

لماذا يعشق الكُرد الجبل وليس النهر؟

الكُرد شعب أحب الجبل وسماه موطن العشق، بدأ حياته بهذا الحب ومايزال يعطي كل ما يملك من أجل أن يزهو هذا العشق ويصبح رمزاً لاندماج الإنسان مع الطبيعة... ويود الكُردي دوماً أن يعلن ويثبت أن اندماجه هذا لا يعني بأي شكل من الاشكال أنه يرضخ تحت رحمة الطبيعة الجبارة او يخشى من مفاجآتها المدمرة، فهو الذي اكتشف الزراعة منذ خمسة آلاف سنة واتخذ منها وسيلة لإطعام نفسه، وبذلك خرج من حياة الكهف وترك حظيرة الافتراس ليبحث عن حياة يسودها السلام وشيء من الراحة، ويشهد

على ذلك ما تبقى من آثاره في قرية جرمو (محافظة السليمانية). قد تكون هذه المحطة الاولى التي تعارف فيها الكُرد مع الجبل ككيان مستقل وهما يتمتمان كلمات كانت تعني في أكثر الاحتمالات ((ماذا سيعملان في الغد)).

يتكهن أحد القرويين الكُرد حول تأريخ حب شعبه للجبل ويرجعه إلى يوم الخليقة ويذكرنا بالحكاية الشعبية التي تقول: أن في ذلك اليوم اشتكى الجبل الى الخالق عز وجل راجياً بأنه سيبقى وحيداً موحشاً ومن دون صديق او قريب... تسلم الجواب مطمئناً بأنه سيكون هناك اناس لا يرافقونه فقط بل سيضحون بأرواحهم من أجله... وهذا ما فعله الكُرد بعينه!؟

ولنا أن نسأل وربما بهذا التساؤل نصحح ما أخطأه بعض من زاروا كُردستان والمستشرقون أيضاً عندما قاموا بتحليل غير دقيق لتأريخ الكُرد ووصفوهم بأيتام الكون ولا صديق لهم سوى الجبل.

لو كان الجبل الصديق الوحيد للكُرد لتركه في فترة ما، وتعارف مع آخر، لانه من غير الممكن أن يعيش الإنسان مع صديق واحد أبد الدهر. ومن سمة الصداقة أنها تجمع أناساً كثيرين على طاولة واحدة، بعكس مايفعله العشق الذي لا يقبل القسمة او التقاسم ولا يجمع إلا اثنين فقط وهذا ما أصيب به الكُرد حتى النخاع.

لو ترك الكُرد عشق الجبل ونزل الى السهل لتعارف مع النهر، ولبدا أكثر تحضراً وأجلّ شأناً بين جيرانه، لكنه لم يعرف بأن النهر نفسه ما هو إلا عصارة عشق الجبل يقدمها لمن يريد أن يجعل الحياة أجمل والطبيعة أبهى.

اكتشف معظم الشعوب هذا السر المطلسم، ولو بفترات متفاوتة، او حسب ما تحكم في مصائرهم الظروف الاقتصادية او الاجتماعية او السياسية. ومايهمنا في هذه العجالة، هو أن الكُرد مازالوا على عشقهم القديم باقين. متشبثين بذاكرة ما قبل التأريخ ولم يلتفتوا لحد الآن الى ذلك السر الدفين في أعماق الطبيعة ولم يحاولوا فك ألغازه اللعينة.

من حالفه الحظ وكشف اللغز واجتاز بوابة الاساطير، دخل الحياة من اوسع أبوابها، ومهد له الطريق نحو الآفاق البعيدة التي تمر من فوق النهر، فالنهر وحده هو شريان الحياة ومنهل سعادة الإنسان.

اكثر الحضارات المشهورة في العالم بنيت وتطورت على ضفاف الأنهر، او قريبة من سواحل البحار، والأمثلة على ذلك كثيرة مثل حضارات وادي الرافدين ووادي النيل ووادي السند وكذلك على ضفاف الفولكا والدانوب الازرق والسين والراين والتايمز وسيفون وحتى المسيسيبى والأمازون...

ومن غرائب الأمور، أن مراكز المحافظات العراقية تقع كلها على ضفاف الأنهر او قريبة منها ما عدا مراكز محافظات أقليم كُردستان الثلاث فأنها بعيدة عنها... وفي الاونة الأخيرة بدأت الجهات الرسمية تشعر بهذا الفراغ الحضاري، بل وهناك آراء إدارية تصرح بين حين وآخر بأنها قدمت اقتراحات بأن تشق قنوات مائية شبيهة بالأنهر وتوصل نهر خابور بمركز محافظة دهوك وقناة نهرية آخرى توصل نهر الزاب الأعلى بمركز محافظة أربيل والتي هي الآن عاصمة الأقليم وشهدت في الاونة الأخيرة تطوراً كبيراً على جميع المستويات إلا أنها تفتقر الى معالم حضارية مثل السكة الحديد والنهر بكورنيشاته الخلابة.

(وهناك نكتة هادفة تمزج فيها الفكاهة بالجد وتقول: ان مركز محافظة كركوك والذي هو الآن ضمن المناطق المتنازع عليها بين الحكومة الفيدرالية وحكومة الأقليم.. وتعتبر هذه المسألة مشكلة المشكلات بينهما، إلا أن الأمر بسيط جداً وهو مادام مركز المحافظة لا يقع على ضفاف أي نهر دائم الجريان لذا فالمدينة كُردستانية ويجب أن تضم الى داخل الحدود الادارية لحكومة الأقليم).

الدوائر الخاملة في العقل الكُردي

إذا كان كل جانب من الحياة عبارة عن دائرة تتحرك فيها إحداثيات ومكونات حسب ما يملي عليها الإنسان من أهداف وتوجيهات، وتؤدي هذه الدائرة دوراً أساسياً او ثانوياً في المجال المنوط بها. فهذا يعني أن الحياة ما هي إلا مجموعة كبيرة من دوائر متداخلة تعمل كل منها حسب نظام معين وفي الوقت نفسه تشترك مع باقي الدوائر الأُخرى في منظومة متناسقة كبيرة تعبر عن العقل الجمعي لشعب من الشعوب. ومن هذا المنطلق يتطلب منا الواجب الإنساني والوطني أن نبحث عن الدوائر التي يتكون منها العقل الكُردي.

من خلال هذا العرض المبسط نستطيع أن نشخّص المسيرة الحضارية لأي شعب سواء أكان منسياً مثل الكُرد، أم مشهوراً بتطوره التكنولوجي مثل اليابان. وفي كلتا الحالتين لابد من الوقوف عند الكم الهائل من الدوائر التي يتكون منها عقل أي شعب من الشعوب التي يود أصحاب القرار فيه البت بدراستها وتقييمها وتقويم ما يتطلب

إصلاحه. وكل ذلك من أجل معرفة نوع التشكيلة التي يتكون منها كل دائرة والتمعن في مكوناتها الفاعلة والحاملة وأدوارهما في تسيير وتحريك العمل الذي يعطي الطابع المتنامي داخلياً و المتجاذب خارجياً للدائرة المراد إجراء البحث فيها، وهنا يأتي السؤال الملح:

ـ ما هي السبل الواردة في معرفة المكونات الفاعلة لكل دائرة واختلافها مع المكونات الحاملة ومهمات كلا النوعين في تفعيل ماهية تلك الدائرة ؟

كانت ماهية الأشياء هي الهدف الأساس في الدراسات التي كان الإنسان يبحث فيها عن الحقيقة سابقاً. وقد تحقق له في هذا المجال الشيء الكثير، إلا إن انحصار الإنسان ضمن دائرة واحدة أبعده عن الطبيعة الشاملة التي يرى في كليتها انتماءه للكون العظيم، للحياة الجميلة، للوطن الحر، للعائلة السعيدة...وهنا بدأ الإنسان يهتم بالعلاقات التي تربط بين تلك الدوائر المختلفة والكثيرة، أكثر مما يركز على محتويات الدائرة الواحدة التي ينتمي إليها مهنياً، وهو ما كان يفعله الإنسان منذ ظهور الثورة الصناعية في اوروبا ولحين غربلة المحاولات النشطة لاكتشاف الذرة وتأثيراتها المباشرة على الحياة العلمية والعلاقات الدولية في بداية القرن العشرين ولحد الآن. ومن خلال هذا الجواب البسيط والكافي نوعاً ما، يأتي السؤال الثاني الذي يرتبط مباشرة مع الدوائر المتشعبة التي ينتمي اليها الإنسان روحياً:

ـ ما هي أنواع وأعداد الدوائر التي يتكون منها العقل الكُردي؟

يؤسفني أن اذكر حقيقة مستنبطة من تحليل مكونات الدوائر التي تتأطر ضمن مديات العقل الكُردي المتشابك في تكوينه الاجتماعي والسياسي والثقافي، وهي إن أكثر

تلك الدوائر من النوع الخامل والمكونات الفاعلة فيها قليلة وبالكاد تستطيع أن تحرك أحجامها شبه الجامدة، وتعجز نهائياً عن أن تؤثر على الكتل الثقيلة لجاراتها الغارقة في سباتها العميق. ومن المعلوم أنه كلما كان الحجم ثابتاً في مكانه زاد وزنه وبات تحريكه صعباً وهكذا كلما كانت الأحجام متحركة خفت اوزانها وازدادت سرعتها. إذاً فالحركة هي الحياة وكل ما في الحياة متحرك. ولا يخطأ من يعتقد أن الحركة والحياة وجهان لحالة واحدة تسمى في الميثولوجيا بالخلود ونسميها نحن الآن (الديمومة). وهذا هو السبب الذي يحمل مصداقية عالية يمكن الاعتماد عليها في تشخيص المستوى الحضاري للكُرد سواء في المدن الكبيرة أم القصبات الصغيرة أم حتى في القرى والأرياف المتباعدة عن بعضها. و في هذا الخمول المسيطر على دوائر العقل الكُردي يكمن السر القاتل الذي يمنعه من النهوض، ويسد أمامه أبواب التطور، بل ويطحن في مرات كثيرة تحت عجلات المسيرة الهائلة التي تسوقها الدوائر الفاعلة في عقول الشعوب الأُخرى. وهنا يأتي السؤال الثالث، الذي نبحث في ثناياه عن الأسلوب الذي يمكن أن نفعّل به المكونات الخاملة في الدوائر الكثيرة التي يتكون منها العقل الكُردي، لكي تنشط حركتها وتزداد سرعتها وتبدأ في كل منها الحياة بشكلها الصحيح و المؤثر:

ـ هل لنا أن نعرف عدد الدوائر التي يتكون منها العقل الكُردي؟

إنه سؤال سيحيّر الكثيرين، ولا نريد أن ندخل في سجال اختباري حول عملية تضارب الأعداد، وكل ما يهمنا في هذه العجالة أن نتعرف على الدائرة الاولى في العقل الكُردي.

الدائرة الاولى التي تبدأ فيها الحياة وتعتبر اللبنة الأساس في عقل أي شعب، هي الدائرة الفكرية. والفكر الكُردي بمجمله يحتاج الى إعادة ترتيب، وسبق أن تطرقنا الى

سبب ذلك في حلقة سابقة وهو: " أن جميع الشعوب تفكر ثم تعمل إلا الكُرد فإنهم يعملون ثم يفكرون ". وإن كان هذا الرأي صحيحاً فهل لنا أن نشخص ـ هنا ـ المكونات الفاعلة والمكونات الخاملة في الفكر الكُردي ونحدد أنواعها وأنماط عملها. إنها أسئلة منطقية جديرة بالاهتمام، وإذا تمكنّا أن نجيب بقدر عال من الصواب وكان معدل الحقيقة فيه حالة مقبولة من حيث درجتها العلمية وشموليتها المعرفية، فإننا سنكون قد تجاوزنا الخطوة الاولى وبدأنا المسيرة على خير ما يرام. وكلما تمكّنا أن نحافظ على نقاوة البيئة وسلامة الفكر فعندها تبدأ الخطوة الاولى في دائرة ثانية ..وللحديث صلة.

البيشمركة: الوطني الذي لا يقهر

سعدالله آفدل نموذجاً

كانت الحياة العملية للبيشمركة اثناء الثورات المتتالية في كُردستان كتلة منسجمة من القيم وتحفة رائعة من الفضائل، بحيث يسهل على المتتبع الملم في توثيق يومياتهم ان يجد كل ما يخطر على باله في ثنايا حركاتهم البطولية ونشاطاتهم الثقافية وخدماتهم الإجتماعية ودقتهم في إدارة الأعمال... الا أنه من الصعب ان يعثر أحد ـ حسب المقومات الموجودة حالياً ـ على الخيوط الحقيقية للفكر الذي يربط بين حياة حرب الأنصار وحياة ما بعد النصر.

أراد كثيرون أن يكونوا جزءاً من صفوف البيشمركة لكنهم عجزوا عن تسجيل اسمائهم في ضمير الأمة، وهو امر في غاية الأهمية لأن التحلي بالقيم العليا والفضائل المثلى ليس بمقدور أي انسان، ولا يتحقق ذلك بالأماني فقط.

من اولى الفضائل التي تحلى بها البيشمركة، واصبحت قيمة عليا في سلوكه، هي ارتباطه بالأرض، ويزداد تعلقه بها كلما ركز على الأنساب المتتالية والأجيال المتلاحقة لبني جلدته الذين عاشوا في هذه المساحة الجبلية ويكبر عشقه مع جمالها المتكامل ضمن حدود يعرفها المؤرخ ويفسرها السائح كشاهد عيان، ويثق بها رجل العلم كمنصف يغربل شذرات المعرفة. وهكذا ظهر من هنا وهناك فتى كُردي كعاشق جبلي او فتاة كُردية كجبلية عاشقة واعطيا لحياتهما عنفواناً وإباء في خضم أصوات يعرفها التأريخ القديم والوسيط والحديث، ويمكن سردها في كرونولوجيا مترابطة من حيث التأثير والتأثر في حضارات المنطقة... وحبذا لو وضعت هذه المسألة قيد الدراسة والبحث. ولكن لم يدخل هذا العشق الجبلي ضمن المسميات العاطفية او المغامرات الأستكشافية لحد الان ولم تظهر بوادره إلا عند ضفاف جمهورية كُردستان التي ولدت من رحم الحرية بداية عام (١٩٤٦)، ووئدت حية في حفرة الغدر في نهاية العام نفسه. وتيمناً لبطولات من مهد الطريق لقيام هذه الجمهورية ودافع عنها ببسالة، كانت لهم نصب من المجد في قلوب الكُرد وسموه (البيشمركة) اي العاشق الذي يسبق الموت. ويقول أحد الشعراء الكُرد على لسان هذا الجبلي المقدام وهو واقف أمام حبل المشنقة مخاطباً الموت (سأنال منك ولن تفلت من يدي).

ومن ضمن العشاق الجبليين الذين تشرفت بمعرفتهم عن قرب، البيشمركة سعد الله آفدل (١٩٥٤- ١٩٨٩) فكان نموذجاً معبراً عن حياة الآلاف ممن باتوا في عداد البيشمركة المجهولين ولم يعرفهم تأريخ العشق الجبلي، واقتصر سرد اسمائهم ضمن قاموس (ولدوا وناضلوا واستشهدوا)، الا أن الشهيد سعد الله كان محظوظاً في ذلك حيث توثقت حياته بكل دقائقها بفضل محبيه والقريبين منه الذين لم يبخلوا جهداً في تسجيله.

ولد سعد الله في كنف عائلة وطنية عام (١٩٥٤) في قرية غلبيش التابعة لناحية بامرني، انخرط والده في صفوف ثورة ايلول (١٩٦١- ١٩٧٥). اعتقل شقيقه الأكبر (طيب) واستشهد تحت التعذيب دون ان يعترف على رفاقه في النضال. نفيت عائلته الى جنوب العراق وبقيت تحت الأقامة الجبرية. بعد عودتها الى دهوك ينخرط في التنظيمات السرية للثورة وهو طالب في المرحلة الأعدادية، طالب متفوق في الدراسة ويقرض الشعر ويشترك في مهرجانات عديدة، وينشر اولى قصائده في الجرائد التي كانت تصدر آنذاك في بغداد. نتيجة ملاحقات أزلام النظام وكشف تنظيماتهم يلتجئ الى الجبل وينخرط في صفوف البيشمركة ويدخل إحدى دورات اعداد الكوادر للحزب الديمقراطي الكُردستاني. كان ملتزماً في واجباته ونشيطاً في علاقاته الأجتماعية.

لم يترك ارض الوطن حتى بعد حرقها وتشريد اهلها بالكامل عام (١٩٨٨)، وبقي ضمن المفارز الصغيرة للبيشمركة يقارع الظلم وكله أمل بان يرى نور الحرية في يوم ما، الى أن استشهد في ربيع (١٩٨٩).

كان الشاعر الشهيد متعلقاً بالأرض الى حد الذوبان فيها، وجل اهتماماته وآماله وافكاره موجودة في ثنايا الصور الشعرية التي زينت مجموعتين شعريتين طبعتا تباعاً:

الاولى اشرف الشاعر نفسه على طبعها وهي (الدم والحرية، مطبعة خبات ١٩٨٦) والثانية (سمفونية الحلم والخيال، مطبعة خبات ١٩٩١) والتي أشرف على طبعها شقيقه الأصغر بهجت آفدل. ثم أعيد طبعهما ومع مواضيع أخرى متعلقة بحياة الشاعر ونتاجاته في كتاب واحد بعنوان (سعد الله آفدل- الشاعر، البيشمركة، الشهيد) عام (٢٠٠٢) والذي كان من اعداد الأستاذ اسماعيل بادي وضمن اصدارات مؤسسة سبيريز للطباعة والنشر في دهوك.

يقول الشاعر الشهيد عن نذالة الذين اغتصبوا ارض كُردستان في احدى قصائده: (جبان من ينام في فراش امراة لا تحبه). ويكتب في رسالة حب الى والدته: (أماه، كم كنت شجاعة عندما استقبلت جنازة ابنك البكر الذي استشهد تحت التعذيب وهو مُقطع الاوصال، وأريدك ان تكوني فخورة بأبنك الثاني البعيد عنك الذي يناضل في صفوف البيشمركة...).

التربية في المجتمعات غير المستقرة

عندما يأتي الكلام على المجتمعات غير المستقرة، نتذكر العراق كنموذج حي لدولة لم تعرف الإستقرار منذ إستقلالها سنة (١٩٣٢) ولحد الآن. لم يقتصر الاستقرار على جانب محدد بل شمل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية وحتى القانونية، فكيف يستقر الوضع التربوي الذي هو أكثر تذبذباً من باقي الجوانب الحياتية الأُخرى،

لكونه المحصل النهائي لتقاطع جميع خيوط النسيج الوطني المتكامل في تخطيطه النظري و أدائه التنفيذي و تقويمه المتوالي الشامل.

وبادىء ذي بدء، يتوجب أن نبدأ من مفهوم الإستقرار، فيما إذا إتفق الرأي على أنه: التنظيم المدروس المعتمد على تخطيط ذي أبعاد متكاملة ولكل بُعد خريطة طريق تفتح له آفاقاً للتطور المستمر.

ومن باب الاستقرار ندخل في المحطة الاولى لتأريخ العراق الحديث، ونتعرف على خفاياه المنزوية ونكشف الغطاء عن سره الدفين المغمور في رحم الزمن، ونقرأ سطره الاول على أنه: بلد التقلبات والأحداث المفاجئة. ومن هذه العبارة نستدل على النتيجة المنطقية التي يمكن أن نتوصل بها الى الحقيقة الدامغة التي تقول: من المستحيل أن نضع اللبنة الصحيحة على الطريق الصواب لأي نمط إجتماعي او معرفي في العراق من دون أن تهب عليه رياح التغيير المفاجيء وتقلعه من الجذور. وهذا ما يحدث في القطاع التربوي الذي هو الرابط الأساس بين فلسفة المجتمع وباقي القطاعات العملية التي تدار بها حياة المواطنين من عتبة باب البيت وإلى موضع العمل المناط بهم، سواء من كان طفلاً في سن الدراسة أم بالغاً في عنفوان عطائه الانتاجي، أم حتى إن كان كهلاً في أحد مراكز الرعاية الاجتماعية. إذاً فالتربية والتعليم في العراق، بما فيه أقليم كُردستان بحاجة مستمرة الى التغيير. وهنا لا يحتاج المرء أن يفكر بأي نوع من التغيير، لأنه لا يرتبط أصلاً بالتطور التدريجي للمجتمع، بل خاضع لما يجول في فكر الجهة التي تدير دفة الحكم في البلاد، سواء جاءت عن طريق القوة، أم عن طريق صناديق الاقتراع، والتي قلما تحدث. وإن حدثت فإن هناك عيوناً كثيرة تتربص لتنال منها في الوقت المناسب، لتعيد الكرة من

جديد وتبدأ عملية التغيير من جديد. يجب أن لا يستغرب المرء من مثل هذه الحالات، لأنه أمر اعتيادي في المجتمعات غير المستقرة.

أما في المجتمعات المستقرة كما هو الحال في دول اوروبا الغربية وأمريكا واليابان ... فإنها لا تخضع للتغييرات المفاجئة، بل يتبع فيها التطور السلس السليم، وبذا تكون مسيرتها عبارة عن خطوات تتكامل تدريجياً وتستمر الى ما لا نهاية. وفي هذه النقطة التي تلتقي فيها مصالح المجتمعات المستقرة والمجتمعات غير المستقرة، ترتفع حدة الصراع الحضاري غير المتكافيء، وتزداد وتيرة أنواع القوة المفرطة التي تستخدم في حسم الاصطدامات المسلحة التي تحدث بين حين وآخر، او حتى في الصراعات الثقافية التي ابتلى بها العالم المعاصر، وتتعدى التجاوزات لتصل في حالات كثيرة الى معارك فكرية أيضاً. هناك نقاط اختلاف وخطوط تباعد بين المجتمعات المستقرة والمجتمعات غير المستقرة وخاصة ما هو متعلق بالانظمة التربوية المتبعة في كل منهما. وأكثر حالات التباين تأثيراً وينفرد بزاياها كل جانب هي: التخطيط المفتوح في التدريس المنظم. و لكي يكون التدريس منظماً بين ما أعده المعلم ليعطي وما يستعد له الطالب ليأخذه، والذي يأخذ يكون المستفيد الاول و يصبح صاحب المصلحة المحورية في العملية التربوية، لذا لابد من التركيز على قدراته وميوله واتجاهاته، و التي لا تغفلها الجهات أصحاب القرار في كلا النوعين من المجتمعات المستقرة وغير المستقرة:

ـ في المجتمعات المستقرة هناك مجموعة من العوامل الذاتية التي تعيق عملية التعلم عند الطالب، لذا تهتم الجهات المعنية التي تتحمل مهمة الإدارة التربوية ومسؤولية التنمية البشرية في البلد، أن تبذل كل ما في وسعها لتزيل العقبات النفسية والمشكلات

الشخصية أمام الطالب لتصل رغبته في التعلم أقصى مداها، وينسجم مع المحيط المدرسي ويزداد شوقه للانخراط في فعالياته المتنوعة. وحسب الظروف المستجدة والتطورات المستحدثة، تجري الجهات التي تشرف على التخطيط التربوي ماتراه ضرورياً من تعديلات وإضافات وما يتطلبه الأمر حسب المرحلة الحالية.

ـ أما في المجتمعات غير المستقرة، فالحالة منعكسة تماماً، وهناك مجموعة من العوامل الموضوعية التي تقف حجر عثرة أمام الطلاب لكي يتمكنوا من تكملة دراستهم على خير ما يرام، وفي الوقت نفسه تتعب الجهات التي تدير العملية التربوية وتشرف عليها في كيفية التعامل مع معوقات كبيرة تفوق قدراتهم المادية، وبذلك تثقل كاهلهم بمشكلات يتعذر عليهم إذلالها، وفي النهاية يصبح الطالب هو الضحية و الخاسر الأكبر.. والخاسر دائماً ليست لديه مصالح، والذي لا مصلحة له لا يمكن أن يحتل الموقع الرئيس والاول في أية معادلة سواء أكانت اقتصادية أم إجتماعية أم سياسية ... فكيف الحال بالنسبة للطفل الذي لا طاقة له ولا قوة سوى حقوقه الإنسانية التي تفرض على الأسرة والمدرسة تلبيتها ومن واجبهما الاعتناء به كما هو منصوص في الكتب السماوية، وما سنت من أجله لوائح حقوق الطفل على مستوى العالم.

الأزمة المعرفية في ماهية الاشياء المجهولة

في غياب المفاهيم العامة، أو عندما لايتقن الاطراف المتحاورة ماهية المفاهيم التي يدور حولها الحديث، او لنقل لايستوعبون المعاني الحقيقية للمفهومات التي تعتبر الركائز الرئيسة للنقاش الذي يختلفون عليه، فإنه من المستحيل أن يتوصلوا الى نتيجة مقبولة

من حيث المبتغى، ومعقولة من حيث المسار الذي يجمع أهدافهم المرئية وآمالهم البعيدة. وفي الوقت نفسه لا يستبعد في الحالات غير الاعتيادية أن يتوصل بعض الفرقاء الى اتفاق شبه تام او كامل في مدياته التفصيلية إذا دعت الى ذلك الضرورة القصوى. وكلا الحالتين أمر مرغوب فيه وأحسن منالاً من الحالات التي لم يبق فيها التفاهم ضمن حدود الكلام سواء أكان معسولاً يشحذ سيف العراك، أم حاداً يبحث عن فريسة يقتادها الى ما يصبو اليه، وكل ما يخشاه هؤلاء الاطراف أن ينتهي المشوار الى الاقتتال المتناوب او القطيعة المؤقتة... وما أكثر تلك الحالات في تأريخنا المليء بالمواقف الحرجة التي لا يحسد عليها أحد.

ليس من السهل لو حاولنا قياس الاطار الذي يحدد اسلوب وتأثير المفهوم. ومن دون ضبط هذا القياس لا يستطيع أحد أن يبسط الامور الى المستوى الذي ترنو فيه البراءة رداءً مخملياً يكسو ماهو قبيح بالجمال وما هو رديء بالحسن وماهو مشين بالخير. تزداد خطورة مثل هذه الحالات فيما لو تجرد فن الحوار من المفهومات الدقيقة، ولو استمر إنعدام او غياب هذه المفهومات من تلك الحالات فترة طويلة لتحولت الى ظاهرة سلبية متفشية على نطاق واسع، وتتسلل الى المفاصل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية للبلد. ويتآكل فيها تدريجياً ما هو مبرمج ومقنن. عندئذ لاينجو من مضاعفاتها القريب الناشط او البعيد المتفرج.

ما لا يقبل الاهمال او التأجيل هو أن ندرك بأن تجاهل أهمية المفهومات وعدم تحديد معانيها بالشكل الدقيق، سيجعل لغة التفاهم تظهر في أكثر محافل السياسة كياسة، وأكبر مواقع القرار أهمية، وكأنها فوضى الكلمات تختلط فيها المصطلحات العشوائية

وتتشابك حولها التعابير الرنانة. أما في أروقة المناقشات الحامية فغالباً ما تختفي الخطوط المرسومة او المشاريع المقترحة التي تقدمها او لنقل تفرضها مصلحة الاطراف المشاركة، وكثيراَ ما تكون منافستهم حادة، سعياً منهم للوصول الى الاهداف المنشودة التي تصب في خير المجتمع، ولكن من دون أن يعرف أحد جوهر ما يقصده الثاني. تتسع الهوة بينهم الى الحد الذي لا يستطيع أحدهم سماع الآخر، وتذهب توجهاتهم أدراج الرياح. وهنا يحاول من هو أكثر شطارة أن يتشبث بقشور الحقيقة وينال شيئاً من المكاسب والتي غالباً ما تكون مادية ووقتية ولا ترقى الى الهدف الاسمى والاساس للأطراف المتحاورة أصلاً. إذاً، فالمسألة تبدأ اولاً، من أن هناك أزمة في تشخيص المصطلحات، سواء على مستوى التنظير في كيفية إختيارها، أم دقة تطبيقها أثناء الاستعمال. لايقتصر التعامل معها على الاختصاصيين في فرع علمي محدد، بل من الضروري تداولها بمهارة من قبل العاملين في النشاط الإنساني المتعلق بذلك الجانب المعرفي نفسه. مما يترتب على كاهل المكلفين في ذلك الحقل أن يتقنوها بشكل يفي الحد الادنى من الغرض المراد تحقيقه.

وتستكمل الخطوة الثانية في تحديد المفهومات التي تتوسع معلوماتياً في إيضاح العبارات والاشياء، وتتجمع تحت معنى موحد يعرفه الجميع، يتفقون عليه علمياً في المحتوى المتناسق، وضمنياً في التكوين العملي المتسلسل.

وفي الخطوة الثالثة تدار عجلة الثقافة المتمدنة في مسارها الصحيح، وتتقارب وجهات النظر المختلفة بسهولة ويسر. ويصبح لكل نمط قاموسه الخاص بالمصطلحات، ودائرة معارف تستجمع فيها جميع المفهومات لتكون مناراً استرشادياً في التعامل ومرجعاً

أميناً عند الضرورة. وفي هذه الخطوة تترسخ الاسس الحضارية (سبق أن تطرقنا اليها مراراً) وهي:

ـ خيال خلاق يبدعه الأدباء والفنانون.

ـ فكر نير يدشنه الفلاسفة ومن لهم الالمام الكامل بوضع الاستراتيجيات العامة و الخاصة.

ـ خبرة عالية في إدارة الاعمال و احتراف المهن.

ـ مهارة فائقة في جمع هذه الأنغام المتنوعة ضمن لحن متميز ينسقه سياسيو البلد.

تتكون من اتحاد هذه الاسس الاربعة كتلة متماسكة، تمثل حضارة ذلك المجتمع، ومعيار موثوق لدرجة تفوقه او تأخره عن الركب الحضاري العالمي. وفي الوقت نفسه مقياس حقيقي لمدى تمكن ذلك المجتمع من تدبير أموره أو عجزه عن ذلك. وكذلك تعتبر إختباراً تجريبياً لمعرفة قدرته تناسبياً في التعامل الحر مع الاخرين او بقائه محطماً منهاراً يئن في أسفل سلم الرقي الإنساني.

ما نلاحظه في هذه الأيام أن مفهومات مهمة مثل (الديمقراطية، المعارضة السياسية، الحرية الفردية، حقوق الإنسان، الانتخابات البرلمانية، النزاهة، الكفاءة، التنمية البشرية، التربية المدنية، البيئة، الوطن، القومية، التنشئة الاجتماعية، الاقتصاد الحر، المساواة، الميثاق الاداري، الأمن القومي، المسؤولية، المصلحة العامة، الموازنة....) غير دقيقة ولم تحدد في إطارها الصحيح.

لكي يصبح استعمال هذه المفهومات ضمن البديهيات الواضحة والمتفق عليها من دون أن يكتنفها غموض او تردد او يلفها شكوك وإلتباسات، لابد من إجتياز الخطوات التي

تصلنا الى السلم الحضاري. وإذا لم تكتمل هذه الخطوات، فستظل الحوارات تجري في دوائر مفرغة، وتمتص طاقات كبيرة وإمكانيات كثيرة من دون أن تصل الى نتائج مثمرة تستوعب التطورات الآنية وتعطي قوة للخطوات التي تليها وتبنى عليها استراتيجيات المستقبل.

هل هناك أخطاء تنظيمية مميتة في إدارة مؤسسات الإقليم؟

تكثر في هذه الأيام الكتابات النقدية والتحقيقات الصحفية حول ضعف الخبرة الإدارية للعاملين في مؤسسات الإقليم المختلفة، وتلكوئهم في أداء مهامهم الرسمية، او عدم تمسكهم بالثوابت العلمية والمهنية وتجاهلهم لمقاييس الزمن مما يؤدي إلى تأخير الإجراءات او الأعمال التي يكلفون بها، وكذلك المسؤوليات التي من صلب واجباتهم اليومية. ومما يؤكد على ذلك أن من هم في مواقع القرار وعلى أعلى المستويات الإدارية أيضاً يشكون من استفحال هذه الحالات، وأعلنوها جهاراً في أيام الحملة الانتخابية الأخيرة لرئاسة الإقليم والبرلمان، والتي امتدت خلال شهري حزيران وتموز /٢٠٠٩.

من الأجدر أن لا تؤخذ كل تلك الكتابات محمل الجد، ولا تنظر إلى تلك التصريحات على أنها استنتاج لمعايير اختبارات الجودة في العمل الإداري والإنتاجي لمؤسسات الإقليم وعلى المستويين الحكومي والقطاع الخاص على حد سواء، بل يكفي أن تبقى في حدود أنها بمثابة ناقوس خطر يلفت الانتباه ويستحق الاهتمام.

لا نريد ـ هنا ـ أن نقلل من أهمية تلك الجهود التي تبذل في مجالي الصحافة والسياسة، لأن غرضهما الأساس هو التقويم والاسترشاد السليم ومن ثم تقديم الخدمات إلى المجتمع،

ولو أن تلك المحاولات ـ غالباً- ما تشبه تصريحات جاهزة، او تأتي من أقوال تستمد مصداقيتها من أخبار كانت في الأصل ردود أفعال لمواقف آنية، او توجيهات أعدت لغرض معين ربما لا تستحق الإشادة بها، إلا أن حقيقة الأمر لا تقتصر على ما هو ظاهر للعيان، بل فيهما ما يستحق تقديره على المستوى العلمي والاعتزاز به من الناحية الاجتماعية أيضاً.

لكي نبتعد قليلاً عن النتائج المستحصلة و نقترب من الأسباب الحقيقية للمسألة، لابد من الوقوف عند العلل التي بدأ فيها الخلل او الانحراف او التجاوز غير المقبول وأدت إلى ما نحن فيه الآن، وعندما نريد أن نعرج على تشخيص تلك العلل، لابد أن نعتمد على أسس علمية، وخير ما نراه مناسباً في هذا الصدد هو الأخذ بآراء الفيلسوف (و.ادوارد ديمنج/١٩٠٠ ـ ١٩٩٤) الذي له الفضل في وضع مبادئ وفلسفة إدارة الجودة الشاملة، وما أحوجنا في هذه الأيام إلى دراسة تلك المبادئ واستيعاب فلسفتها وتطبيق ما هو ممكن في مجتمعنا، وخاصة الأخطاء التنظيمية السبعة التي لا تعيق العمل الإداري فقط، بل تكون قاتلة في أحيان كثيرة، لذا من الضروري تجنبها قدر المستطاع والأسراع في حلها، متى ما وجدت في مكان ما، والتي يمكن إختصارها في النقاط الآتية:

- الخطأ الاول يكمن في العمل من أجل تحقيق الأهداف المرئية، وإهمال الأهداف التي ستظهر نتائجها في المستقبل، أي الأكتفاء بالكسب القليل في المدى القصير فقط.

٢- ترك الهدف المحقق بعد تفريغ جوهره واستحصال ما فيه من أرباح او مكاسب، وعدم التفكير في تحسينه وجعله بداية مكملة لأهداف أخرى، أي ينتهي دور الهدف بإنتهاء نضوجه، ولا تكون له أية أهمية إن لم يبق فيه مفعول يمتص منه رحيق الفائدة

٣- غياب أنظمة تقويم الاداء للعاملين، وعدم إجراء تحاليل لما يستخلص من الجهد، وما يستهلك من أجل ديمومة العمل، وما يعتمد عليه في تحديد الجودة

٤- عدم الاعتماد في تسمية حقائب الادارات العليا على أساس التسلسل الوظيفي والتدرج المهني، مما تكون قابلة للتغيير المستمر.

٥- خلو هيكل النظام التأسيسي للمؤسسة من أقسام الجودة، مما يصعب استحصال رضى الجهات المستفيدة من عمل المؤسسة، او تقدير الذين ينتظرون منها الأحسن والأفضل.

٦- عندما تكون تكاليف الصرف في مجالات الإستهلاك الجاري والصيانة الدورية أكثر من الايراد المستحصل او الخدمات المقدمة.

٧- إتخاذ القرارات على أساس الأرقام الملموسة او الإحتمالات المخمنة آنياً، وعدم الإعتماد على المعايير والمؤشرات التي تستنج من البيانات التي تحتاج إلى جهد واف للتحليل.

لو حاولنا تطبيق النقاط السبع أعلاه على عينات من مؤسساتنا الانتاجية والخدمية في الإقليم، بدءاً من الصناعية ثم الزراعية فالتجارية إلى أن يصل الأمر إلى المؤسسات التربوية وكل ما يقع في إطار نشاطات القطاع الخاص أيضا، سنرى حقائق ملموسة تنم عن مستوى أداء العاملين ومدى قابلية تحسينه نحو الأفضل، وإن كانت مؤسساتنا

موفقة في إستحصال أكبر عدد من النقاط السبع أعلاه، كان من الضروري نشرها في وسائل الإعلام او تعميمها على المؤسسات ذات العلاقة دورياً، وإن كانت غير موفقة في بعضها، أي إذا كان مستوى الجودة فيها أقل من (٣٠./.) أي بمعدل أقل من النصف، فهو أمر محزن وخطير أيضاً، يحتاج إلى إعادة النظر في بنيان الهياكل التنظيمية لإدارات مؤسساتنا، وتغيير فلسفتها في العمل، وإتباع الأسس العلمية في إستخلاص البيانات وتحليل نتائجها بالشكل الذي يغذي التقويم السليم ويمهد الطريق أمام التحسين المستمر، وفي كلتا الحالتين يعتبر إتقان العاملين لمباديء الجودة وإستيعاب فلسفتها، وتوعية المواطنين على ملابساتها الإيجابية والسلبية جزءاً مهماً من ثقافة المجتمع.

اللحظات الحية في التأريخ

هل نحن في مأزق تأريخي؟ أم نسير مع مجرى التأريخ بأمان؟!

سؤال يلحقه سؤال وفيهما شيء من البساطة، لكنه في الوقت نفسه يضيف بعض التعقيد إلى سذاجة الأسئلة التي تليهما ويجعلهما في مأزق استفساري صعب...وما المغزى من مثل هذه الأسئلة المحرجة وفي اوقات عصيبة كالتي نمر فيها نحن الكُرد هذه الأيام؟ هل أن هذه الأسئلة مرفوضة؟ أم أن فيها شيئاً من الصواب وتحتاج إلى كثير من التمعن!؟...وفي كل الأحوال يهون الأمر ويصبح اعتيادياً إلا في حالة واحدة وهي عندما تقع الأسئلة نفسها في مأزق فكري!!..كلنا نعلم أن ما بين التأريخ والفكر شعرة رفيعة قلما تمر عليها ما ينتجها العقل من إبداعات او ما تفرزها العاطفة من انفعالات او ما تستوعبها النفس من حقائق دامغة أثبتتها تجارب الإنسان خلال مسيرته الطويلة مع

الزمن. نعم إنها مجموعة أسئلة تلحق أسئلة أخرى وتشكل مجتمعة قنطاراً من التساؤلات، لا يمكن الإجابة عنها خلال موضوع واحد. وفي الوقت نفسه لا تقبل التأجيل او الإهمال أيضاً. إذاً ما العمل؟

قد تتعدد الافتراضات وتتشعب الاقتراحات ولكن نرى أنه من الأفضل أن نبدأ من مفهوم المأزق نفسه ونعرف المسار التاريخي لتطوره وما له من دلالات اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية، والتي لابد من تحليل كل من تلك الدلالات حسب الوجهة الفلسفية للجهة التي تتبنى إدارتها او تلك التي سببت في استفحالها... او هناك وجهة مشتركة لجهات عدة تسعى لأن تكون في مأمن من هذا المأزق او ذاك. فالمأزق هنا يعني الركود والركود يصنع الأزمات. ومادام المأزق قد تحول إلى أزمة فهذا يعني أن الحالة تحولت إلى منعطف خطير وهناك أكثر من مرحلة وأكثرها تأثيراً هي المرحلة التي سبقت زاوية الانعطاف ولكن يبقى الخطر الأكبر كامناً في المرحلة التي لم تأت بعد. وفي كل الأحوال فالمسألة تتطلب تشخيص المسببات وإيجاد الحلول اللازمة للخروج من الأزمات بسلام. فعلى سبيل المثال عندما نريد أن نجد حلاً للخروج من المأزق التاريخي الذي نحن فيه الآن، يجب بادئ ذي بدء أن نبدأ من النقطة الأساسية ونركز على نقطة التحول بين المرحلتين وهي النقطة الحساسة التي انتهت فيها مرحلة تاريخية وستبدأ فيها مرحلة تاريخية أخرى. ولا يمكن أن يكون صانعو التاريخ في المرحلة الاولى هم أنفسهم من سيصنعون التأريخ في المرحلة الثانية، لأن لكل مرحلة مقوماتها ورجالها الأشاوس ونساءها الذكية، لذا لابد أن يكون هناك دور تسليم و تسلم و معرفة تامة بأصول وأتاكيت الوداع والترحاب بشكل يمجد المرحلتين:

إحداهما تحمل الأزمة بكل سلبياتها ومخاطرها ودهاليزها المظلمة التي لا تخلو من المهالك وتهديداتها الخطيرة. أما المرحلة الثانية فهي التي انسلخت عن جسم الأزمة وخطت طريقها نحو أهداف معلومة تستجيب لمطالب الشعب وتنسجم مع المحيط الخارجي او البيئة العالمية التي لا تقبل الشواذ او الخارجين عن القانون الدولي ومواثيق الأمم المتحدة وخاصة ما يتعلق بحقوق الإنسان والحريات العامة في المجتمع. هنا تكمن الأهمية القصوى في ماهية المرحلة الجديدة وكيفية تحديد الأهداف التي لا تقبل سوى أسلوبين او خريطتين للطريق وهما: الأسلوب الاول يكمن في استعمال الأهداف المعدة منذ ما عرف الإنسان الحياة الحضارية والتي لا تقبل التغيير الجذري، بل تتطور حسب المراحل التاريخية التي يتوجب أن تنسجم فيها الحياة مع الأهداف وليس العكس، لأن المجرى العام لمسيرة الإنسانية هو سنة الحياة وعرفها المقبول أبداً. أما الأسلوب الثاني فإن الإنسان فيه يختار الأهداف ويعمل جاهداً لتحقيقها ويغير كل ما لا يروق له او يليق به. فنرى أن الأهداف تتغير من مكان لآخر او من مرحلة إلى أخرى. في الأسلوب الاول تكون القيم المثلى موجودة ومتجذرة في المجتمع ويحمل الإنسان روحاً حية وجسداً قوياً وعقلاً عليلاً، جمد فيه الفكر لذا يتعذر عليه أن ينسق ميوله مع عواطفه ويصعب عليه أيضاً أن يستمر في كبت غرائزه إلى ما لا نهاية. وفي الأسلوب الثاني فإن الإنسان يستغل قدراته الفكرية إلى أقصى ما يستطيع أن يستفيد منها فتزداد مشكلاته العقلية وأتعابه الجسدية وتمرض روحه إلى حد الانهيار. وما بين الأسلوبين تبدأ حرية الإنسان واختياراته التي لا تعد ولا تحصى. نحن الآن أحرار وفي مفترق الطريقين فأي الأسلوبين نختار لنحدد مصيرنا

الذي لا يقبل التمهل او الإهمال، وكلا الأسلوبين مثل السيف يتوجب على حامله أن يتقن استعماله.

ما الذي يجعلنا نكون أفضل من الآن

لم أكن أعلم أن الحديث عن الجودة الشاملة سيثير تساؤلات كثيرة وإستفسارات متباينة، وهو ما لمسته فعلاً بعد نشر الفكرة التي كانت تدور حول الأخطاء التنظيمية السبعة في مؤسسات الأقليم. أكثر التساؤلات كانت تتركز على ماهية الجودة الشاملة ومبادىء إدارتها. لذا اود ـ هنا ـ أن أتطرق الى هذا الجانب، ولو بشكل موجز كي تكتمل الفائدة من موضوع في غاية الأهمية. في البدء تجدر الإشارة الى مفهوم الجودة و لو أنه ظهر كإستدراك تقويمي في مجال الاقتصاد واعتمد عليه ـ في اول الامر ـ رجال الأعمال في مهماتهم التجارية والصناعية، إلا أن الدور الذي لعبه بعد ذلك في النشاطات الادارية والنواحي الانتاجية الأُخرى، كان له الأثر الفعال في ربط خيوط الابداع مع بعضها، واستغلال المواقف في صالح رأس المال، وجني ثمار المتاعب على أحسن وجه، ومن ثم تجاوزت أسهم الفائدة والربح حدود العمل اليومي والمشاريع الفردية الى أن وصلت ضفاف تخطيط سياسة الدولة، وما يتبعها من عمليات تتعلق بالتخطيط السليم والتنظيم المقنن والتنفيذ المتقن والمتابعة الدقيقة، وكل ذلك في سبيل تحسين كفاءة الاداء وتوصيل جودة الانتاج الى أقصى حدوده المنظورة. وهكذا تجلت ايجابياتها الى أن أصبحت كمفهوم استرشادي وفرع مهم بعلوم الادارة الحديثة. ومن الضروري أيضاً معرفة

تأريخ إستحداث هذا العلم، فقد طبقت أسسه اول مرة في اليابان وذلك بعد النهضة الحضارية والطفرة التكنولوجية التي شهدتها تلك الدولة وأحدثت مفاجأة كبيرة للعالم، حيث خرجت من الحرب العالمية الثانية مهزومة، لكنها نهضت بقوة موازية لخسارتها واستعادت عافيتها بسهولة وأبدعت في أكثر من مجال، منها استخدام الجودة في تطوير الصناعة، فأستفادت منها الولايات المتحدة بعد عقد من الزمن، ومنها تسربت الى جميع أنحاء العالم و شملت أكثر من مجال ـ كما تطرقنا اليها في المقال انف الذكر ـ وأخذت أكبر المؤسسات تهتم بدراستها والاعتماد عليها في تحسين أهدافها التي دخلت مجال التنفيذ والتي ما تزال موضع التخطيط. وفي كل الاحوال يجب على المؤسسة المعنية التي ترغب في الحصول على شهادة ضمان الجودة أن تحظى بأحد الأنظمة المنطلقة من منظمة المعايير العالمية (ISO). وتشمل منظومة تحسين الجودة الشاملة كل مكون او كل فرد في المؤسسة التي تخضع لتلك المعايير تلافياً لحدوث أي خطأ او هفوة من أحد العاملين في المؤسسة. هذا فيما يخص مفهوم الجودة، أما فيما يخص المبادىء المتضمنة في بنيانها، فيمكن إختصارها في النقاط الآتية:

- الاهتمام بالجهة المستفيدة من خدمات المؤسسة، والعمل على تأمين إحتياجاتها في المستقبل القريب، أي أن تكون هناك خطة على مستوى تحسين عمل المؤسسة وثانية تهتم بالجهة المستفيدة منها. وفوق ذلك من الأفضل أن تكون هناك خطة ثالثة مكملة للخطتين وتحسب فيها ما سيجري حسب التوقعات المحتملة أيضاً.

٢- استغلال طاقات العاملين جميعهم، كل حسب إمكاناته وخبرته في ذلك المجال الذي يبدع فيه. فالمؤهلات الفكرية والطاقات الانتاجية لكل فرد هي ضمن ممتلكات المؤسسة،

عليها تغذية كل مفاصلها بتلك الجهود وعدم إغفال ذلك بتاتا، سواء كان حجم الجهد صغيراً أم كبيراً.

٣- عند اكتمال مقومات النقطتين آنفتي الذكر، يستوجب العمل من أجل توحيد الرؤية والاهداف لجميع الخطط المرسومة ضمن مفاصل المؤسسة، تجنباً لحدوث أية تناقضات في استراتيجيات المنظومة او تضارب في العمل اليومي للشعب المختلفة داخل المؤسسة.

٤- لايتخذ أي قرار إن لم يعتمد على بيانات مفصلة او استبيانات مستخلصة من قبل المعنيين، ولا يكتمل المناخ الذي يتخذ فيه القرار إلا بعد تحليل البيانات ومعرفة الاستنتاجات بشكل دقيق أيضاً.

٥- المحافظة على التوازن بين الادارة الناجحة وبين ضمان تلك النجاحات، ليكون الناتج المستحصل متفقاً مع ما خطط له، وما هو مقبول عند الجهة المستفيدة.. سواء أكان طالباً في المدرسة أم زبوناً مضيافاً عند شركة أم مراجعاً في دائرة خدمية.

٦- عدم التوقف عند خطوة معينة او مرحلة محددة مهما كانت ناجحة او متفوقة، لأن التوقف هو المسار المعاكس للتطور، لذا يجب التفكير في التغيير المستمر والمتناوب مع جودة التحسين.

٧- الابتعاد عن العمل الهامشي و الملحق ضمن دائرة مركزية كبيرة، لكي لاتفقد المؤسسة إستقلاليتها وفاعلية تعاملها مع الجهات الأُخرى سواء أكانت كبيرة صاحبة الامكانات الهائلة والقادرة على اتخاذ القرارات المصيرية، أم صغيرة لا ترقى الى مستوى شعبة ثانوية بالنسبة الى المؤسسات الأُخرى، لأن ما يقرر التفاعل مع الآخرين هو نوع

العلاقات وليس امكانيات المصادر. وعندما يكون مفهوم الجودة محوراً أساسياً في التخطيط و التنفيذ والتقويم سواء على مستوى المؤسسة الواحدة أم مجموعة مؤسسات فإن تطبيق مبادئها يتطلب جهداً مكثفاً وخبرة عالية وهو مايجب توفره إن أردنا أن نسير نحو الأفضل.

هل لنا أن نعرف محاور القضية الكُردية؟

لم نر بعد، من يقدم دراسة حول محاور القضية الكُردية كاملة، ويحلل مفاصلها او يدقق في تفاصيلها بشكل تبدو قضية مفهومة بكل جوانبها المعرفية، ويدرك مضامينها الواضحة كل من:

١ـ المواطن العادي الذي يحمل في جوارحه عواطف جياشة لحقوقه القومية، لأتواقة في التمتع بإمتيازات المواطنة.

٢- المثقف المتابع ذو الرؤية الإنسانية التي تتساوى في أفقها جميع الشعوب بغض النظر عن الجنس او اللون.

٣- الاختصاصي المتمرس صاحب النظرة العلمية والذي يحلل الامور على ضوء الحقائق بعيداً عن التحيز او التعصب لجهة ما مهما كان نوع الاختلافات معها.

٤- المحافل الدولية والمنظمات العالمية التي تهتم بالعلاقات الثقافية وحرية الإنسان وحقوق الشعوب. حقاً إنها عملية صعبة، يزداد تعقيدها عندما يتم تحديد الجهة التي يتوجب عليها القيام بأداء ذلك الدور الذي يكلف صاحبه الكثير من الخبرة العلمية والجرأة الحاسمة وتحمل المخاطر الكبيرة، وخاصة إذا تأطرت تلك الجهود في أعمال معهد أكاديمي او في أبحاث مركز للدراسات الاستراتيجية، وسواء كان طاقم ذلك المعهد او المركز

كُردياً خالصاً يقدم خدماته ضمن الواجب الوطني، أم عالمياً يعمل من أجل سعادة الإنسان في بيئة سليمة ونظيفة خالية من التلوث والحروب. يهدف هذا الطرح، تأطير القضية الكُردية ضمن منظومة معرفية محددة الابعاد وواضحة الآفاق، تتفق الجهات الاربع المذكورة أعلاه في فهم مشترك وتحليل متجانس وتتلاقى جهودهم في إظهار قيمة الحق، وإستنتاج ما هو ضمن حدود العلم، وتدار ضمن سياسة مرسومة الابعاد من الداخل ومرغوبة الاتجاه من الخارج. ومن خلال تلك النتائج يتمكن الكُرد وكل من يهمه تداعيات القضية الكُردية أن:

- يخرجوا من دائرة الشكوك والاحتمالات او حتى الفرضيات التي تعجز أن تعطي ثماراً يرتاح لها القانون الإنساني ويتذوق منها الضمير البشري الحي أينما كان ومتى ماشاء الى ذلك سبيلا.

٢- يشترك الجميع، كُرداً وشعوباً أخرى في رؤية واضحة حول تأريخ ومستقبل كُردستان. كيف كانت هذه المنطقة والى أين تتجه؟ ماذا كان وماذا يريد شعب كُردستان؟

٣- يعرف الشعب الكُردستاني طريقه الصحيح في العمل المثمر، والأمين في العيش الرغيد، بعيداً عن التهديدات والخوف من المستقبل، وبذلك تبدأ صفحة جديدة من العلاقات الحقيقية المبنية على التكامل الاقتصادي والتبادل الثقافي، بعيداً عن المجاملات الاعلامية والمصالح السياسية الآنية التي تنتعش في الغرف المغلقة والدهاليز المظلمة التي تتعارك من أجل حبة قمح وتتصالح عن طريق تحية الصباح. وخلاصة القول أن تخرج القضية الكُردية من شرنقة الشرعية القومية وتدخل في الدائرة الإنسانية. أي لايكون هناك خندقان، خندق فيه الكُرد بكل مصاعبهم ومظلوميتهم. وآخر فيه العالم بكل

قسوته في الابتزاز ولامبالاته في مد يد العون الى الاخرين. ومتى ما استطاع الكُرد، أن يزيل خريطة التخندقات الاقليمية والدولية، عندئذ تبدأ الخطوة الاولى في تنفيذ الاقتراح المطروح لتحديد المحاور الاساسية التي تستند عليها القضية الكُردية. ومن هنا يكون نوع الاسئلة التي يطرحها كل كُردي ويجاوب عليها العالم. ومن حق العالم أيضاً أن يسأل ماذا يجول في أروقة منظماته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية من تساؤلات منطقية تهم القضية الكُردية. ويكون في جعبة الكُردي أياً كان مستواه المهني الأجوبة الشافية لتلك الأسئلة، وعندما تلتقي أجوبة الطرفين في نقطة مختارة وتتكاتف مطواعة مع نقاط أخرى كثيرة، وحتى إن اتفقت مع البعض في الأهداف وخالفت مع البعض الآخر في الاتجاه، فإن القضية تتغير جوهرياً وتتحول من:

١ـ قضية (كُردية) خاصة الى قضية (كُردية ـ إنسانية) عامة، تتوازن فيها المصالح المشتركة للجميع كل حسب حدوده الجغرافية وتعاملاته الاقتصادية وعلاقاته السياسية وتأثيراته الثقافية.

٢ـ تتحول القضية أيضاً من إطاره العاطفي وتدخل مداره العقلي، ويتحكمها التفكير العلمي، فبدلاً من الشعارات البراقة والحماسات الجياشة والمبادرات الشخصية المخلصة والنشاطات الحزبية الذكية... يتقوى الرأي العام وتقام المؤتمرات العالمية وتصدر القرارات الدولية المعتمدة على تحليل الاستفتاءات والدراسات الاستراتيجية، وفوق كل ذلك تصبح جزءاً فعالاً من التطور التكنولوجي الذي لايتوقف عند حدود ولايعرف المستحيلات.

بعد تحقيق هاتين النقطتين تصبح القضية الكُردية إحدى الركائز التي يستند عليها مركز الثقل لكل التوازنات العالمية والتي تتعلق عليه آمال الشعوب وتقرر فيه مصائرهم. وفي هذا المركز الحساس يعرف أفراد كل شعب المحاور الأساسية لقضيتهم ومن

ضمنهم الكُرد. فهل لنا أن نعرف من الآن: ماهي محاور القضية الكُردية؟ لا أعتقد ذلك. وإن كان ممكناً فالأمر لا يتعلق بمن لايبني موقفه على الاحتمالات.

لا يستحق القاطع و القاتل الاحترام

(لا يوجد قاطع محترم) عبارة تنم عن كلمات قليلة، لكنها ولدت بعد مخاض عسير، وجبلت في تفكير عميق، وامتزج الخليط مع تجربة كُردية خالصة لتبتكر على ضوء جملة أبدعها الشاعر الشيلي بابلو نيرودا في إحدى قصائده التي يقول فيها (لا يوجد قاتل محترم)، وبالرغم من أن هناك إختلافات جوهرية في ما تعنيه كل من العبارتين:

ـ الفاعل في العبارة الاولى يريد أن يقطع شجرة و ينهي حياتها.

ـ بينما الفاعل في العبارة الثانية يريد إن يقتل إنساناً ويخرجه من الحياة الى الأبد.

وماعدا ما يفعله المجرمان، فإن العبارتين تشتركان في المغزى المراد من سبكهما وهو (إنهاء الحياة). بعد تنفيذ هذين القرارين ليس هناك مايستحق القول، إلا إننا نريد أن نغوص في بعض ما يمكن عمله قبل تنفيذ مثل هذه القرارات، سواء كان على مستوى الفرد الواحد المستبد برأيه كأنه المحيي والمميت، أم المجتمع المتفق في تطبيق تخطيطه وكأن البشر والشجر أدوات طيعة يستهلكها كما يشاء وينهي دورهما عندما يريد. قد يكون في مثل هذا التوجه شيء من الشرعية القانونية والتقبل الوجداني بالنسبة للمجتمعات البدائية، او البلدان المغلقة وذات الحكم المطلق.

أما في المجتمعات المتقدمة او من هي في طريق النمو، فإنها تهتم بحقوق الإنسان و مبادىء الديموقراطية وتجعلهما خارطة طريق لعملها في الحكم و الإدارة. وترى في الإنسان أغلى رأسمال يسكن في المدن والقرى، وفي الأشجار أجمل ما تزين تلك المجمعات البشرية. فلا قتل الإنسان مباح ولا قطع الأشجار مقبول ويحاسب عليهما القانون.

أما في كُردستان كما تسمى بموطن الغبن والمآسي، فإن قتل الإنسان كان فيها ـ الى وقت قريب ـ أي إلى ما قبل (١٩٩١) من الأمور الاعتيادية حيث يصل في بعض الحالات الى الابادة الجماعية كما حدثت في مدينة حلبجة عام (١٩٨٨). ناهيك عن حالات الاغتيالات العشوائية والخطف المدبر والسجن التعسفي وحرق مساحات شاسعة من الغابات ... وكلها تدخل ضمن الابادة الجماعية وخرق لقواعد حقوق الإنسان. وما يطرح مثل هذه الاراء، سواء أكانت عن طريق التحليل العلمي والدراسة المعمقة أم كان ضمن الكلام العابر للمهتمين بهذه الشؤون الحساسة، فإنها تحمل معان كبيرة تعين الذين يريدون إجتياز الأزمات والخروج من مثل هذه المطبات الهالكة. وكان هناك شعار ربما نسيه الجيل الجديد وهو (كل شيء من أجل المعركة)، فكانت الاسماء المرشحة لقتالها كثيرة، إلا أن حقيقة الأمر كانت حرباً على الحياة. ومن تلك الحروب التي شنت على كُردستان ولم يكن للطرف الكُردي فيها أية جريمة او مخالفة، بل كانت جل أسبابها كامنة في نفس الغازي من الاعتداء والتجاوز وحصد المكاسب وما يكنه هذا الجاني المهاجم من الحقد والبغض للآخرين. على سبيل المثال، كان حرق الغابات مزاجياً و عشوائياً ولايتعلق بالعمليات التي تجري من أجل الاستفادة منها سكنياً او زراعياً او صناعياً، بل كان من أجل أن تصبح الارض ساحات للقتال و ميادين للعمليات العسكرية، ولكي يخضع الكُرد للأمر الواقع ويتنازلوا عن حقوقهم القومية في المواطنة المتكافئة مع باقي أبناء البلد الواحد. وفي مثل تلك الأجواء، كان الحديث عن حقوق الحيوان والمحافظة على المساحات الخضراء أموراً غير مهمة وليست لها قيمة تذكر. وهو ما جعل الشعب الكُردي

في زاوية حرجة جداً، وكان الآخرون يعاملونه خارج المعادلات الامنية لأنه لم يكن يملك سلطة رسمية، او ينظرون اليه كملحق للحسابات الأقليمية، لأنه كان يعيش في هامش العلاقات الدبلوماسية بين معسكري الغرب والشرق وضحية بريئة للحياد الدولي أيضاً. بعد عام (١٩٩١) لم يبق للحرب الباردة تأثير في العالم وبدأ عصر جديد تغيرت فيه الارقام والحالات والمواقف في معظم المناطق الساخنة ومنها كُردستان، ومن تلك التغيرات المهمة والتي أصبحت فيما بعد نقلة حاسمة في التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية في حياة جميع الشعوب، كانت السمات الأساسية للعولمة التي طغت على منابع الإنتاج وطرائق الاستهلاك فيها أيضاً. تقلصت حدة التوترات الحادة في كُردستان وأخذ الشعب يتنفس الصعداء، وبدت التجاوزات على حقوق الإنسان غير مؤثرة على مستوى المجتمع. لكنه ظهرت اعتداءات كثيرة بشكل آخر وجهت للبيئة وبما فيها من حيوان ونبات وماء وهواء وتربة، وما هو بري وطبيعي او ماهو أليف وإنتاجي واصطناعي على حد سواء. وما يسجل في ذاكرة المأساة الكُردية اليوم، أن الكُرد لم يتعظوا من دروس معاناتهم في التهجير والترحيل والانصهار القومي على يد الذين لم تطأ أقدامهم عتبة المعرفة ولم يدخلوا أروقة الحضارة الإنسانية من باب العلم، بل تأقلموا مع تكنولوجيا العصر لكي يستخدموها من أجل تنفيذ مآربهم البدائية والاستغلالية في أكثر الاحوال. ولم تكن لتلك الاعمال الشنيعة ردة فعل قوية من قبل الكُرد ليسلكوا المسار المعاكس والمسالم الامين الذي يتجنبهم من الاعتداء على حرية الآخرين والتجاوز على القانون ومن مؤيدي المحافظة على سلامة البيئة وصحة المجتمع. بل نرى أن هناك تبذيراً غير مبرر في صرف المياه وعدم مبالاة في المحافظة على المساحات الخضراء. وعلى سبيل المثال قامت الجهات المنفذة في عاصمة الاقليم نهاية شهر أيلول الماضي و بالتحديد في يومي (٢٩و٣٠) بقطع آخر مجموعة من الاشجار المعمرة التي كانت تزين أحد الشوارع الرئيسة بحجة التوسيع والترتيب والتجميل، وكلها أمور مبررة و معقولة ولكن

ليس على حساب مئات الاشجار المعمرة التي أعطت الجمال لذلك الشارع خلال عقود، إلا أنها قطعت بدون رحمة وأزيلت من الوجود من دون رجعة، كما كان الطغاة يفعلونه بالكُرد في السابق، إلا أن رفات الكُرد بدأت تكتشف في مقابر جماعية بين حين وآخر، ولكنني أعتقد بأنه سوف لا يكون هناك من يذكر تلك الأشجار حتى في المناسبات.

الدكتاتور الأكبر وحفيده الأصغر

عندما يأتي الكلام على الدكتاتور الأكبر، يتذكر المرء مباشرة قسماً من الملوك المشهورين بحروبهم الشرسة ومظالمهم القاسية وانتهاكاتهم التعسفية وعنجهيتهم في الحكم وتدبير أمور دولهم في الإدارة والقضاء على حد سواء، ليس هناك من لا يعرف قسماً من تلك النماذج وحتى ان كان له إلمام قليل بحوادث التأريخ وشخصياتها القلقة او بعضاً من منعطفاتها الخطيرة، حيث لا بد وان يتعشعش في مخيلة أي إنسان شيء من ذلك التراث البشري السلبى والسيء الصيت والذي يمقته المجتمع المتمدن، الا انها وماتزال نقاطاً سوداء ملطخة بدماء آلاف بل وملايين البشر.. وما عدا التجاوزات التي ارتكبت في هتك الأعراض وحرق القرى وتدمير المدن ومصاعب اخرى كثيرة أرهقت كاهل شعوب باكملها.

تحتفظ الذاكرة البشرية على كثير من الأجوبة الجاهزة للسؤال التقليدي الذي يؤكد:

(من هو الدكتاتور الأكبر الذي يحتل الرقم الصعب في رأس القائمة الخبيثة من ذلك التراث؟)

هناك من يعتقد ان الدكتاتور الأكبر هو من أفرط في إيذاء الآخرين، وبالغ في تعذيب من خالفه الرأي وأذل من عكر مزاجه الشخصي.. وهناك أمثلة كثيرة تؤيد صحة ما

يذهب اليه أصحاب هذا الاعتقاد منها: ان اللوحات الفنية التي رسمت في فترات مختلفة من حكم الدولة اليونانية والدولة الرومانية حيث تجسد فيها أساليب التعذيب ضد من يشك في ولائهم للطغاة.. ومن أجل التقرب من الحكام واكتساب مودتهم كان بعض الحرفيين يسعون الى ابتكار أجهزة مؤذية ويقدمونها الى البلاط من أجل استخدامها في عمليات التعذيب وانتزاع الاعترافات ممن هم تحت رحمة سطوة الطاغية، ومن تلك الادوات الفتاكة التي يذكرها (براين اينس) ان أحد الحرفيين صنع ثوراً بحجمه الطبيعي وله فتحة من البطن بحيث يمكن ادخال الضحية فيه. قدم النموذج إلى الطاغية فالاريس ومبيناً طريقة استخدامه: إذ يدخل الضحية الى داخل الثور ويتم تمديده وشده باحكام، ثم تغلق الفتحة وتحرق ناراً بحيث تدخل حرارة ودخاناً الى الضحية، فتبدأ الضحية بالصراخ والعويل فيخرج الصفير من فم الثور ويسخر المجتمعون من الأصوات المزعجة من دون ان يفكون دلالاتها التي تدل على الذل والهوان.

وعلى أيدي طغاة الصين القديمة كانت تمارس عمليات تعذيب مروعة، منها: ان يربط المحكوم عليه بالقيود ثم يقطع جزءاً من صدره او خده او قضيبه، وكانت آخر ضربة توجه الى قلبه لينهي الجلاد تعذيبه بالموت المحتوم، ومن سخرية القدر ان عوائل بعض الضحايا كانت تسعى بكل ما تملك من المال الى رشوة الجلاد ليوجه ضربة سريعة الى قلب الضحية ليسرع في موته ويتخلص من تلك الآلام المروعة.

ويكتب احمد أمين في كتابه (ظهر الإسلام) وفي طبعته الخامسة ٩٤٥، نقلاً عن الهمذاني: (ان أحد أمراء خراسان قتل في مدة قليلة اكثر من مائة ألف من الباطنية وبنى من رؤوسهم بالـ(ري) مناراً أذّن عليه المؤذنون)، تطورت أساليب الطغاة في

التعذيب وإيذاء الآخرين كثيراً في القرن العشرين منهم من اشعلوا نيران حروب ذهب ضحيتها ملايين من البشر كما هو معروف وموثوق في أرشيف قنوات الإعلام ومراكز الوثائق والمكتبات العامة.. ولا حاجة ان نطيل الحديث عنها، فكلها تبقى ضمن الأجوبة الكثيرة التي تحتفظ بها الذاكرة البشرية وتتفنن في تحليلها وشرح أبعادها وتشخيص مسبباتها وإيجاد بعض الحلول والعلاجات العلمية لها ليتخلص المجتمع البشري من تلك الافرازات المقيتة. تكللت جهود محيي السلم ورسل المحبة ورفاق المودة بالنجاح الملحوظ في السنوات الأخيرة وذلك بفضل إصرارهم على مكافحة تلك الممارسات البشعة التي كان الطغاة الصغار والكبار يرتكبونها بحق بني البشر وهي وصمة عار في جبين الإنسانية.

لم تكن تلك المحاولات لتنجح لولا إصرار تلك النخبة الواعية على تشخيص الدكتاتور الأكبر الذي يسكن في داخل النفس البشرية ويسيطر على وعي الإنسان وجاثم على عواطفه.

ومن خفايا ذلك التشخيص انه لا يمكن التغلب على الدكتاتور الأكبر بالجيوش الجبارة او الامكانيات اللوجستية الضخمة، بل هناك طرق اخرى من يريد ان يسلكها ليمكنه من النيل من ذلك الطاغية الأكبر وهي: (ان يعد الإنسان نفسه للمبارزة الفردية حسب تخطيط فكري محكم).

هل في الإعلام الكُردي ما يجرح مشاعر الآخرين؟

يستاء البعض من الأسلوب الذي يستخدم هذه الأيام في لغة الإعلام الكُردستاني بشكل عام وفي الصحافة الالكترونية بشكل خاص، وما بين الحالتين تأتي الصحافة الورقية لتحشر نفسها في المشادات الكلامية الشفهية بين المراكز المتنفذة ذات الصلاحيات الإدارية الواسعة وبين المطالب المشحونة بالانتقادات الحادة للجماهير الغاضبة وذلك: لتخدش مشاعر الرأي العام اولاً، ومن ثم تشخص عينات من النوع الذي فيه بعض السلبيات ولكن ليست له القدرة على المواجهة المباشرة ثانياً، وتقوم في مرات أخرى بتشجيع الروح العدائية التواقة للانتقام على الدوام ثالثاً. ومن حق أي متابع أن يسأل اولاً: ما هو نوع الكلام الجارح في الإعلام الكُردستاني؟ وما هي المبررات العلمية التي تدفع بالصحفي ليسلك هذا الطريق البدائي الشائك، ويختار هذا الأسلوب المستفز الذي يعرف علم اليقين بأنه سيكون هو شخصياً من اول ضحاياه الخاسرين. لا أريد أن أزيد من عدد الأسئلة، ولكن أحاول أن أكون مع الجانب الذي يبحث عن الأجوبة، لأنه هناك كم هائل من الأسئلة المطروحة مقابل شيء ضئيل من الأجوبة غير الشافية، وهو خلل فكري في العقل الجمعي للجماهير قبل أن يكون نقصاً مهنياً في شخصية الصحفي... ومن هنا أبدأ بالإجابة على السؤال الساذج والنابع في الوقت نفسه من صميم الأزمة الفكرية الكُردستانية، الذي يقول: لماذا يلجأ الصحفي إلى ذلك الأسلوب الجارح في تعامله مع الأحداث او في حواراته مع الآخرين؟

ولكي تكون الإجابة صريحة وفيها نوع من تشخيص الأسباب مع شيء قليل من المعالجات الآنية، نقسمها إلى المحاور الأربعة الآتية:

- معرفة البيئة التي ينبت فيها الكلام الجارح والعوامل التي تساعد على تنشيط هذا الأسلوب في التعامل، وغالباً ما يكون استعماله من أجل تهيئة المناخ الملائم والاستعداد النفسي لإشعال نار حرب محتملة او معركة دموية يخطط لها من وراء الكواليس. وما كل تلك الاستعدادات إلا من أجل أن يتم فيها تصفية بعض حسابات الأطراف السياسية او المنافسات الاقتصادية او الصراعات الاجتماعية وسواء أكانت على مستوى العشائر المتناحرة على الجاه أم الكتل المحلية التي في طور تكوينها الحضاري في المدن... ويمكن أن تكون العملية عكسية فيكون استعمال الكلام الجارح والبذيء من مخلفات الحروب ومسك ختام المجابهات الدموية حيث تتلاشى معه معاني الانتقامات وما تبقى من تبقي الصراعات، وبداية حادة ولكنها طيبة لتفتح المجال أمام الحوارات البناءة والمفيدة للطرفين. وأعتقد أن هذا الأخير هو ما نلاحظه هذه الأيام في الإقليم.

٢- عدم قدرة الصحفي في الحفاظ على التوازن بين ما في الصحافة من علم و ما فيها من فن، وهو جوهر عمل الصحفي الناجح. ولكن هناك عدداً لا بأس به من الصحفيين الذين لم يحالفهم الحظ وجرفتهم سيول الصراعات ولم ترس زوارقهم إلا عند نقاط الاختلال، ولم يفهموا من تفاعل العلم والفن إلا ما هو سائب و مختل. فيضطر السيد المحترم أن يلجأ إلى الاستنجاد بما هو مختل واول أسلوب يتلقاه من تلك الحالات المختلة هو الكلام الجارح و المفردة المستفزة و العبارات التي تقلل من قيمة الطرف المقابل، وكلها أسلحة شفهية يستعملها الإنسان في صراعه من أجل أن لا يموت، وهنا تكمن نقطة الخلاف بين هذا الإنسان وإنسان آخر يستعمل الكلام في

حواراته من أجل الحياة، وهناك فرق كبير بين الحالتين لا يلاحظه إلا من له نظرة ثاقبة في التحليل الدقيق. ويفقد من هو في مربع الاختلال احترامه النسبى عندما يتفنن في استعمال الرشقات الكلامية غير اللائقة ويعرض نفسه لسخرية المجتمع.

ومن يريد أن يتجنب هذه المطبات الفاسدة عليه أن يفكر في إعادة التوازن بين العلم والفن، قبل أن يبدأ الكلام في خطاباته المتشنجة او يباشر في كتاباته الصحفية.

٣- الشخص الذي يتعرض للهجوم غير المقبول والكلام الجارح، او لنُسمه (الضحية)، فما عليه إلا أن يكون واسع الصبر، يتحمل الكلام المصحوب بالشتم و السب برحابة صدر...وكل ذلك من أجل أن يتخذ مواقفه على أساس التفكير السليم والمبني على بديهيات منطقية بعيدة عن الانفعالات الهائجة وردود الفعل السريعة. وبذلك يحول ساحة الصراع إلى منصة حوار ويشخص المواقع بين من هو في الموقع المختل ومن هو في الموقع المتزن والسليم والآمن. ومن هنا يكسب (الضحية المنتصر) الوقت المناسب للرد المباشر او غير المباشر. وفي الوقت نفسه يحافظ على مركزه الاجتماعي والعلمي في الساحة الإعلامية.

٤- على المجتمع أن يغير بعضاً من أعرافه و تقاليده، واول ما يخطوه أن لا ينظر إلى المهاجم والمعتدي والمتجاوز على حرية الآخرين نظرة البطل والجريء والباسل والمقدام والشجاع... ويضع على المهاجم عليه او الضحية نظرة المتخاذل او الخائف او الجبان او المغفل. بل العكس هو الصحيح. متى ما تغيرت هذه المعايير، سيكون دور المتجاوز على حرمة الآخرين مثل الكلب الذي يعوي وراء القافلة التي لا تبالي

بصيحاته الجوفاء (مع الأعتذار عن ذكر هذا المثل) أما الشخص المسيطر على أعصابه والذي بهمل مالا يليق به في طي النسيان، فهو النموذج المثالي لشخصية المجتمع المتمدن الذي نتمناه اليوم قبل الغد.

هذا ما يمكن اختصاره لموضوع مهم ونحن اليوم في أمس الحاجة إلى استيعابه وتحليله وتشخيص عيوبه والبحث عن معالجات جوهرية لاجتثاث سلبياته من الجذور او التجاوز عليها على أقل تقدير.

البؤر الساخنة.. بين الفكر السياسي الكُردي و المستوى المعرفي للمجتمع

يزخر التأريخ الحديث للكُرد بسلسلة طويلة من الإنتفاضات الدموية، لكنه لم يسجل حالة واحدة للتوافق بين الفكر السياسي لتلك الإنتفاضات والمستوى المعرفي للمجتمع.

إذا كانت هذه المعادلة ضرورية للتقييم الأدائي للمشاركين في تلك الانتفاضات، فإن أهمية المعادلة ستزداد فيما لو كانت عامل إسناد في إجراء أية دراسة إجتماعية او تحليل سايكولوجي للذين آمنوا بمبادئها وتعاطفوا مع أحداثها، وقدموا الشيء الكثير من أجل أن تنتصر.

من سوء حظ الكُرد، أن أياً من تلك الانتفاضات لم تر النصر. إلا أن تجاربها وعبرها كانت تفيد في تقوية الذاكرة الانفعالية للاجيال التي تأخذ نصيبها من الارث الثقيل الذي تتركه من دون أن تضبط أرقام خسائرها، او تعرف الحسابات المترتبة لقائمة فاتوراتها المسجلة.

ماذا يبغي رجل مثلي، يلهث في تلك المحطات المنسية. يبحث عن اوراق قديمة. يركض من دون جدوى، إنه أمر يشبه الجنون. كان من الاجدر أن أعرف أن شيمة العالم المتحضر هي غلق الملفات المهزومة، وتتركز إهتماماته فقط بالقامات الرشيقة التي تقدم مذاقاً حلواً تفتح به شهية الامم المتحدة ومنظماتها الإنسانية التي تسعف كل ماهو تحت خط الصفر. وتعبث بمقدرات كل من له رقم، تشدد على من له إرادة ذاتية، وتلعب به كالكرة يميناً وشمالاً تجنباً لحدوث أي خلل في ترسيخ أسس السلم العالمي.. فينسى هذا المسكين الذي كان يرى في نفسه القوة والقدرة الكاملتين كل شيء، إلا المصافحة الاولى في الحفلة التي احتضن فيها الاحباب وتم تتويجه فيها كإنسان مسالم لايعرف النفاق ولايتجاوز على حقوق الاخرين.

إذاً ليس لدينا ما نعتمد عليه في التعرف على إحداثيات البؤر الساخنة التي تفصل بين الفكر السياسي الكُردي بتأريخه الطويل وبين المستوى المعرفي للمجتمع الكُردستاني بكل تقلباته السلبية و الايجابية.

هذا الفيصل الذي يتوازن عنده الجانبان النظري و التطبيقي لبرنامج عمل حكومة إقليم كُردستان وأداء أعمالها المهنية و الخدمية و الاشرافية، يفتح منفذاً ليتم من خلاله إيجاد صيغة مقبولة بين المكون الايديولوجي الذي تتبناه الحكومة في إنقياد المسيرة الصحيحة للحركة التحررية الكُردية في الالفية الثالثة وبين المستوى المعرفي للجماهير التي تريد أن تأخذ أكثر مما تعطي... وهي علامة فارقة في ماكان عليه فكر الجماهير المنتفضة سابقاً، وما يمتاز به البعد المعرفي في وعي الإنسان الكُردستاني حالياً.

وهنا تبدأ علة غير مقصودة، ولكنها في غاية الأهمية والتأثير وخاصة في عدم إستدراك الوعي الكُردستاني للابعاد المعرفية في المسار العالمي المتطور على جميع

المستويات العلمية والفلسفية والثقافية، وتفوق هذا الغول الهائج على الاسس الفكرية للانماط الحاملة في المكون الايديولوجي المتشتت على الساحة السياسية الكُردستانية.

يبدأ الصراع غير المتكافيء في طرفي المعادلة المختلة بين العالمي و المحلي، بحيث يحاول كل طرف السيطرة على الطرف الآخر او إضعافه قدر الإمكان.

تعتمد برامج المنافسة في هذا الصراع على فلسفة الضعف التي تريد أن تسترشد بمباديء الميكيافيلية في التنظير وتتحاشى أن تتعامل مع مغامرات الدياغوكية في التطبيق، لذا نادراً ما يفلح أتباع هذه الفلسفة في محاولاتهم البائسة والتي غالباً ما تموت قبل أن تلد، إلا أنها في كل الأحوال تبقى معادلة تستحق أن يتعاطف معها من يريد أن لا يشاهد إنساناً يهزم أمام مصاعب الحياة حتى وإن كانت درجة نشاطاته الفكرية متدنية الى حد اليأس.

من هذا المنطلق تدخل هذه المعادلة ضمن ترتيب برامج المنافسة، ومن الصعب أن يتوازن ما في طرفيها من مراكز قوى وحدود الالتزامات، لأن تفاعل مكوناتهما يتوقف على مقدار المشاركة الفعالة في التجاذب والتنافر لكل منهما، وبذلك يساعد على ايجاد جو مشحون متوتر يسعى كل طرف فيه الى إضعاف الأسس الرئيسية لتلك الفلسفة ومن ثم إلغائها نهائياً لتحصد هي بعض المكاسب الفرعية الصغيرة.

لنترك فلسفة الضعف جانباً، ونبتعد قليلاً عن محاولاتها القاسية في إذلال اتباعها المحترمين، ونسأل:

ـ ماهو موقف من هم خارج ذلك الصراع؟

ـ ما هي علاقة الذين تهمهم نتائج الصراع الذي لابد وأن يحسم لصالح أحد الطرفين؟

ـ هل من المعقول أن ينتصر من بنى حساباته على الحلقات المتذبذة في فلسفة الضعف؟؟!!

إنها مجموعة أسئلة لاتهم من استسلم لرحمة العنف وأغرته فتنة الغرور، أو من أتعبته قسوة الحياة وخذلته مصائب القدر. بل موجهة أصلاً الى من يبنى فلسفته على القوة فقط.

لا أدري ماذا يكون دور المتفرجين؟ وخاصة لمن يعرف جيداً أن مكونات كل طرف من تلك الاطراف عبارة عن مجموعة أساليب في غاية الحساسية وقوانين بالغة الدقة في البناء. وخارج هذه الاحتمالات ستبقى ساحة الصراع حامية، تجذب وجهات نظر الكثيرين وخاصة من هم في واجهة الصراع وينتظرون بفارغ الصبر ما يتمخض في تلك الفجوة العميقة الفاصلة بين مناهل الفكر السياسي الكُردي، والتي لاتنسد الى بعد صياغة الخطاب الايديولوجي ـ المعرفي المشترك بين الطرفين.

الأقسام المؤجلة من الأسئلة الخالدة

هناك أسئلة راودت مخيلة الإنسان منذ زمن بعيد، أتعبته إلى حد الاشمئزاز، أخذت من وقته الكثير، خلقت له مشكلات جمة، أعطى في سبيل حلها تضحيات لا تعد... وقبل أن أطيل في سرد سلبيات هذه الأسئلة، اود أن اشخص أحدها، والذي بدأ به ـ كما أعتقد ـ الأديب والفيلسوف (اوربيد) حيث يتخيل في تحليلاته متسائلاً: لا أستطيع القول أن شخصاً ما سيكون في يوم ما سعيداً إلا بعد موته.

صحيح إن هذا السؤال حير الكثيرين، وبقي ينخر ذاكرة التأريخ خلال أكثر من ألفي سنة... لذا فمن السذاجة أن نبحث جاهدين عن شخص سعيد نلقاه من دون

ميعاد، خاصة ونحن نعيش في أحلك الظروف ونتعرض إلى أكبر التحديات، ماذا دهانا أن نفعله في هذه العجالة ونطرق أبواباً لم تفكر يوماً بأنها ستستقبل أناساً من أمثالنا الذين يدفعهم الفضول الى أن يضعوا وردة على قبر اوربيد و يحاولوا تفعيل سؤاله السخيف في البحث عن السعادة ولم ير أحد منهم سوى التعاسة. إنه أمر طبيعي بالنسبة للتعساء، يفعلونه متى ما شاؤوا، وينبشون في أطلال المجهول أين ما كانوا...!!؟

من نوادر القدر أن الذين استفادوا من فحوى هذا السؤال أكثر من الذين يريدون أن يستفيدوا من جوابه المنتظر. وربما كان الكاتب الروسي (غوغول) هو اول من تمعن في هذا المنعطف الحساس. السؤال في حد ذاته حكمة ومفتاح لأمور كثيرة لمن يتمكن أن يتقنهما في الوقت المناسب. يتحدث غوغول عن راع يريد أن يثبت لمواشيه بأن أسعد لحظة في الحياة هي تلك التي يضع الجزار السكين على عنق الخروف، إنها لذة لا تضاهيها نعمة في الدنيا لذا تريد الماشية أن تنعم بهذه الهبة ولا تعود الى التعاسة الموجودة في جميع مفاصل الحياة. العبرة في هذه الرواية المصطنعة هي الفطنة التي تحلى بها هذا الراعي الحكيم، وبذلك فتح طريقاً أمام كل الرعاة لكي يحاولوا أن يقنعوا أغنامهم بصدق تلك اللذة وحلاوتها لكي تتسارع الضحايا وتتزاحم من أن أجل أن تنال النعمة قبل غيرها.

وحتى إن كانت هذه الحكمة طرفة دغدغت مشاعر القرويين في يوم ما، فضحكوا على غباوة الضحايا حتى ملأت عيونهم بالدموع والتي سرعان ماتبخرت أمام دخان سكائرهم الداكن، حيث أغلق العقل واختفت الحكمة الى الابد...

لا يشترط أن يحدث هذا العرض المضحك المبكي في كل مكان، فالمسألة تختلف كلياً بالنسبة لأهل المدن، حيث تعتبر هذه الحكمة أحد مفاتيح الحكم، بل تعتبر في

بعض المدن الكبيرة وخاصة ذات الحضارة العريقة فلسفة الحياة ونهجاً صحيحاً تستمد مصادر تخطيطهم المبرمج. وعن طريق تلك البرامج الذكية، يستطيع الحاكم أن يقتاد ملايين الناس مثل قطيع مطيع ويفعل بهم ما يشاء. حقاً إنه سحر محير لو لم يعرف أحد سر قوته، لكنه سرعان ما يتحول الى دجل مقنع لو تمكن أي شخص من فتح شفراته البسيطة التي لا تحتاج إلا الى تفكير مضاعف يستند في تحليله الى منطق سليم.

لايقتصر تأثير هذه الحكمة في دهاليز السياسة ومطبات إدارة الحكم فقط، بل تدخل في المناهج الثورية لأشد القوى راديكالية حيث تكتشف اللحظة السعيدة بين أسطر مبادئها العزيزة على القلوب. وكثيراً ما يصبح بعض رموزها كاريزما العصر من دون منافس، كما هو الحال في عنفوان اللحظات الأخيرة من حياة جيفارا أيام حروب التحرير في منطقة الكاريبى وأمريكا اللاتينية بشكل عام. لم يكن هذا التأثير بكاف عما يفعله الملوك ورجالات السياسة بشعوبهم عند الخط الحاسم بين الحياة والموت، فالحالة هنا تشمل الأحياء والأموات في وقت واحد... بل تعدى ذلك التأثير حدود الفكر و وصل الى مجالات الفن و الأدب، سرعان ما يسعى أديب معروف، أن يحول بطل روايته الى شخص خالد، يعيش مع الزمن، يعرفه القاصي و الداني. او يحاول نجم عالمي في الفن أن يجر قطعته الموسيقية او لوحته التشكيلية بشق الأنفس الى اللحظة الخالدة لكي تسعد بعز كينونتها.

أما نحن الكُرد، فلنا تراث يجهل هذه البدع والعبر والحكم، ولا ندع مبدعينا يتذوقون رعشة اللحظة الخالدة في المربع الذي يفصل بين الحياة و الموت. لا نشعر بثقل تحمل الذنب إلا أن تطاردنا أشباحهم، ويلحون أن نكرمهم، فما علينا إلا أن نخضع الى تلبية طلبهم بكل خشوع وإحترام، ظناً منا أن طيف الشبح الذي يسرح

ويمرح فوق المقابر هو الوريث الشرعي الوحيد لأعمال المبدعين من أبناء شعبنا. ورحم الله تعالى الشاعر المفكر محمد شيخ عبدالقادر دولاشي (١٨٩٨-١٩٦٥) والملقب بـ (قانع)، حيث يتحدث في إحدى قصائده الطويلة والمعنونة بـ(نزهة في الجنة) عن اللحظة الحاسمة بين يوم ولادته في القرن التاسع عشر ويوم مماته في القرن العشرين. يصف الشاعر كيف كان في لحظة الوداع مطمئناً، صافي الذهن، مرتاح البال، إلا أنه ذاق الأمرين عندما بدأ برحلته الشاقة الى الجنة ، ويفيض شرحاً وتفصيلاً عما شاهده ونازله في مغامراته وكيف تغلب على المصاعب، وكل ذلك بفضل القوة المعنوية الخارقة التي تسلح بها في (اللحظة السعيدة) التي يتمنى كل فرد أن يراها في يوم ما.

تخطيط التخطيط

التخطيط ضمن وحدة عمل معين او مشروع محدد امر ميسور وسهل المنال ومستساغ عند الجميع، لكن التنسيق بين وحدات العمل وتخصيص الامكانيات لانجاح كل منها ضمن مجموعة متكاملة هو الشئ المهم في برنامج مؤسساتي كبير، لذا من الضروري ان يكون هناك من يخطط لجمع شمل كل انواع التخطيط وما يشتمل كل منها على تخمينات وتدابير واحتمالات وتوقعات واعداد المسودات، فعند التقاء كل هذه التحضيرات في نقطة جوهرية مستوعبة ومدركة لكل هذه التشعبات في التنظير والتطبيق، تتقاطع على سطح مربع شمولي حساس وهو الموقع الحقيقي لما يسمى بتخطيط التخطيط.

هذا المربع الشمولي المدروس والمتجاذب المبرمج يحتاج الى رصيد مادي يموله كي يغذي جميع الاطراف والفروع وغالباً ما يعتمد على احد الجوانب الثلاثة الآتية:

١ـ في حالة عدم وجود موازنة متكاملة يرنو الى الاكتفاء بما هو متوفر لديه من مبالغ متواضعة، محاولاً استثمارها في كل المشاريع المرتبطة بها، كل ضمن تخطيطه الخاص، والذي يدخل في معادلات الانماء من دون ان يقبل الخسارة او التراجع عن المكتسبات الاكيدة، وذلك من اجل ان تتوسع الدائرة الاقتصادية معتمدة على القدرات الذاتية، وتطويرها نحو الامام الى ان تصل الى مدياتها الممكنة والمقبولة ضمن القياسات العالمية، وهناك تجارب كثيرة في هذا السياق كما هو متبع في ماليزيا على سبيل المثال لا الحصر.

٢- في حالة وجود موازنة كافية، تتكافئ فرص تمويل جميع مجالات التخطيط، من دون اللجوء الى حالات التقشف وشد الاحزمة على البطون، حيث تتوازن اعتمادات الدفاع والخدمات والاستجمام بوتيرة واحدة، وينفتح البلد على العالم ويوفي بالتزاماته القانونية والاقتصادية والثقافية على خير ما يرام. وهذه هي الحالة الطبيعية لنمو البلدان سياسياً وتطورها اجتماعياً، كما هو الحال في دول الخليج الآن.. ومنها دولة الامارات العربية المتحدة على سبيل المثال.

٣- عند فقدان الموازنة وشحة الموارد المالية، يلجأ الى القروض الخارجية والاعتماد عليها لتمويل ما هو مخطط ضمن المشاريع المتشعبة التابعة له، مما يضطر الى فرض الضرائب بشكل ينسجم مع المصروفات المتخصصة للخطط المتفرعة عنها وتسديد ما يترتب عليه من ديون، فتزيد الصعوبات وتستفحل الامور سوءاً نتيجة العجز المستمر في الموازنة العامة وكذلك في التخصيصات المرتبة على الجوانب الأُخرى. عانت كثير من الدول من هذه الازمة منها المملكة الاردية الهاشمية وجمهورية العراق... وغيرها.

هناك امثلة كثيرة اخرى لدول ومؤسسات كبيرة حول هذه المسألة وتشار اليها بالبنان، وان اختلفت احداها عن الأُخرى بعض الشئ، الا انها مجتمعة تعتمد على تخطيط التخطيط الذي هو الجامع الشامل لكل التخطيطات، ومن هنا تبدأ النقطة الحساسة

والخطيرة في كيفية وضع فلسفة التخطيط التي تنسجم مع الامن القومي للبلد، ومن هذا المنحى يبنى عليها مصير الشعب ومستقبل اجياله كونها تستمد قوتها المعلوماتية من الفلسفة الاجتماعية للبلد، والخبرة التراكمية لمواطنيه، والثقافة العامة المستساغة عند الناس، وكذلك السياسة المؤتلفة في ادارة الدولة، وكلها مصادر اساسية مستوحاة من تاريخ البلد، ذلك التاريخ الذي تتوغل جذوره في اعماق الإنسان فيكون الإنسان هو الهدف والغاية السامية ومن اجله يوضع التخطيط اصلاً.

وهكذا تبدأ خطوات الاعداد للتخطيط من جذور الإنسان الموغلة في الارض، ومن ثم الى تاريخه وثم الى فلسفته في الحياة التي تعكس فيها ادارة جميع مفاصل الدولة من تشريعية وتنفيذية وقضائية والحالة الثقافية السائدة فيها، الى ان يصل الامر الى البدء في وضع اللمسات الاكاديمية للتخطيط الشامل للبلد الذي يمر الى جميع جوانب الحياة الرسمية والشعبية والتي تلتقي في لحن شجي تعزفها سياسة البلد على سياق انغام حضارتها التي تتفاعل مداً وجزراً مع الحضارات الأُخرى.

الفهرست

الفلاح الكُردي والحسناء الامريكية..... ١٠
كيف ضيع الكُرد المشيتين؟ ١٢
تساؤلات معلم من كُردستان..... ١٣
الحب بين العنف العربي والإعمار الكرد..... ١٤
الحكومة ذات الخطة ي الذكية ١٦
أرقام ونسب و.. مفارقات..... ١٧
سر الخط الأحمر الوحيد ١٨
أصالة القيم ٢٠
الكرامة اولاً وثم ٢١
المدنية او النوم على رجل واحدة ٢٢
نقطة إلتقاء مشتركة ٢٣
حصة الكُرد من ثقافة الوهم ٢٤
الذكاء النير وظله الكئيب ٢٦
الكره المحبب بين الرجل والمرأة ٢٥
سرحان ... ما أعظمك ! ٢٨
تقويم الخطأ: ٣٠
لغتنا الجميلة ولغاتهم المفيدة ٣٢
إنتصارت الرجل و ذكاء المرأة ٣٤
هل يصبح مامه ياره سانتاكلوسًا في كُردستان ٣٦
في البدء كان العمل ... وفي النهاية الثقافة ٣٨
إنفتاح الثوابت و إنغلاق المتحولات ٤٠
في بيتنا إمرأة عمياء ٤٣
من كان بيشمركة المقاومة و ٤٥
الحقيقة الضائعة في كنف المعادلات الصعبة ٤٧

تهميش المهمشين ٤٩
الخطوط الامامية ٥١
التعيس الذي لا يجامله الحظ .....
الهوية الرقمية وإيجابياتها..... ٥٢
انقسام فأنشطار فأختلاف فأتحاد ٥٢
يغير الشعر لونه وكذلك الدولة..... ٥٥
حول مسألة نمو التفكير البشري في الاقليم..... ٥٧
موازنة الأسرة ٦٠
ما الذي يجمع بين الثقافة العلمية والثقافة الأدبية؟..... ٦٢
الفيدرالية في سؤال وجواب ٦٤
الادوار المتباينة والنتائج المتشابهة ٦٧
الجوهر المغبون في العلاقات المستفحلة ٦٩
الحلم... حق لايغتصب ٧٢
حكمة كُردية في التعلم..... ٧٤
ومن اعماق الفكر تشرق الشمس ٧٦
ويبقى التراث نبراس الحياة..... ٧٨
بين مصر وكُردستان نغمات تتعانق ٨١
ضفاف الكرامة..... ٨٣
من أسرار التحولات الصامتة ٨٥
في الطب الشعبي حكم و مواعظ ٨٨
أهمية الخريطة الذهنية في الثقافة المعاصرة..... ٩١
تخطيط التخطيط ٩٤
نعمة الحرية ونقمتها المستترة ٩٦
قيمة الخبرة المتأصلة ٩٨
الترتيب المنطقي لاستراتيجية الاعلام ١٠٠
الاستخدام المشروع للقوة النائمة ١٠٢

ظلال المحبة الكونية ١٠٤
عظمة الإنسان في نجاحاته ١٠٧
ما رأيته في دموع الشاعر ١١٠
إنهم يشتركون في صنع مأساتهم! ١١٦
سكت الفكر فنطق الشعر ١١٩
الحرية بين تابع ومتبوع ١٢٢
الاطلال النبيلة ١٢٥
حقوق الطفل اولا ١٢٨
الفوضى المنضبطة في ثقافة الحدود ١٣٠
تحسين ما هو ليس حسن ١٤٤
حكمة المعتوه في أفعاله ١٤٦
ما لنا وما علينا في الوقت الحاضر ١٤٨
الأدارة في الووسط!!.. ..... ١٥١
الطود الشامخ أبداً ١٥٣
قف... لا تغضب..!؟ ١٥٦
المقومات الناقصة في المأساة الكُردية ١٥٩
ما بين الشجاعة والقراءة ١٦٢
القراءة ثروة وطنية كبرى ١٦٤
مفتوح .. مغلق ١٧٧
٢-١=٢ ..... ١٨٢
حول المنطق ايضاً.....١٨٤
أحلامنا في القرن الماضي وما نعمله في القرن الحالي ١٨٦
الحضارة الكُردية بين صناعة اللبن وصناعة النكتة..... ١٩٠
الحقيقة العابثة في حياة الكُرد..... ١٩٣
سيدة من بلادي.....١٩٧
ضحايا المنعطفات الوعرة ٢٠٠

عشقي الكردستاني" رمز للإنسان المتحدي حضارياً..... ٢٠٢
من كان عالمي التفكير و محلي العمل!؟ ٢٠٥
التأريخ وأرثه الممل بأثقاله..... ٢٠٨
الزوايا الحرجة في تأريخ الكُرد ٢١٠
في وعي التواضع ٢١٣
لماذا يعشق الكُرد الجبل وليس النهر؟..... ٢١٤
الدوائر الخاملة في العقل الكُردي ٢١٨
البيشمركة: الوطني الذي لا يقهر..... ٢٢١
التربية في المجتمعات غير المستقرة ٢٢٤
الأزمة المعرفية في ماهية الاشياء المجهولة ٢٢٧
هل هناك أخطاء تنظيمية مميتة ٢٣٠
اللحظات الحية في التأريخ..... ٢٣٣
ما الذي يجعلنا نكون أفضل من الآن ٢٣٦
هل لنا أن نعرف محاور القضية الكُردية؟ ٢٣٩
لا يستحق القاطع و القاتل الاحترام ٢٤٢
الدكتاتور الأكبر وحفيده الأصغر ٢٤٦
هل في الإعلام الكُردي ما يجرح مشاعر الآخرين؟ ٢٤٩
البؤر الساخنة.. بين الفكر السياسي الكُردي.. ..... ٢٥٣
الأقسام المؤجلة من الأسئلة الخالدة ٢٥٦

أحمد قرني

مواليد آكرى ١٩٥٥

ـ متخرج من دار المعلمين وكلية التربية وحصل على الدكتوراه من جامعة صلاح الدين ـ أربيل.

ـ عضو اتحاد أدباء الكُرد ١٩٧٨- ١٩٨٠.

ـ أشرف على العملية التربوية في المناطق المنكوبة، وتم توثيقها في كتيب بعنوان (تجربة مدارس الثورة في منطقة بادينان ٨٧- ١٩٨٨).

ـ عضو جمعية الكتاب الكُردستانيين ١٩٨٩- ١٩٩١.

ـ عضو نقابة صحفيي كُردستان .. وخلال عمله في الصحافة ترأس تحرير عدة مجلات باللغتين الكُردية والعربية.

ـ عضو نقابة الصحافة العالمية

ـ عضو اتحاد أدباء الكُرد ـ فرع دهوك.

ـ يعمل حالياً مستشاراً في وزارة التربية ـ أقليم كُردستان العراق.